إنهيار برج بابل

إياد حرفوش

إنهيار برج بابل / رواية

د. إياد حرفوش

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : **dar_oktob@gawab.com**

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

إياد حرفوش

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٩٣٢٠

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٧-٠٢-٧

إنهيار برج بابل

رواية

إياد حرفوش

الطبعة الأولى

٢٠١٠

اكتب
UKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح والدي الحبيب، فضيلة الأستاذ/ أحمد
حرفوش، رحمه الله رحمة واسعة قدر ما علم وألهم ..
آمين

المؤلف

تنويه

كان الهدف من روايتي هذه أن تكون رواية معرفية في المقام الأول، تقدم لقارئها قيمة أدبية ومعرفية متكاملة، ولذلك، فهي وإن كانت من الجهة القصصية والدرامية من خيال كاتبها، إلا أن ما ورد فيها من وقائع وأحداث تاريخية من التاريخ الإسلامي أو التاريخ الحديث والمعاصر هي في جملتها وتفصيلها وقائع وأحداث تاريخية موثقة، وقد أشرنا لمصادرها ومراجعها في هوامش الرواية، وأفردنا لتفصيلها مساحة في نهايتها، وهو أمر غير معتاد في عمل روائي، لكننا رأينا فيه توفيرا لجهد القاريء الذي يحب أن يطمئن لصحة ما يقرأ من وقائع وأحداث ومأثورات، فخالفنا المتعارف عليه حرصا على تقديم قيمة معرفية فضلا عن الإمتاع الأدبي، ليقيننا بأهمية هذه القيمة في مرحلة التنوير التي مازال شرقنا العربي يخطو فيها خطواته الأولى، ونرجو أن نكون قد وفقنا في هذا بعض التوفيق، وبالقدر المرضي لقارئنا العزيز، والله من وراء القصد وبالله التوفيق

المؤلف

القاهرة في صيف ٢٠٠٨

حلّي ضفايرك ضُـــليلة .. وللمينا يا أصـــــــــيلة

ونقول ولا شيء هيوْقِفْنا .. لا أبو جهل جهـــله يحرفنا

عُشاق تُرابك .. أحـــــبابِك .. وكلنا أهـــل وعـــيلة

ولا أبو لَهب هيخوْفنا .. ماحناش ضُعاف قلالات حيلة

آه يا كحيلة

إحنا اللي يوم الفِدا رُحنا .. نفديكِ ونضحي برُوحـــنا

شعر: سيد حجاب

وضحكنا حتى على جُروحنا .. ضِحكتنا هوِّنت الشيلة

(١)

ليل النهروان

ظلام مطبق على مرمى البصر. تعتاد عيناي الظلمة قليلا فأجدني منفردا وسط سهل مترامي الأطراف. ليس صحراويا خالصا، ولكن تلتقي فيه تربة سوداء خصبة بحافة صحراء قاحلة. ولكن .. كيف عرفت ذلك؟ بحدثي فقط؟ لست أدري. يالها من ليلة حالكة الظلمة! تبددت في ظلمتها خيوط نور متسللة من هلال قارب المحاق. أستنشق بالكاد رائحة أرض طينية خصبة عامرة بطمي النهر، فلا أكاد أملأ منها صدري حتى تبددها هبات ريح تأتي من جهة الصحراء، حاملة مع هجيرها حبات رمل تلسع وجهي وذراعي.

لماذا أشعر في قلبي ثقلا وفي نفسي اكتئاباً؟ ربما تزعجني رؤية رمال الصحراء وهي تزحف على الخصب والنماء، فزحف الصحراء على الأرض الخضراء يذكرني دوما بمأساة الوطن، تلك التي بدأت في سبعينات القرن الماضي و لم تنته حتى اليوم، حين زحفت الصحراء برملها الضنين على وادي النيل الخصيب، فبُددت حضارة النماء بثقافة الفناء.

تعتاد عيناي ظلمة الليل أكثر فأرى ما يجعل قشعريرة تسري

من رأسي لأخمص قدمي، فالسهل المترامي أمام عيني كأنه شهد في صفحة النهار معركة ضارية. معركة ليست من زماننا! ففوق سمرة الطين التي وخطتها صفرة الرمال تناثرت جثث القتلى على مرمى البصر فضلا عن جثث لخيل وجمال، يتخللها جميعا حطام سيوف وهشيم رماح لوثها الدم، فقط حطام، فبعد معارك ذلك الزمان، كان المنتصر يرث ما كان صالحا من السلاح، ولا يترك بين الصرعى غير سيف مكسور أو رمح ناصل. والقتلى في كل حال أكثر خلق الله جنوحا للسلم فلا حاجة بهم للسلاح ما صلح منه وما تحطم، فلا يعرف قيمة الحياة وروعة السلام أكثر ممن فقدها بتروة سيف أو نزق سهم. الآن تتسلل لأنفي رائحة ثقيلة مميزة، رائحة الجيف البشرية، حين يتحول ابن آدم الذي تغذى على الطبيعة زمنا إلى وجبة لهذه الطبيعة نفسها، دورة الحي من الميت والميت من الحي اللا-نهائية التي أسس عليها الكون.

ميزت مركز معركة النهار بكثافة الجثث المكدسة فيه، فاقتربت منه بخطوات زادت سرعتها، أشعر بخفة في خطاي، حتى شعرت كأني أقطع عدة أمتار بكل خطوة كأني أطير في الهواء! فهل يعني هذا أني في منام؟ هذا شعور لم آلفه في غير النوم. أتوقف عن سيري وقد خيل إليّ أني أرى حركة بين

الجثث، بل هناك حركة بالفعل، نسر جائع ينهش بطن فرس مبقور، لعله أول دفقة من بركان جوارح، ولعل الوليمة البشرية المضمخة بصلصة الدماء تمسي عشاء سائغا لسربه الذي طال جوعه في هذا القفر، وهكذا مصائب قوم عند قوم فوائد، وجثث قوم لقوم طعام، أليست النسور أمة مثلنا تسبح ربها؟ فلعلها حين تلحق بأولها تحمد الله على الرزق الوفير، ولعلها لو اشتد بها الجوع ذات يوم تدعو الله تضرعا لترزق بمذبحة يهلك فيها ألوف البشر. ولم العجب؟ فكم من خطيب خصص دعاء ختام الخطبة يوم جمعة لاستنزال الويل والثبور ومصائب الدهور على أمريكا وأوروبا وكل الدنيا حتى تعود لنا نحن الكسالى ريادتنا بمعجزة دامية.

حارت عيناي بين التحقيق في مشهد الموت الذي يحيط بي من كل حدب وصوب وبين الهروب ببصري إلى سواد السماء ونجومها المنثورة فيه، يجذبني فضولي التاريخي للتفرس في آثار المعركة فيطردني نفوري من مشهد الجثث المكدسة بعضها فوق بعض، وياله من مشهد، فأمامي بهذا السهل يرقد ما لا يقل عن ألفي قتيل، بل لعلهم ثلاثة آلاف، فظلمة المحاق تحجب عني الكثير، ثلاثة آلاف قتيل! قد يبدو الرقم عاديا حين نقرأه في كتب التاريخ، ولكن حين نقف بين القتلى وتقتحم أعيننا

أشلاؤهم المنثورة، ويزكم أنوفنا عطن جثثهم الآخذة في الترمم، يختلف الأمر تمام الاختلاف.

أتأمل الوجوه التي فارقتها الحياة فأتخيل آلاف الأرامل بغير رفيق، آلاف البيوت بغير رب، وآلاف الصبية بغير أب، أن نقرأ التاريخ شيء، وأن نعيشه شيء آخر تماما. في النهاية ينتصر فضولي التاريخي فأمضي مواصلا جولتي بين الجثث المنثورة كالركام، لأرى أغلب من سحقتهم المعركة شباب في مقتبل العمر. وهكذا الحال دوماً، حرس الماضي من الشيوخ يديرون رحى الحروب فلا تطحن إلا زهور المستقبل من الشباب، لكني ألاحظ ظاهرة أخرى في هؤلاء الفتية الذين حصدهم الموت صباح اليوم، أغلبهم، أو ربما كلهم يشتركون في سمتين، رؤوسٌ حليقةٌ، ولحى شعثاء طليقة كأنهم رهبان أو كهان! وبعضهم يستر رمته قميص قصير لم يكن مما يُلبَس للحرب في ذلك الزمان، لكن هذه سمات .. هل هم من أحسب؟ هل هم الخوارج[1]؟ أم أن انشغالي بهؤلاء يدفعني لتأويل المشهد بغير ما يحتمل؟

---

[1] من أوائل الفرق الإسلامية، ظهرت بعد معركة صفين و سميت بذلك لأن أتباعها خرجوا على كل أطراف الصراع، و قالوا بكفرهم جميعا، رافعين شعار: الحكم لله، و قال بعضهم بعدم الحاجة للحاكم إلا في زمن الحرب! أما في السلم فيحتكم الناس للقرآن والسنة (٨-٩)

أرى على البعد ما أحسبه كائنا حيا آخر يقف على أطراف مستنقع الموت، ليس من جوارح السماء قطعا، بل فرس أميز في الظلمة حركته وتكاد تصلني حمحمته، تحركت قدماي في خطواتها الواسعة التي تطوي الهواء طيا صوب الجواد رغما عني، كأن غيري يحركها! ومع خطواتي المقتربة صوبه أرى ما أجفل منه، فالفرس ليس وحيدا أفلت من المعركة بعد هلاك فارسه كما ظننت، بل إن له لرفيق! هاهو يقف تارة ويطوف تارة حول فارسه! رجل يجلس على حجر كبير يشرف منه على ملحمة الموت متأملا فيها، فمنذا يتأمل هذه المذبحة البشعة في هذا النزع من الليل؟ منذا يتأمل الموت بهذا الاهتمام غير شبح؟ ولكن .. لم العجب منه؟ ولماذا أفترض أنه شبح بينما أفعل أنا ذات الشيء متأملا هشيم المعركة. هكذا دوما نرى العجب في الآخرين ولا نرى عجبا في أنفسنا. ننظر للقشة في عيونهم ولا نشعر الخشبة بين جفوننا.

أقترب صوب الفارس فلا ينتبه لي رغم نظرته تجاهي، أحاول أن أتحدث ملقيا السلام فلا يستجيب لي لساني، بل إنني أتحدث بالفعل لكني لا أسمع لي صوتا ولا يبدو على الفارس أنه سمعه، فماذا يعني هذا؟ أهو الشبح أم تراني أنا قد صرت شبحا؟ عندما لا أسمع صوتي حين أتحدث ألا يعني هذا أني ميت؟

والأدهى إنني أقف الآن على مرمى حجر من الفارس، أمامه تماما، وتمر عيناه بي فلا يبدو لهذا أثر على وجهه، هذا يعني أني غير مرئي فضلا عن كوني غير مسموع، ألا يزيد هذا من احتمالات موتي وأني صرت شبحا أثيريا؟ لكن ما هو الأثير؟ ما هو ذلك التعبير الغامض عن اللا شيء؟ عموماً لو كان هذا هو الموت فليس بالسوء الذي كنت أتخيله، فكوني غير مسموع ولا مرئي لا يضايقني كثيرا، بل ربما كان أمرا مريحاً.

يظهر على مرمى البصر مارج من نار يتوهج في ظلمة الأفق، شعلة يحملها إنسان تقترب فيظهر حاملها رجلا سامق القامة عريض الكتفين، وحين تتسع دائرة النور لتشمل الفارس فوق الصخرة كاشفة عن ملامحه يبدو لي في نهايات عقده الخامس، وسيم الملامح، واسع الجبهة، نافذ العينين، لحيته قصيرة مهذبة وخط الشيب جوانبها فزاده وقارا وجلالا، بادي القوة كطود مكين حتى وهو جالس بهذا الوضع الجنيني، فهو مجدول الذراعين عظيم الساعدين بارز الصدر، ربعة بين الطول والقصر. بجواره يلمع سيف في ضوء النار فيبدو شديد التميز عن غيره من الأسياف، سيفٌ ينشق منتهيا بذؤابتين حادتين كأنهما لسان الأفعى .. وهذا .. هذا سيف لا يتكرر كثيراً.



سيف تلك صفحته أطاح برأس **عمرو بن ود** جبار الجاهلية يوم تحدى أصحاب رسول الله في الخندق، وعرفه التاريخ باسم **ذو الفقار**، في زمن كان للسيوف والخيول فيه أسماء وأنساب، سيف هاب ذؤابتيه الأبطال المغاوير. لكن لو كان السيف **ذو الفقار** فالفارس لابد صاحبه؟ فهل يكون هو؟ هل أقف أمامه حقا؟

يقطع صوت القادم بشعلة النور الشك باليقين حين يضع يده على كتف الفارس قائلا "السلام عليك يا أمير المؤمنين". إذن فهو الأمير، هو الأمير شرفاً، والأمير نسباً، والأمير سبقاً، هو من وصف نفسه ذات يوم فقال "**يحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي**"[٢] وصدقه التاريخ، ففسد في حبه قوم وفجر في بغضه أقوام، هو أول من دان بالإسلام من الذكور. ابن عم النبي وربيبه وصهره. وهو بعد ذلك رابع الراشدين وإمام المتقين. هو الأسد

---

[٢] (١٠٠)

الغالب **علي بن أبي طالب!** فما حمل ذاك السيف وكني بأمير المؤمنين غيره! **فهل أقف حقا أمام علي في ميدان معركة؟** معركته ضد جيش من حليقي الرؤوس مطلقي اللحى؟ إذن فقد صح ظني وهم الخوارج، وهذا السهل إذن هو الواقع خارج قرية النهروان متوسطا المسافة بين بغداد وحلوان، والزمان هو القرن السابع الميلادي، عام ستمائة وثمان وخمسين للميلاد تحديدا. لكن ما بال علي يجلس بهذا القفر وحيدا كاسف البال؟ وفيم الحزن البادي على محياه الكريم بعد موقعة انتصر فيها نصرا مؤزرا؟

أراه يلتفت نحو القادم التفاتة يسيرة برأسه ويرد سلامه بنبرة هادئة بالغة العمق فيقول "وعليك السلام أبا إبراهيم". إذن فحامل النور هو **مالك بن الحارث النخعي** الملقب بالأشتر (بعد شتر أصاب عينه وهو يحارب تحت لواء الرسول)، ذلك القائد المبهر الذي انحاز لعلي في الفتنة وحارب معه كل مواقعه حتى ولاه على مصر، فما كان من **عمرو بن العاص** إلا أن أوعز لأحد صنائعه من بدو الصحراء أن يستضيفه في طريقه

للفسطاط، ثم يدس له سما في العسل، فكان **معاوية** إذا ذكر تلك الواقعة يقول "**إن لله جنودا من عسل**"[٣].

"ما خطبك الساعة أبا الحسن؟ أهذه حال من أيده الله بنصره؟" هاهو القادم بشعلة النور قد ناب عني فسأل عما يدهشني، يبتسم علي ابتسامة يتغضن بها وجهه كأنها تقلص من ألم ويجيب "الحمد لله من قبل ومن بعد، لكن حالي وحال هؤلاء الصرعى حال عجب، شهد الله ما كانت معركة أثقل على القلب من النهروان، ولا نصر أشقى للروح من نصرنا فيها، أتراك لو دخلت بيتك فوجدت ولدا لك قد قتل أخاه، ثم وقف بالسيف مشهرا على رؤوس بقية إخوته يهم أن يفتك بهم، فنهرتَه ولم ينتهر، ورأيتَه لو تركته فاتكٌ بهم لا محالة، فسللت سيفك ولوحت به في وجهه متوعدا، لكنه لم يرتدع بل هم بهم، فعلوته أنت بسيفك فأرديته قتيلاً. أتراك يومئذ ترقد في فراشك هانئاً؟ ألا تتميز كمداً على القتيلين، من ماتَ بسيف أخيه ومن مات بسيفك؟ من مات في باطل العدوان، ومن مات في حق القصاص؟ هذا هو حالي مع هؤلاء التعساء، أحزن لمن قتلوه من الأمة ظلما وعدوانا وهم يحسبون أنهم

---

[٣] (٦-١٢٩)

يحسنون صنعا[٤]، وأحزن لهم وقد اضطروني لقتلهم لأحمي المسلمين من رهق أسيافهم وخراب عقولهم".

يسكت لحظة مطرقا ثم يستأنف كمن تذكر أمراً فيضيف أنه ما كان ليحزن لو أنهم كانوا جميعا واعين لما يفعلون ككبارهم الذين استنفروهم، لكنه يأسى لجمهرة القتلى من الصبية الذين ضللتهم العمائم واللحى ممن ادعوا أنهم صحابة رسول الله، وزعموا أنهم نجوم يهتدى بهديها[٥]، فاتبعهم الصبيةُ على ذلك جاهلين بأن الصحابي الحق هو من صاحب الرسول حيا ثم تحرى منهجه ميتا، أما من غير وبدل فهو ممن يرد عن حوضه الشريف[٦]، وهل غير وبدل أكثر من قادتهم الذين جعلوا شباب المسلمين سيوفا تقاتل للشيطان وهي تهتف باسم الرحمن؟

---

[٤] كفروا من خالفهم وأهدروا دمه وآخر جرائمهم قتل عبد الله بن خباب بن الأرت وآل بيته (٨-٩)

[٥] من الخوارج من صاحب الرسول (ص) كزيد بن حصن وشجرة بن أوفى من أهل بدر، ويزيد بن عاصم وعمران بن حطان وعبد الله بن وهب الراسبي، والإشارة هنا لحديث "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" ويتراوح تقديره بين الضعيف والموضوع وفقا لآراء ابن حزم والألباني (٩- ١٠- ١٢٩)

[٦] إشارة لحديث "ليردن علي ناس من أصحابي الحوض، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك" (١٢)

يتململ مالك معارضا منطق علي في تحميل ذاته فوق ما تحتمل، ثم يحاوره بمنطق أكثر بساطة ومباشرة مفاده أن عليا قد حفظ أمانة الأمة وخلص الناس بقتال الخوارج واجتثاث شأفتهم، وما كان بيده غير القتال بعد تنكيلهم بالأبرياء العزل وسفكهم الدماء وانتهاكهم الحرمات، ويختم رأيه بقوله "قاتلناهم ومكّن الله منهم وقضي الأمر".

"لا". هكذا أسمع عليا يجيب بالنفي وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة في أسى وعبوس، فيعلق قائده سائلا "كيف وقد اجتمعوا لنا بالنهروان فأفنينا منهم في بياض النهار كل راجل وراكب؟". يطرق علي وقد علت محياه بسمة ذات شجون، بسمة عميقة الجذور في قلبه، فلعلها تعلو وجهه كلما ذكر رسول الله (ص)، نبيه ومعلمه وقائده، ثم يجيب مذكرا صاحبه بحديث لرسول الله عن قوم يخرجون من أمته، سفهاء الأحلام أحداث الأسنان، يقولون من خير قول الناس، ويقرأون القرآن بألسنتهم لا يتجاوز تراقيهم، وكيف بين النبي أنهم لتنطعهم يمرقون من دين الوسطية كما يمرق السهم من الرمية، وبين مشروعية قتالهم كذلك بقوله "**طوبى لمن قتلهم أو قتلوه**[٧]".

---

[٧] (١٢-١٣- ٥٥-١٣٠)

ويضيف الإمام أنه سمع منه (ص) صفتهم تلك التي يراهم مجندلين عليها؟ أحداث الأعمار، يجيدون الحديث ولا يجيدون فعلاً، يشددون على الناس في الصغائر ويقترفون الكبائر، يستحلون دم الأبرياء ويقتلون على الشبهة، يكثرون العبادة فلا تكفهم عبادتهم عن منكر ولا تأمرهم بمعروف. بل إنه (ص) قد وصف رؤوسهم الحليقة ولحاهم الغبراء وجباههم السوداء، فإن كان الرسول لم يحدد لهؤلاء المتطرفين زمانا ولا مكانا، فذلك لأن التطرف طبع متأصل في نفوس بعض البشر، كأن الدنيا وادٍ طويل بين جبال، لا يستطيع الضعيف السير فيه إلا لو تمالك على حوائطه الصخرية يمينا ويسارا، أما القوي فيتوسط الطريق منتصب القامة، لا يحتاج لتحري الجدران. فلما كان أكثر البشر ضعفاء النفوس، فهم يتهالكون على الأطراف، منهم من يتطرف في دينه ومنهم من يتطرف في دنياه، ولهذا شهدت كل أديان الأرض متطرفين ومتعصبين بلا حصر، ولهذا فعلي يعتقد بأن الخوارج باقون أبد الدهر، ويغلب على ظنه أن قاتله سيكون من بينهم، فهو يذكر يوما مرض فيه ولازم الفراش لشدة مرضه، وحين زاره النبي فرأى شدة جزع زوجته الزهراء عليه، ما كان منه إلا أن طمأنها بأن عليا لا يهلك من مرضه

هذا، فلن يموت حتى تشج رأسه وتخضب الدماء لحيته[8]، إذ يغتاله أشقى الأمة.

هنا أسمع مالكاً يعترض بقوله "وهل بقي منهم بعد يومنا هذا من يجسر على رفع السيف عليك؟" فيرد علي مغلبا أن يكون منهم قاتله، ويكون منهم في زمان غير الزمان من ينكص بالمسلمين للوراء، تشغله الفروع عن الأصول، يأنس للخلاف ويجزع من الوفاق، يستأسد على النساء ويخضع للأعداء، وبهذا يلتهي الناس عن إعمار الدنيا ونمائها ويشيع الفساد فلا يجد من يرده. يطرق مالك ثم يرد وقد قطب جبينه مستنكرا أن يتحدث علي في أمر مستقبلي بغير مرجعية فيقول "نبوة يا علي؟"

"حاشاي، لا يعلم الغيب بالحق إلا الحق، لكنه الاستشراف والرؤية وفهم مجريات الأمور" فيرد مالك بقوله "فهو تشاؤم إذاً، قم لنسامر الجند يا رجل، فلا أحسب غيابك إلا مؤولاً لصالح تلك الأفاعي الراقدة أمامك، سيقول قائل من الجند: حزن الأمير عليهم، ولو كانوا على باطل ما حزن، فليس كل رجل حمل السيف معك يعرفك، ولا كل جندي بجيشك مدرك رقة نفسك يا أسد المعارك وحكيم الليالي"

---

[8] (١٥)

"علم الله أنهم على الباطل، وأن بينهم وبين الحق ما بين الأرض والسماء، إنما يحزنني من أمرهم أنهم غرّ مضللون"

"بل ضالون مضلون". هكذا يجيب مالك ثم يعقب بأن أمير المؤمنين أعطاهم كل خصلة أرادوا فأبوا إلا الخروج عليه، وكان مالك نفسه يستصرخهم يوم صفين وهم بعد ضمن عسكر علي ليعطوه سواعدهم ساعة من نهار، فقد كان النصر قيد خطوات، لكنهم أبوا إلا قبول الخدعة الأموية برفع المصاحف والاحتكام لما في كتاب الله! فاضطر علي لقبول التحكيم مكرها وهو يعلم أنها مكيدة، ولم يكتفوا بذلك بل أجبروه على ندب **أبي موسى الأشعري**، وهو على تقواه لا يقوم له رأي أمام مكر ابن العاص، ثم حكم الحكمين يوم اجتمعا في دومة الجندل فكانت الطامة الكبرى، فقد اتفقا أن يخلع كل منهما صاحبه ويتركا الأمر للمسلمين يولوا من أرادوا، لكن عمرا قدم أبا موسى ليتكلم أولا فقال الرجل خالص النية "أيها الناس، إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها فلم نر أبلغ من خلع الرجلين، وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتم". وهنا تقدم عمرو متمما خدعته فقال "إن أبا موسى خلع صاحبه، ألا وإني قد خلعت صاحبه كما خلعه، ولكني

أثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه" فبهت أبو موسى للخديعة وأغلظ القول لعمرو بعد فوات الأوان، أما القراء الذين اضطروا عليا لقبول التحكيم فارتدوا على أعقابهم يقولون "لا حكم إلا لله"، ويكفرونه لأنه قبل مبدأ التحكيم! وخرجوا عليه فعاثوا في الأرض فسادا بالقتل والسبي والسلب[٩]، فما كان لهم من طبيب غير السيف.

هكذا أسهب مالك في تعديد مثالب الخوارج وصبر الأمير عليهم قبل أن يختم بسؤاله عليا "ففيم حزن الأمير؟" يلتفت علي لصاحبه ويهم بالكلام وهو يومىء برأسه مصدقا على ما عدد من أحداث ووقائع.و .. ولكن رنينا يقطع صمت الصحراء! رنين لا يناسب المشهد ولا الزمان .. فهو رنين آلة!

---

[٩] تفتق ذهن عمرو بن العاص عن حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح طلبا للصلح فانخدع بالحيلة من كان بجيش علي من القراء وامتنعوا عن القتال حتى اتفق الطرفان أن يندب كل منهما حكما ليتدارسا الموقف ويحكما بما يريان صالحا، فندب معاوية عمرا بن العاص وأراد علي ندب عبد الله بن عباس لفطنته، فرفض القراء أن يندب غير أبي موسى الأشعري (٨-٩-١٣-١٧-١٨)

(٢)

سيف في عنقه

الأربعاء، الخامس من سبتمبر

يتلاشى مشهد الصحراء مع الرنين لتحل محله ستائر ذات رسوم فرنسية كلاسيكية يتخللها ضوء الصباح، يفرك الدكتور **علي الإمام** جبهته من أثر النقلة الزمنية الحادة من القرن السابع للقرن الحادي والعشرين ثم يحرك رأسه يمنة ويسرة قبل أن يعتدل في فراشه جالسا ويمد يده لعلبة سجائره وقداحته فيشعل سيجارة، مع الجرعة الأولى من النيكوتين يتردد برأسه الحديث النبوي في وصف الخوارج بصوت كأنه صوت الإمام كما سمعه في نومه، فيصدق على قول الرسول بقلبه، فهم اليوم أيضا كما وصفهم (ص)، صغار الأعمار، ضعاف العقول، كثيرة عبادهم، قليلة تقواهم، يخرج القرآن من حلوقهم فلا تفطن لمغزاه عقولهم، يفاخرون الدنيا بغبرة لحاهم، يشددون على الناس في الصغائر ويرتكبون الكبائر، وهم كما قال علي مازالوا يترفون كالصديد من أصلاب الرجال وينصبون كالحمم من أرحام النساء حتى أفسدوا على الناس دنياهم، فلا تجد بين الناس رشيدا إلا من رحم الله.

هكذا كان يفكر مطرقا حتى انتهى من سيجارته التي يبدأ

يومه بها، عادة سيئة من حصاد فترة التيه الجامعي يتمنى الخلاص منها، والتيه الجامعي هو الاسم الذي يطلُقُه على حقبة دراسته الجامعية في الثمانينات؛ لما شاب هذه الفترة من فوضى التوجهات في الجامعات المصرية، فبعد أن أطلق النظام المصري حية التطرف الديني في الجامعات والمؤسسات لتبتلع التيار اليساري والناصري دعمها بكل ما أرادت حتى تضخمت وابتلعت خصومه بالفعل، لكنها استدارت فحاولت أن تبتلع النظام ذاته، وقتل رئيس الجمهورية الذي عقد الصفقة معهم برصاصهم أمام كاميرات العالم، ولذلك اختلفت الصورة في مطلع الثمانينات، إذ شهدت الجامعات صراع الساحر والثعبان بين النظام وتيار التطرف الديني، أما الثابتون على المنهج من الناصريين واليساريين في مجتمع الجامعة فوجدوا أنفسهم في تيه خطر، يهاجمهم فيه الثعبان ويلعنهم الساحر، فيختلفان في كل أمر ولا يتفقا إلا في العداء والكيد لهم، واستمر هذا التيه حتى استطاع الساحر أن يعيد السيطرة على حيته في التسعينات لتصبح أطوع له من بنان! وفي ذلك التيه دخن سيجارته الأولى عقب صدامه مع حية التطرف لأول مرة، حين أوجبت عليه صفته كرئيس منتخب لاتحاد الطلاب مواجهتهم، كان ذلك إثر رحلة نظمتها أسرة من أسرهم الطلابية، تخللتها دعاية فجة لمرشحيهم لاتحاد الطلاب، فادعوا أن انتخاب مرشحيهم

واجب ديني على الطالب المسلم لأنهم وحدهم من يلتزم بمنهج الإسلام في العمل العام! حاول علي أن يقاوم نشاطهم بنشاط فكري معتدل يقابله فإذا بأمن الكلية يستدعيه ليبلغه أن المواجهة والتصعيد ضدهم غير مطلوبين من القيادة السياسية. يومها عرف علي أن الأمور ليست دائما كما تبدو في ظاهرها.

ينتبه علي من سيل ذكرياته الجامعية ويقوم إلى الحمام فيفتح صنبور الماء البارد منحنيا للأمام ليغسل وجهه، ومع انحناءته فوق الحوض تتدلى من عنقه قلادة فضية تحمل شكلاً مألوفا، شكل سيف ذي ذؤابتين .. قلادة ذو الفقار! قلادة لم تفارقه منذ شبابه الباكر ويخفيها عادة تحت ملابسه حتى لا يضطر لشرح رمزيتها كل يوم، وحين رآها زميل له عرضا وسأله عنها، أجاب "لست شيعيا وليس ذو الفقار عندي رمزا دينيا، ولكنه رمز لمنهج في الحياة، فكثيرا ما يتعين علينا اتخاذ قرار فيما يعرض لنا من أمور، عندها أتحسس قلادتي مستلهما الطريقة العلوية التي تفضل القرار الأصعب والأقرب للصواب، فذو الفقار رمز للحياة على طريقة وإن كان عمراً"

لكن .. من هو علي الإمام؟



علي الإمام أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، حاصل على الدكتوراه من قسم الدراسات التاريخية بجامعة شيفلد في المملكة المتحدة، وزميل قسم الدراسات الإسلامية بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة، في الأربعين من عمره، طويل القامة يميل للامتلاء، مصري السمرة واضح القسمات، عريض الجبهة، عاقد الحاجبين، يعطي وجهه انطباعا يفوق عمره، ويزيد من هذا الانطباع انحسار شعره الأسود الحالك عن مقدمة رأسه وذلك الشيب المنتشر في فوديه ولحيته الدوجلاس الصغيرة.

وهو أعزب حتى هذه السن، ليس لإضراب عمدي عن الزواج، لكنه انتظر المادونا الإلهية لتهبط من السماء، وكان يحلو له أن يدعوها باسمها في الميثولوجيا الإغريقية .. الباندورا .. الأنثى الأولى التي تعاون آلهة الأوليمب على إبداعها بهدف غواية بروميثيوس، عقابا له على سرقة سر النار .. فهي المرأة

المقدسة .. عقاب الرجل وثوابه! انتظرها علي فلم تهبط! .. أو ربما كادت تهبط مرة في شخص ماري، لكنها كالورْقَاء طارت سريعا لقمة الأوليمب، ولهذا مات والده الشريف عزمي الإمام وهو راض عنه في غير هذا الموضوع، فكان يقول له معاتباً "إضرابك عن الزواج يقلل أغصان الدوحة النبوية". فيرد علي ممازحا بأن الدوحة أجدبت بالفعل منذ أربعة عشر قرنا في كربلاء وكادت تنقطع لولا لطف الله بعترة نبيه، فبعد هذا لا ينبغي أن يُترَك قتلة الحسين: يزيد وشمر وابن زياد[10]، ويتهم هو بتقليل فروعها، فلا يجوز أن تنسب كل كوارث الدهر لمن لا سلطان له بينما يفر الجبابرة بفعالهم حتى من اللوم؟ يفتر ثغر والده عن بسمة ودود وهو يقول "أنجبت سقراط وعلي أن أحتمل، فالمرء لا يسخط على زرع يديه ولا على ابن صلبه".

كان والده قد منحه لقب سقراط هذا منذ مراهقته حين بدت عليه إمارات النجابة الممثلة في حضور ذهن وفراسة تستغرب ممن كان في عمره، كانت علاقته بأبيه دوما علاقة شديدة التعقيد، أهم ركائزها هي علاقة الحلم الذي كان والده

---

[10] يزيد بن معاوية، الآمر بحصار الحسين وقتله، والشمر بن ذي الجوشن هو من حز رأس الحسين بعد قتله في كربلاء وسافر به إلى الخليفة يزيد في دمشق، و عبيد الله بن زياد والي الكوفة الذي أعد الجيش لقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما ! (٦-١٦-١٧-١٨-١٩)

يراه محققا في شخصه، لهذا كان شديد الارتباط بأبيه حتى توفاه الله في مطلع الألفية الثالثة ولحقت به والدته بعد عام واحد، ليمسي علي وحيدا بهذه الشقة العتيقة المطلة على نيل القاهرة، قبل أن تطلق أخته عزة من زوجها وتنضم إليه في معزلهما الاختياري هذا كما كانا يسميانه.

وعلي منسب من الجهتين، وله شهادة بنسبه لعترة النبي من الفرع الحسيني ممهورة بخاتم نقابة أشراف مصر، ومعلقة مع شهادات نسب أخته ووالدية في صالون شقة الأسرة تلك، بينما تستقر شهاداته العلمية فوق دولاب التذكارات في غرفة مكتبه الخاصة، وحين سُئِل يوما عن فصل شهادة النسب عن غيرها؛ أجاب بأن صحة النسب الشريف أمر لا يعلمه يقينا غير الله، ولا فضل له فيه بفرض صحته، أما الشهادات الأخرى فتعبر عن إنجازات علمية تحققت بالاجتهاد بعد توفيق الله تعالى ، فلا مجال لخلط المحتمل بالمؤكد ولا الهبة القدرية بالإنجاز الفردي.

كان منذ صباه شغوفا بمعرفة كنه ما يعرض له وما يحيط به بوجه عام، ثم تركز شغفه المعرفي يوما بعد يوم حول التاريخ والفلسفة، وحين فارق الصبا فصار شابا يافعا تحددت وجهته في رأسه فكانت دراسة التاريخ والفلسفة الإسلامية، ربما لأن

الكثير من أسئلته فيهما لم تجد جوابا شافيا في المترل أو المدرسة أو المسجد، فاستقر بوجدانه أن يجد الإجابة بنفسه.

يذكر من تلك الأسئلة يوما سأل فيه شيخه الذي يقرأ عليه القرآن عن فهم كتاب الله وحفظه أيهما أولى بالاهتمام، فقد وجد العديد من الآيات تأمر بتلاوة القرآن وتدبره و لم يجد آية تنص على الحفظ، لكن فعل الناس غير ذلك، فلماذا يتعين عليه أن يحفظ قبل أن يفهم؟ فلما أجابه شيخه بأن الحفاظ يحفظهم الله من كل شر، احتج عليه الفتى بأهما لم يمرا بآية تصف القرآن بأنه حرز من الأخطار والشرور، وهنا ضاق به شيخه فلجأ للمرفأ التقليدي في مثل هذه المواقف وهو الادعاء بانتهاج منهج السلف، فقال "السلف حفظوه في الصدور قبل أن يكتب في متون المصاحف"

"وحفظوا معلقات الشعر وخطب النثر والمأثورات والأنساب، لأن الأمية كانت طاغية ولم يكن حفظ المعرفة بالكتابة ثم استظهارها بالقراءة متاحا، وحتى حين انتشرت الكتابة لم تكن هناك طباعة، فكان الكتاب المخطوط رفاهية، لهذا بقي الحفظ في الصدور هو السبيل الأوحد حتى اخترعت المطبعة وصار لكل بيت مصحفا". اجتمعت على الشيخ الدهشة من منطق الصبي والسأم من مجادلته، فرد عليه ناهراً "يا

ولدي أنت من بيت كريم، فمن أين أتاك داء الجدل والعياذ بالله؟ لو أن والدك استجاب لنصحي فألحقك بالتعليم الأزهري بدلا من المدارس العلمانية، لكان لك شأن آخر".

كان هذا هو اتهامه الأول بالعلمانية، لو اتفقنا أن العلمانيـــة في الشرق العربي مازالت تهمة، تماما كما كانت الديمقراطيـــة تهمة فيه في مطالع القرن العشرين. لكنه لم يكن الاتهام الأخـــير بها أبدا

(٣)

الإمام معتزلا

مدينة الروح والريحان .. مهد الرسالة التي غيرت معالم العالم القديم .. إنها المدينة المنورة .. هأنذا أرى أمامي المسجد النبوي بأعمدة من جذوع النخل وجدران من لبن شيدت فوق أساس من حجر، ذات الصورة التي تركه عليها الرسول يوم لقي ربه، أقف أمام الباب الشمالي فأرى المنبر النبوي على الجهة المقابلة ملاصقا للجدار الجنوبي، مقام من خشب بغير نقوش ولا عقود، بسيط كبساطة الإسلام ونقائه على عهد الرسول والراشدين

تهب علي نسمة من نسمات المدينة التي تعطر الصدور وتروح الأرواح فيرشفها صدري رشفا .. وألتفت جهة الشرق فأرى حجرات حجرات أمهات المؤمنين، تلك التي هدمها الوهابيون في مطلع القرن العشرين بعد أن صمدت للدهر ثلاثة عشر قرناً[١١]، وفي واحدة من تلك الحجرات هي حجرة **عائشة** يرقد جسد طيبه الله حيا وميتا، جسد المختار رحمة للعالمين، وتلي الحجرات عريشة من جريد النخل تفصلها عن صحن

---

[١١] (٧٩، ٨٠، ٨١)

المسجد أستار من قماش خشن حال لونه، وفي وسطها يرتفع عمود من جذع نخلة، علقت به سلة مما يحفظ فيه التمر، هي الصفّة إذن؟ تلك المثابة التي أعدها الرسول ليثوب إليها فقراء المهاجرين ممن لا دار لهم ولا أسرة ويثوب معهم المنقطعون للعلم من الأنصار، فكان لساكنيها هؤلاء ممن عرفوا بأهل الصفة ذكرا كثيرا وأموراً جلالاً[١٢]، أستدير للخلف وأجيل بصري في ما حولي، فأرى المدينة نائمة في هذا النزع الأخير من الليل، عدا بيت واحد مازال الضوء ينبعث من كوة في طرفه، بيت بسيط يبعد عن المسجد قرابة المائة متر وتمتد خلفه صحراء البقيع التي توسدها الأزهار اليانعة من الشهداء والصحابة .. بيت يقع ما بين المسجد والبقيع لابد أن يكون بيت علي والزهراء، يا الله! كم رأيت هذا البيت بعين الخيال وأنا أهيم بعيني فوق أسطر التاريخ! والساعة أراه ولا تفصلني عنه إلا خطوات .. أقترب أكثر من البيت، ومن الكوة التي ينبعث منها النور في جداره، فأرى ظهر علي كرم الله وجهه جالسا في صحن داره، أعرفه من هيئته وقد احتمى من برد الصحراء

---

[١٢] قدر أهل الصفة من ستين إلى أربعمائة رجل أشهرهم أبو هريرة وزيد بن الخطاب، وقد تفرغ جماعة من شباب الأنصار لمشاركتهم العبادة وقراءة القرآن فسموا بالقراء، وهم البذرة الأولى للخوارج (١٢-٢٢)

ببردة صوفية خضراء، لعلها بردة النبي التي أهداه إياها ليلة الهجرة التي غيرت وجه التاريخ، يوم رقد الإمام في فراش النبي رابط الجأش رغم تربص قوى الظلام بصاحب مرقده! فلعل أمير المؤمنين يحتمي بالبردة النبوية من برد الليل وبعبق صاحبها من وحشته. أراه متكئا على ركبته وقد بسط فوقها رقاً سميكا، وفي يده قلم من بوص يكتب به ويغمس طرفه في محبرة أمامه كل حين، أقف مراقبا في صمت رغم شعوري بأني رأيت هذا المشهد ألف مرة، أراه ينظر لأعلى مفكرا متأملاً تارة، وينظر في صحائف ورقاق بين يديه تارة، ويكتب في رقةٍ تارة، وهكذا مضت آونة وأنا ثابت خلفة نافذة الإمام، فحقيقة أني أراه أمامي تجمد كياني، أن ترى كل قيمة وكل شيمة تؤمن بها في الحياة مجسدة أمامك في رجل عشقت سيرته بظهر الغيب، لهو شعور يتجمد له وعيك بالزمان والمكان.

يقطع هدأة الليل صوت جميل مجلجل يؤذن للفجر : الله أكبر الله أكبر .. الله أكبر الله أكبر .. أشهد ألا إله إلا الله. ما أندى هذا الصوت الذي يترقرق في أذني من جهة المسجد النبوي! صوت يجتمع في النفس مع أنسام المدينة ومشهد إمام المتقين فتغمرني النشوة، سبحانك ربنا، أردت لنا الجمال في كل شيء، مسموعا كان أو منظورا أوملموسا ومحسوسا، جميل

أنت يا الله تحب كل جميل، حتى اهتم خاتم الأنبياء باختيار أجمل الأصوات من بين أصحابه ليدعو الناس للوقوف بين يديك، نداء رباني لأرواح بشرية فطرها مبدعها على الخير والجمال.

أرى علياً يضع رقه وقلمه جانباً ويقوم وهو يحكم لف بردته حول جسده اتقاء لبرد الليل فأحسبه سيخرج للصلاة في المسجد، فإذا به يقتبل القبلة ويتمتم كأنه يردد الأذان قبل إقامة الصلاة. يصلي في بيته ومسجد النبي على بعد خطوات؟ لماذا يصلي الفجر في بيته؟ لابد أنها فترة اعتزاله بعد موت المصطفى والتي لم يخرج خلالها إلا لصلاة الجمعة، الفترة التي أراد أن يضطلع خلالها بمهمة لا نعرف كنهها على وجه اليقين حتى اليوم، فهل لما يخطه علاقة بتلك المهمة؟

مازلت أراه يتهيأ للصلاة، لكن الصورة أمامي تبدو ضبابية بعض الشيء وقد وصل المؤذن لعبارة: حي على الفلاح.

يفتح عينيه ليجد الفجر يؤذن بالفعل متمما أذان المسجد النبوي في حلمه! نعم .. كالعادة! هكذا فكر وهو يقوم من فراشه ثقيل الجفن شارد الذهن، نضح جسده بعرق غزير في حلمه فقام والظمأ يشق حلقه كالسكين، يفتح باب الغرفة المؤدي للطرقة الطويلة، ويرى نور الحمام مضاءً فيفهم أن عزة

سبقته تتوضأ للصلاة، يتجه للمطبخ في نهاية الطرقة ماراً بالحمام، فيأتيه صوتها من الحمام وقد شعرت بحركته "صباح الخير" فيرد قائلا "صباح الخير يا عزيزة قومك". هكذا تعود أن يناديها مدللاً كما كان والدهما يناديها، فهي بالنسبة له أكثر من أخت، هي أمه الصغيرة وصديقته الأثيرة وصفيته من بين البشر، وصل للمطبخ ففتح الثلاجة وتناول زجاجة مثلجة رفعها إلى فمه يعب الماء عب من أضناه الظمأ، لماذا يقترن هذا الحلم تحديداً بنوبة العرق الغزير تلك؟ وما خطبه يتكرر هكذا حتى بدأ إلحاحه يقلقه ويدفعه للبحث عن معنى؟ أحيانا يتغير الحلم كحلمه أمس بسهل النهروان، لكن هذا الحلم تجديدا هو رؤياه المكررة في أغلب الليالي، وكل ما يشعر به من نشوة في منامه يتحول لإرهاق عصبي غير مبرر حين يفتح عينيه، فضلا عن شعور بالإرهاق والعطش الشديد، كل ليلة يرى علي بن أبي طالب يخط في رق قبيل صلاة الفجر ثم ينطلق الأذان، وكل ليلة يفتح عينيه ليجد أذان المسجد القريب من بيته يتمم أذان المسجد النبوي في حلمه، لماذا؟ ما هو المعنى؟ هكذا كان يفكر حين دخلت "عزة" المطبخ قائلة "هل أعد لك الشاي معي؟"

"شكرا، سأصلي وأعود للنوم". سألته لو كان يفضل شيئا محددا للغداء، سؤال لا تمل النساء من إلقائه ولا يمل الرجال من

الرد عليه بلا شيء، وقد أحالها بلا شيء فعلا ولكن بطريقته الرقيقة المدللة قائلا "كل طعام من يديك شهي مريء يا عباسة". علقت وهي تملأ الغلاية بالماء قائلةً "العباسة مرة واحدة؟"

"هاشمية مثلها، وأثيرة أبوكِ وأخوكِ مثلها، فماذا ينقصك؟" هكذا قال "علي" بودٍ، فردت "وإذا تكون أنت الرشيد؟"

"نعم، وآمر مسرورا ليأت برأس زياد في صحن كما أتى للرشيد برأس جعفر زوج أخته[١٣]". قطبت حاجبيها الرقيقين وهي تضع ملعقة من الشاي في كوب زجاجي وتضيف إليه السكر انتظارا لغليان الماء، **زياد** هو طليقها الذي لم تشف السنون جرحها منه، لهذا هز "علي" رأسه وقال بصوت هادئ ينهي به حوار الفجر القصير: آسف .. تصبحين على خير. قالها ثم استدار ليتجه نحو الحمام متثائبا، وأمام الحوض مزج الماء ليصبح دافئا على خلاف عادته في الاغتسال بالماء البارد معظم العام، فالليلة كانت باردة بعض الشيء.

---

[١٣] لقبت علية بنت المهدي بالعباسة لعزها في قومها، كانت أخت هارون الرشيد وأثيرته وكان جعفر بن يحيى وزيره أثيراً لديه كذلك، عقد لهما الرشيد نكاحا حتى يجالسهما معا في سمره، ومنع وزيره من الدخول بأخته، لكنه دخل بها فحملت وسافرت للمدينة وولدت هناك توأماً، عرف هارون بهذا فقتل جعفر والعباسة وابنيهما (١٧-٢٤)

حين شرع في الوضوء وثبت لعقله صورة طليق أخته، **زياد عبد الله** أستاذ مساعد جراحة القلب بتلك الجامعة القاهرية العريقة، والمثقف اليساري عندما كان طالب طب في السبعينات، قبل أن ينقلب مائة وثمانين درجة ليصبح عضو هيئة تدريس محسوب على جماعات الإسلام السياسي في الثمانينات والتسعينات، فسبحان من يغير ولا يتغير! لم يحبه منذ اليوم الأول، لم يمنعه ذلك من ملاحظة تدنيه وتدهوره في دركات الازدواج والانتهازية دركا دركاً، وكان الدرك الأخير حين نفذ من خلال جماعته واسعة الانتشار لعضوية البرلمان، طرد صورته من ذهنه وهو يتمم وضوءه قبل أن تستفزه الذكريات فتفقد عيناه خيط الكرى، فلطالما استفزته ذكرى زوج أخته الذي أضناها وأطفأ شعلة شباها، جفف ذراعيه ووجهه ثم توجه لغرفته، وهناك وقع بصره على هاتفه المحمول فوق الخوان فخطرت له فكرة، أطرق لحظة لم تطل ثم التقط المحمول وفتح قائمته ليكتب رسالة، في خانة الاسم اختار اسمها من قائمة هاتفه؛ **ماري ماكسيميليان**، ثم كتب رسالته بالإنجليزية "ماري الجميلة للأبد، هاتفيني عندما تقرأي رسالتي في أي وقت، أفكر بزيارة نهاية أسبوع قصيرة في الإسكندرية لألقاك، فهل يسمح جدولك؟". وضع الهاتف مكانه ثانية واتجه لموضع السجادة في غرفته واقتبل القبلة فقفزت لذهنه صورة الإمام علي وهو

في بيته قائم يصلي، فدعا له برضوان الله وأخذ يستعد وجدانيا للصلاة، فصلاتي الفجر والعشاء هما أكثر صلواته خشوعاً، يتهيأ لهما ويصليهما على مهل في هدأة الكون فيشعر بنور الله يسري بقلبه، كبر للصلاة وصلى مغمض العينين، فقد تعود أن يغمض عينيه ولم يقتنع بكلام من نبهوه أكثر من مرة لكراهة ذلك، فكان يجيب بأنه لا يستطيع التركيز إلا مغمض العينين، وكراهة السهو عن الصلاة أكثر من كراهة إسدال الجفون، لأن المضمون أهم من المظهر، ولو أدركنا هذا في كل أمر من أمور دنيانا لكان حالنا غير الحال.

عندما وصل في التشهد لعبارة "وعلى آل محمد" قفزت لذهنه صورة الإمام علي ثانية وطرق ذاكرته حديث رسول الله حين أحاط علياً وفاطمة والحسنين ببردته مشهداً الله أنهم آل بيته وداعيا لهم بالطيب والطهر، سلم منهياً صلاته ثم قام فتمدد على فراشه شارد الذهن، وترددت في رأسه الآية الكريمة: "**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ**"[١٤] فابتسم في ألم، كيف كانت مودتنا في قربى النبي هي سفك دماء قرباه؟ فبالأمس عاش بيننا من صلوا وسلموا وباركوا آل النبي في كل

---

[١٤] الشورى:٢٣

يوم تسع مرات، ثم أعملوا السيف في آل البيت يوم كربلاء من أجل دنيا يصيبوها! واليوم يعيش بيننا من يصلي ويبارك عليهم كذلك ثم يدّعي أن قاتليهم كانوا على شيء من حق أو شيء من نبل المقاصد! ويدعي أن حال هؤلاء السفاحين كحال من اجتهد فأخطأ، فهم على جريمتهم مأجورون! ألا ما أحرى مأساة اجتثاث العترة النبوية غدرا في كربلاء بالتفكر والاعتبار؟ لكنا قليلا ما نفكر أو نعتبر، وإنما يحيي بعض الشيعة ذكراها بأداء تراجيدي وطقوس قاسية لجلد الذات، وليس أهل السنة أحسن منهم حالا، فمنهم من يجهل كربلاء ولا يعرف بمصيبة قتل نسل النبي في ساعة من نهار! ومنهم من يعرف ولكنه لا يدرك ولا يعتبر من كرب وبلاء كربلاء.

حاول طرد أفكاره تلك لينام، أغمض عينيه وترك أوتار جسده ترتخي طلبا للنعاس، لكن هيهات، فالنوم كالمرأة الجميلة، تقتحمك لو أعرضت عنها وتنأى عنك لو طلبتها، فبقي مسهدا لفترة وبقيت عدة كلمات تتردد في عقله فتتقافز مشاهدها في ظلام جفنيه المسدلين: كربلاء التي مات فيها معظم الذكور من آل محمد .. **المختار الثقفي** ووقائع ثورته للثأر من قتلة **الحسين** .. **زياد بن أبيه** الذي حل معاوية مشكلته الأبدية بنسبه لأبي سفيان مقابل انحيازه لمعاوية في حربه ضد آل

البيت، ليشارك **ابن مرجانة** صاحبة الراية الحمراء بعد ذلك في إراقة أطهر الدماء الهاشمية، أليست مفارقة محزنة أن يراق دم أبناء الأشراف على يد أبناء العواهر؟ .. الطفل الرضيع **علي بن الحسين** الذي رشقوه بالنبل وهو على ذراع أبيه حين رفعه يسألهم عن ذنبه في الظمأ الذي فرضوه على السبط المحاصر وآله.. وتتوالى المشاهد هكذا حتى أخذه النوم.

أصفى النوم وأطيبه ما كان بين الفجر والشروق، ولكن .. هل يهنأ أحد بنوم بعد هذه الخواطر؟

(٤)

حصاد الوهم

رفعت عزة الطالبة في السنة الخامسة بكلية الطب سماعة الهاتف فأتاها صوت خطيبها زياد المدرس المساعد في قسم الجراحة بنفس الكلية يطلب منها مراجعة الرسم التوضيحي لأعصاب القدم جيدا، لأن أغلب اختبار الغد مرتبط به، اقتحمتها حيرة وانتابها توجس فردت "كيف عرفت؟". "راجعيها وحسب" هكذا أجاب ولكنها أمام عنادها صرح لها بأن زميله الدكتور بكري أخ فاضل، يعرف أن خطيبته في السنة الخامسة، وقد لاقاه خارج مسجد الكلية بعد صلاة العشاء فأسر له بهذا همسا، هكذا أجاب ثم بين لها أنه لم يطلب منه ذلك .. بل زميله هو من "تطوع خيراً" وفق تعبيره!

ردت بعفوية مبدية عجبها ممن يخرج من المسجد ليسرب الامتحان! ومن خطيبها الذي يسمي هذا بالتطوع والخير! فأجابها بحدة ظاهرة كأنه ينهرها مدعيا أن الامتحان يسرب بالفعل كل عام، إذ تسربه رئيسة القسم المسيحية المتعصبة لصالح الطلبة الأقباط في الدفعة، وأضاف سائلا بحدة "أنتركهم يحتكرون وظائف هيئة التدريس ونضيع نحن؟". "نحن وهم؟ هل أصبحنا فريقين؟". قالتها بحدة لتوترها، فقد توترت بسبب

دلالة الموقف على منطق خطيبها وليس بسبب الموقف فقط.

حاول هو أن يتحكم في حدته فاصطنع صوتا هادئا اجتهد ليجعله مقنعا، وقال "الرجل يساعد العناصر الملتزمة حتى تقوى الجامعة بهم كأعضاء في هيئة التدريس، فهل ترين هذا خيرا أم شرا؟". أجابته بأنها تراه منطق حق يراد به باطل، وترى هذا المنطق يزيد في تفكيره وحديثه يوما بعد يوم ويقلقها أكثر يوما بعد يوم، وتساءلت عن قصائدة التي كانت تسمعها منه وهو طالب في السنة النهائية عندما كانت هي في السنة الأولى، وعن حديثه دائما حينئذ عن الدولة المدنية والهوية القومية، وتساءلت أين ذهب كل هذا؟ فأجابها بلهجة لم تخل من تحد مستتر "ذهب مع زمنه، وحل محله الأفضل، حل محله المنطق الإلهي يا سليلة الأشراف". أجابته بلهجة أكثر تحديا بأنها ستنام من فورها ولن تراجع حرفا غير ما راجعت بالفعل، وهكذا فعلت، لكن القلق أكل قلبها في الفراش، تكاد لا تتذكر من تشريح أعصاب القدم شيئا، واختبار الفترة يمثل عشرين بالمائة من درجات المادة، قامت من فراشها وراجعت أعصاب القدم وما يرتبط بها من اختبارات تشخيصية قبل أن تعود لنومها وضميرها يخزها وخزاً أليماً، فهكذا هزمها الخوف فقامت تستفيد من المعلومة المختلسة، فهي إنسانة بها ما بالبشر من

ضعف وقد أغرها المعلومة المتاحة فانزلقت، وكانت هذه القدم بداية طريق من التنازلات انزلقت فيه قدمها، تنازلات كثيرة قدمتها في حياتها معه ولم تتوقف إلا عندما أمسكت في يدها وثيقة طلاقها منه

من بين كل ذكرياتها المريرة مع طليقها تذكرت عزة تلك الوقائع بعد تعليق أخيها في المطبخ منذ دقائق، ربما لأنها ترتبط ببداية قبولها لطريق التنازلات، البداية وحسب، فقد اجترأت على التنازل زمنا بعد أن تنازلت حين استغلت المعلومة المختلسة وسعدت حين حصلت على عشرين درجة كاملة نتيجة لها، فقد ذاقت طعم النفوذ وما يتيحه من انتصارات سهلة، وهو مذاق لا يسهل نسيانه، وهكذا تنازلت يوم عرفت بأمر الدروس الخصوصية التي يعطيها زوجها سرا لطلبته، وعرفت ما اقترن بهذه الدروس من تسخير موارد المستشفى الجامعي وأجهزته لتلك المجموعة المميزة من الطلبة ميسوري الحال، اقتنعت بكلامه حول الفارق بين الغير قانوني والحرام، وتنازلت، يوم طلب منها أن تتقرب لزوجة المشرف على بحثه للترقية لدرجة أستاذ مساعد، وأن تهديها هدية ثمينة، أقنعها أنه يرشي حتى يتجنب الظلم وليس طلبا لمنفعة، فلا حرمة في ذلك، ولكن .. هل اقتنعت حقا أم أرادت أن تقتنع لتستمر

الحياة؟ كم كان ماهرا في تبرير كل ما يحتاجه ليصل لهدفه! أو حتى لمتعه الرخيصة! مهارة تصل لدرجة الاحتراف، فقد كان يبرر لنفسه أولا فيقنعها تماما، ولهذا يفيض وجهه بالصدق حين ينتقل لمرحلة التبرير للآخرين وإقناعهم، وربما كانت هذه الموهبة التمثيلية الفذة هي ما أهله لما هو فيه اليوم من نفوذ بعضوية البرلمان عن جماعة البر والتقوى تلك التي ينتمي إليها.

رشفت رشفة من كوب الشاي وهي ترخي جفنيها المثقلين بينما تنهيدة حارة تخرج من صدرها، في الثامنة والثلاثين، معتدلة القوام، شرقية الجمال، شعرها أسود طويل رفعته خلف رأسها في .شنيون بسيط، سمرتها رائقة راقية، أما عيناها. النجلاوان فهما أجمل ما في وجهها السمح. شعرت هبة من نسيم الفجر البارد تأتي من الشرفة المفتوحة فضمت أطراف الروب المنزلي البسيط على صدرها وهي تزدرد الشاي بصعوبة، فقد تقلص حلقها قليلا بسبب عبرة تكتمها في أحداقها، تركت العبرة تفلت من جفنيها وهي تفكر لائمة نفسها، فلو أنها فقط أدركت حقيقته في الوقت المناسب لما ضاع من العمر ما ضاع، تسع سنين كاملة أهدرتها معه، ثم أهدرت بعد طلاقها سنينا طوالا في حزنها، وتمر الأيام، وكل يوم يمر يحيل حلم أمومتها إلى وهم بعيد المنال، وهكذا يضيع العمر من أجل

وهم تصورت ذات يوم أنه رجل، أمن العدل أن يحكم اختيار اللحظة على مصيرنا للأبد؟ أمن الحق أن نخسر كل شيء في لعبة واحدة غبية؟

لقد خسرت أمومتها ومستقبلها كطبيبة، خسرت إيمانها بذاتها، بل كادت تخسر إيمانها بكل شيء لولا هذا البيت الذي نشأت فيه على إيمان هادئ راسخ متين الأركان بغير تشنج ولا تصنع، إيمان يحب الحياة ولا يعاديها أو يجافيها، تعلمته من صلاة أبيها بجوف الليل وترتيله القرآن في غرفته، ومن ابتسامة أمها الطيبة في وجه المساكين، ومن نبرة الحب والإعزاز في صوت أخيها، ونشأت محبة للحياة كأبويها، فلم تعرف الكراهية في حياتها قبل أن تعرف حقيقة راسبوتين هذا الذي كانت زوجة له! فيوم عرفت حقيقته اقتحم الكره صدرها كحمم بركان غضوب.

"**مشيناها خطا كتبت علينا .. ومن كتبت عليه خطا مشاها**". هكذا رددت في نفسها وهي تقوم للمطبخ لتبدأ يومها بإعداد الغداء كحالها في كل يوم، فهي طائر مبكر يعشق ساعات ما قبل الظهر، عكس شقيقها العزيز، فهو يحتاج الهدوء في عمله ولا يجده إلا في قلب الليل، فلا ينام قبل الثانية صباحا ولا يصحو قبل العاشرة، يقول أنه كان في بريطانيا ينام مبكرا

ويصحو مع الشمس لأن الهدوء كان متوفرا ليل نهار.

عندما مرت بالصالة الرحبة وقعت عيناها على صورة والدها وقد جلس علي على ركبته طفلا في الخامسة، يشبه أباه شبها يجعلها تخلط أحيانا بين الأب والأخ في عقلها، ولم يكن الشبه قاصرا على الوجه، ولكن في الروح كذلك، وفي نظرة عين تفيض إصرارا وابتسامة توجز حكمة القرون بلا كلمات.

"وتذكرتك يا عالية، وتذكرت عيونك، يخرب بيت عيونك يا عالية شو حلوين"

يستيقظ على صوت فيروز ينبعث من المحمول، فترتسم على شفتيه ابتسامة وهو يتمطى فاردا ذراعيه، إنها نغمة ماري الخاصة، يمد يده مبتسما ويلتقط المحمول فيحرر طرفه من سلك الشاحن ويرد ليسمع صوتها قائلة "صباح الخير يا كسول".

"تمنيت قبل النوم أن أصحو على صوت فيروز من نغمتك الخاصة وبعده صوتك، فكذا أنشودتان متتاليتان كغناء الحسون يضمنان لي يوما سيمفوني الأحداث"

"آه من الأكاديمي الشاعر، مزاج الشاعر اليوم مهيأ للغزل"

"ربما لأنه اشتاقك جدا ويحتاجك إلى مالا-نهاية"

"ما الأمر؟ أهي الأحلام ثانية؟"

"نعم، تعبت والأمر يزداد يوما بعد يوم". هكذا أجاب فسألته من فورها "وماذا تقترح؟". أجابها "ليس بجدولي محاضرات الأحد القادم، يمكنني القدوم للإسكندرية اليوم وأعود مساء الأحد، بودي لو قضيت أطول وقت معك، فهل وقتك يسمح؟".

تجيب بنبرة حيرى بين المرح والدلال "سأجعله يسمح".

ماري، المرأة الوحيدة التي فكر بالزواج منها، ولكن أفكاره لم تتحول أبداً لبيت وأطفال وحياة، فهي الباندورا التي هبطت لحظة ثم طارت، فليس كل ما يفكر فيه المرء يستطيعه وإلا لتغير وجه التاريخ، مستشرقة إنجليزية تعرف عليها في شيفلد أثناء بعثة الدكتوراه، كانت حينها محاضراً للغات الآرامية والنبطية والعربية القديمة في قسم اللغات الشرقية، رآها في المكتبة للمرة الأولى ثم تكررت جلستهما متقاربين عن غير عمد، فرفوف المكتبة التي ضمت المراجع العربية التي يحتاجها هو والمراجع الآرامية التي تحتاجها هي كانت متقاربة بطبيعة الحال، فقارب هذا بينهما كأنه ذراع القدر، شدت هي انتباهه بجمالها وبساطتها ودأبها على المطالعة لساعات، فضلا عن وضوح انفعالاتها على وجهها وهي تقرأ على نقيض أغلب بنات جلدتها، ولفت هو انتباهها بترفع في نظرته للفتيات مقارنة بمن

قابلت من الطلاب العرب، وبمطالعته الطويلة، وبعادته حين يفكر فيغمض عينيه ويسند جبهته بيمناه بينما سبابة يده اليسرى تنقر فوق الكتاب بلطف. مع تآلف الوجوه تعودا على تبادل تحيتي الصباح والمساء، وذات يوم كانت تجلس أمامه تماماً، وعندما قام ليلتمس كتابا ثم عاد ليجلس لمح في يدها كتابا مطبوعا بما بدت له إحدى اللغات السامية، لكنها ليست عربية ولا نبطية، فابتسم وهو يحييها تحية الصباح ثم أشار للكتاب سائلاً "أي لغة؟ الآرامية؟"

"السريانية تحديداً، لو أن يسوع سار على أرض جيروساليم في القرن الأول للميلاد فقد تكلم هذه اللغة بلهجة أهل الجليل وقتها[١٥]"

"مم .. قولك لو يعكس شكا لديك في الأمر برمته؟". قالها باسماً بود فشجعها على المضي في حديثها بغير تحفظ، أجابته بقولها "أنا لا أدرية[١٦]، قرأت كثيرا في الأديان الإبراهيمية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام فضلا عن الديانات

---

[١٥] يرجح أن يسوع وتلاميذه تكلموا الآرامية بلهجة الجليل (٢٥)

[١٦] اللاأدرية مذهب ظهر في أوروبا القرن التاسع عشر على يد توماس هكسلي، ثم صدر فكره المؤسس في كتاب برتراند راسل الأشهر: لماذا لست مسيحيا، وجوهره أن التأكد من الدفوع الغيبية التي تقدمها الأديان هدف يصعب تحقيقه بنفي أو إثبات (٢٦)

الشرقية الأقدم ولكنني لم أجد برا أرسو عليه". كان أول انطباعاته عنها أنها شخصية صريحة ومباشرة للحد الأقصى، فالأوروبي لا يحدث الآخرين عن معتقداته الدينية بعد ثانيتين من التعارف أبدا.

أخذت الأفكار تتداعى في رأسه عن المذهب اللا أدري وهو يسمعها ويتهيأ للرد عليها قائلاً "لا أدرية لأنك لم تتوصلي بعد للإجابة؟ أم لأنك ترين الوصول للإجابة مستحيلاً؟"

"أي حقيقة في الوجود من الممكن إثباتها، الحقائق بطبيعتها تتوق للإثبات". أجابها بقوله "فأنت لا أدرية من نوعي المفضل إذا، باحثة عن الحقيقة"

"بشكل ما نعم، وحتى اليوم لم أجد ما يقنعني بأي من الأديان تماما، فالأساطير تطغى على الحقائق، أو ما يمكن أن يكون حقائقا"

"ولكن قد تكون في مركز العقيدة نواة أصلية تتراكم فوقها طبقات التفاعل البشري ككرة الجليد؟ فيصبح واجب العلم هنا هو كشف النواة الإلهية وإزالة ركام العصور عنها؟"

"الركام في كثير من الأحيان أهم لأتباع الدين من النواة ذاتها. واضح أنك مهتم بالأديان أنت الآخر؟"

"علي الإمام، طالب دراسات عليا، أعد لنيل درجة

الدكتوراه في التاريخ الإسلامي هنا". هكذا عرف نفسه وهو يمد يده مصافحا، فمدت يدها لتحتوي يده الممدودة في لطف وثقة، لطالما أحب الثقة والكبرياء في مصافحة المرأة الأوروبية على خلاف أغلب النساء العربيات، ربما عدا المغربيات، فالمرأة العربية عادة تمد يدها لمصافحة الرجل في تردد وخفر متكلفين كأنها ستمسك عقرباً ساما. ابتسمت وهي تقدم نفسها بدورها قائلة "ماري ماكسميليان، محاضر اللغة العربية بقسم اللغات الشرقية، وباحثة في اللغات السامية والأديان الإبراهيمية. ما هو موضوع بحثك للدكتوراه؟".

"الحراك الاجتماعي والاقتصادي في التاريخ الإسلامي ما بين الراشدين والأمويين مروراً بمرحلة الفتنة الكبرى، موضوع معقد رفض في جامعة القاهرة وقبل هنا في شيفلد". علقت مبدية اهتمامها "أثرت فضولي بمجرد العنوان، كأنك تقول لي أننا يجب أن نصبح أصدقاء. جامعة القاهرة معناها أنك مصري؟". اتسعت ابتسامتها حين أجابها بالايجاب، فخمن أن الدوجلاس الصغيرة أوحت لها بهوية خليجية لأول وهلة، فقد تعود هذا الخلط، ويبدو أنها كانت أحسن ظنا بمصر منها بغيرها لهذا اتسعت بسمتها ثم فاجأته ناطقة بعربية سليمة "إذن يمكنني دعوتك على فنجان قهوة لأننا على أرض إنجليزية". أجابها

بعربية واضحة المخارج راقت لأذنها "رفض دعوة مثقفة جميلة يعد دليلا على فساد الذوق، وأنا حريص ألا أتهم في ذوقي". ضحكت ضحكة قصيرة وهي تقول "لدينا شاعر عربي جديد هنا، يخيل إلي أن واحدا من كل خمسة مواليد في الشرق يولد شاعراً، بعد كل هذه السنين من الدراسة لم أحصر شعراء العربية من الطبقة الأولى".

"الشعراء لا يولدون، بل يصنعهم الحوار مع الجميلات مع فنجان من القهوة". هكذا علق يومها مبتسما، لتصبح تلك اللحظات بداية أعظم علاقة صداقة يراودها الحب المستحيل في حياته، كان يصفها بقوله :"هناك درجة من صداقة الرجل والمرأة هي في أحد جوانبها حب مستحيل، لأنه حب صادق فهو لا يموت، ولأنه مستحيل فهو يتروي كعضو ضامر، ويتخذ شكل صداقة لا نستطيع العيش بدونها، هذه الدرجة عندي تحتلها صديقة واحدة لا غير، فتلك هي ماري ماكسميليان، قول الحق الذي فيه يمترون".

(٥)

في انتظار القادم

قاعة المحاضرات الرئيسية في المؤتمر الثامن للتاريخ الإسلامي في الرباط، قاعة ذات جدران بيضاء تزينها منمنمات نحاسية، وتتسلل حزم النور من نوافذها الخشبية الصغيرة أعلى الجدران لتتخذ ألوان الزجاج الذي زينت به فتضفي جوا بهيجا على المحفل العلمي، أعرض اليوم ورقة علمية أعددتها أثناء زيارتي البحثية للعراق بعنوان: **الإمام محمد المهدي تاريخيا**، والحضور في القاعة كثيف، ربما جذبهم النجاح الذي حققه بحث العام الماضي، والمنشور بعنوان الجذور المصرية للعقيدة الدرزية، فقد سلطت فيه الضوء على المصادر المصرية القديمة فضلا عن الفلسفة اليونانية والميثولوجيا الهندية والتي خالطت الفكر الإسماعيلي لتكون النسيج العقائدي لأهل الجبل الموحدين، وقد تزامن عرض البحث العام الماضي مع انعقاد المؤتمر في بيروت، وبحضور العديد من الباحثين من الدروز، فأعجب به بعضهم وكان للبقية رأي آخر تراوح بين الانزعاج العاقل والعداء السافر، وبفضل مقالات وتعليقات الفريقين من المعجبين والساخطين، تجاوز البحث حدود المحفل الأكاديمي حينها ووصل للصحف ورجل الشارع في بيروت.

أقف خلف البوديوم، وبحكم العادة وليس الظمأ أمد يدي لكأس أمامي أرتشف منه جرعة ماء، ثم استأنف عرضي للبحث حول الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة الإثنى عشرية بعد المقدمة التقليدية، فلدينا فكرة عالمية متواترة مثلت حجر الزاوية في المعتقدات الإيسكاتولوجية[١٧] لمختلف الشعوب وفي مختلف الحضارات، وتدور حول المصلح القادم في آخر الزمان لإنقاذ الكون، فكرة ذكية تعتمد على حلم جميل راسخ في وعي الشعوب قوامه تصحيح مسار البشر بطريقة إعجازية قبل أن يسدل ستار النهاية،حلم عميق المعنى يواسي إحباطات البسطاء ويلهمهم الصبر والسلوان، في الإسلام يعتقد السنة هبوط المسيح بين يدي القيامة ليقود جيشا من المسلمين ويحكم الأرض بالعدل بعد أن يقتل المسيخ الدجال، كذلك يؤمن بعض أهل السنة بمهدي آخر الزمان، لكنه عندهم زعيم روحي يولد في المستقبل من نسل الرسول ويكون اسمه **محمد بن عبد الله**، وهم بهذا يختلفون عن المذهب الشيعي الإثنى عشري الذي أتناوله اليوم والذي ينتظر انتهاء الغيبة وعودة الإمام الثاني عشر **محمد المهدي** الملقب **بصاحب الزمان** ليقود جيش الحق. في المسيحية هناك عودة المسيح وإقامة الملك الألفي، ليدوم ألف

---

[١٧] علم يدرس نظريات نهاية التاريخ في الأديان

سنة يحكم فيها **يسوع** الأرض التي تصل لقمة الرخاء والسلام وتزول منها كل الشرور والآثام. وبينما ينتظر المسيحي إقبال المسيح في بعثته الثانية، مازال اليهودي ينتظره في بعثته الأولى، ينتظر الميسايا ملك اليهود ويعتقد أنه لم يبعث بعد لأنه ينكر نبوة يسوع الناصري.

وليس الأمر قاصرا على الأديان الإبراهيمية، بل سبقتها بعض العقائد في هذا المضمار، فللزرداشتية ينتمي أقدم نص على الإطلاق حول أحداث القيامة وأهوالها، ويرجع لعشر قرون قبل ميلاد المسيح في **زاندي هيومن ياشت**[١٨] ويأتي فيه ذكر ثبات الشمس قريبا من الأرض ونزع البركة من الأيام والشهور والسنين حتى تأتي مملكة العدل والحق، فيبعث **أوشيدار**[١٩] و**أوشيدارماه** و**سوشياند** كثلاثة مخلصين يفصل بين كل منهم ومن يليه ألف عام، أما في البوذية فهناك نصوص عن انتشار الشرور والآثام في نهاية الزمان حتى يظهر **ميتريا** أو **بوذا** المستقبل، فيجدد تعاليم بوذا في السلوكيات العشر المحمودة والسلوكيات العشر المذمومة، ثم لدينا الهندوسية التي تنتظر عودة **فيشنو** في آخر الزمان متجسدا في أقنومه العاشر **كالكي**

---

[١٨] أحد أسفار الحكمة الزرادشتية، أرجعه العلماء للقرن العاشر قبل الميلاد خلافا للظن الذي ساد قديما بأن زرادشت عاش حوالي عام ٦٠٠ قبل الميلاد (٣٢)

[١٩] معناها صانع الخير والصواب، ويعتقدون بولادته من عذراء تستحم في بحيرة مقدسة، فتخصبها بذرة زرادشت المستقرة فيها (٣١-٣٢)

ليقيم مجتمع العدل البشري، وأخيرا الميثرية التي تنتظر عودة **ميثرا**[٢٠] ليقود جيش النور ويحكم الأرض ألف سنة بالتمام هو الآخر، فالجميع إذن **في انتظار جودو**[٢١].

تمهلت قليلا لأراقب رد الفعل على مقدمتي تلك، لاحظت همهمات كثيرة، فحرصت على نفي الطائفية عن بحثي حتى لا يفهم منه هجوم على الشيعة الإمامية، ولهذا استأنفت قائلاً "الرؤية العقائدية لحياة الإمام المهدي لا تقتصر على المصادر الشيعية كما يظن البعض، فالعديد من المصادر السنية قالت بها، ومنها وفيات الأعيان والعرف الوردي للسيوطي ومروج الذهب للمسعودي والإتحاف للشبراوي، وحياة الإمام الغائب، مع وافر الاحترام للشق العقائدي والرمزي فيها، تفيض بالغموض والريب التاريخية، فكما هو موضح أمامكم بشاشة العرض، لدينا بعض الملاحظات على الرواية التراثية".

وهكذا أخذت في عرض طرحي التاريخي بداية من التساؤل عن حقيقة وجود محمد المهدي من الأساس، فالشك في وجوده تاريخيا ليس جديدا، فقد أنكره العديد من الباحثين مثل **هنري كوبان**، ومن المنكرين باحث شيعي إمامي هو الأستاذ **أحمد**

---

[٢٠] إله فارسي قديم انتقلت عبادته من فارس لوسط وجنوب أوروبا قبل المسيحية بقرنين، ويشترك مع المسيح كما تصوره العقيدة الكاثوليكية في العديد من صفاته، أهمها أنه ولد من عذراء وكان له اثنى عشر حواريا، وتاريخ مولده في ٢٥ ديسمبر، وكذلك مات قتلا بجوار لص.

[٢١] في انتظار جودو اسم مسرحية عبثية لصامويل بيكيت

الكاتب[22]، فأنا لم آت في طرحي بأمر مبتدع، لكنني أطرح مزيدا من الأدلة المفندة للروايات التراثية، وطرح هذه الأدلة لا يعني بالضرورة نفي وجود الإمام تاريخيا، لكنه يلقي ظلالا حول قصته كما وصلت إلينا.

تولى الإمام **الحسن العسكري** الإمامة بعد والده الإمام **علي الهادي** لمدة ست سنوات، ثم مات فجأة عام ٨٧٤م وهو في ريعان الشباب عن عمر ناهز ٢٨ عاما، وتقر مراجع الإثنى عشرية[23] بأن الحسن لم يعرف عنه طوال حياته أنه تزوج جارية أو تسرى بها، ولا أنه أنجب منها أو من غيرها ولداً، لكنها تعود فتبرر حجب الزوجة والابن طوال حياته بحرصه على حياة طفله، وهذا قول تنتابه الريب، فمن ناحية كانت خلافة **المتوكل** التي عاصرها أفضل حالا في تعاملها مع أئمة آل البيت من خلافات سابقة ولاحقة، فنجد الانتفاضات الشيعية التي أخمدت بحمامات الدم في عهد الخلفاء السابقين من عباسيين وأمويين تمت السيطرة عليها دون دماء في عهد المتوكل، والذي كان هيابا لسفك الدم المنتسب لعترة الرسول من العلويين ومن شايعهم، ولهذا انتهت ثورة محمد بن صالح

---

[22] حقيقة

[23] (٣٨-٤٠)

بسجنه ثم الإفراج عنه، ومثلها ثورة يحيى بن عمر[٢٤]، فلماذا لم يُخفِ أئمة سابقون أبناءهم رغم الاضطهاد بينما قرر الحسن إخفاء ولده رغم تحسن العلاقة بالسلطة؟ ولنا كذلك أن نسأل، متى اتقى أئمة آل البيت الأخطار بإخفاء أنفسهم وأبنائهم؟

ومن ناحية ثانية تقول المصادر التي تؤرخ للغيبة الصغرى[٢٥] أن أم المهدي كانت جارية رومية، أرسل علي الهادي من يشتريها من سوق الجواري ليتزوجها ابنه الحسن، وعين صفتها أن اسمها **نرجس**، وأنها ابنة **يوشع قيصر** الروم. وبغض النظر عن صعوبة تصور رجل يبحث عن ابنة قيصر بسوق الجواري، تكمن المفاجأة في عدم وجود قيصر بهذا الاسم في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية التي سماها العرب دولة الروم، ثم تدعي الرواية التراثية أن يوشع هذا يتصل نسبه بأحد حواريي المسيح، فهل وجد فوق الأرض قيصر بيزنطي ينحدر من أصل عبراني حتى يكون جده من الحواريين؟ الإجابة قطعا بلا، فقبل ولادة المهدي بجيلين وحتى عشرات الأجيال بعده كانت الأسرة الماسيدونية تعتلي عرش الإمبراطورية البيزنطية.

---

[٢٤] (٣٧)

[٢٥] تعبير اصطلاحي عن فترة احتجاب المهدي عن الناس في حياة نقباله، حتى مات آخرهم فبدأت الغيبة الكبرى وانقطعت الوساطة بينه وبين البشر

ثم نأتي لأغرب الصفات التي اشترطها الهادي في جارية ولده، فقد اشترط جهلها التام بلسان العرب، فما هدف التأكيد على من كلفه بشرائها ألا تعرف من العربية حرفاً؟ لا نجد هدفا مقنعا إلا أن يكون لسانها الأجنبي أمرا مطلوبا في ذاته حرصا على عدم افشاء سر خطير، فما هو السر؟

يسيطر الاهتمام على وجوه الحاضرين في مجملهم، بينما أميز وجوها علاها وجوم يشوبه الغضب، فأستنتج أنهم إخوة من الإثنى عشرية، فمع كونهم من أكثر الفرق الإسلامية اعتدالا في الفكر والفقه إلا أن كل ما يتعلق بالغيبة لديهم هو تابو مقدس. تجاهلت تلك التفاعلات المتوقعة والتي أكاد أقول بأني تعودتها، وعدت لطرحي النقدي، أطرح ظلالا على الرواية التراثية التي أرخت لولادة المهدي في ليلة الجمعة الخامس عشر من شعبان عام ٢٥٥ أو ٢٥٦ هجري، فمع البرمجيات الحديثة نجد أن اليوم الموافق للخامس عشر من شعبان عام ٢٥٥ كان الخميس وليس الجمعة، الخميس ٢٨ يوليو عام ٨٦٩م، أما لو أخذنا بالاحتمال الثاني لسنة الولادة وهو عام ٢٥٦، فسيكون موافقا ليوم الثلاثاء ١٨ يوليو عام ٨٧٠م، وفي الحالتين لم يولد الإمام يوم الجمعة كما حرص صانع الخبر أن يصور لنا لمكانة اليوم الخاصة عند المسلمين ولما جاء في الأخبار عن بشارة الرسول بمولود من نسله يولد في يوم الجمعة ليملأ الأرض عدلا بعد أن طفحت بالظلم.

عند عرضي لتلك النقطة يباغتني قيام أحد الحضور منفعلا بغير طلب الكلمة، كأنه اكتشف سقطة يلج منها للهجوم على أطروحتي، ويقول بحماس زائد "نعرف جميعا أن برمجيات معادلة التقويم تلك تحتمل الخطأ في حدود يوم كامل، فلماذا تفترض تهافت خبر ولادة المهدي يوم جمعة، ولا تفترض خطأ البرمجية التي استخدمتها، فيكون اليوم هو الجمعة بدلا من الخميس ٢٥٥ هجرية؟"

أبتسم ابتسامة أحاول أن أضع فيها من الود ما أمكن وأجيب قائلا "قد تخطيء البرمجيات في حدود اليوم، لكن كم يبلغ معدل الخطأ في أخبار شفوية تتناقلها لأكثر من ألف ومائة عام؟ ما هو الأقرب؟ خطأ برنامج أم خطأ حكاية شفوية؟ والبرنامج كذلك متره عن الغرض، لكن عندما يتعلق الأمر بأموال الخمس[٢٦] التي طالما جمعت تحت اسم المهدي، يتعين علينا ألا ننفي احتمال الغرض في الأخبار، أليس كذلك؟"

جلس السائل كاظما غيظه، لم أقصد إحراجه، لهذا عقبت بمودة لم تخلُ من حزم "قلت وأؤكد، لست هنا لأفند فرضيات فرقة لحساب فرقة، فلو كنت اليوم أنقد رواية من التراث الشيعي فلطالما نقدت روايات من التراث السني والدرزي

---

[٢٦] يخصص الشيعي خمس دخله (عشرين بالمائة) للإمام من آل البيت أو من ينوب عنه لينفقها فيما يراه من خير، ومن علماء الشيعة من أبطل الخمس مثل أبي موسى الموسوي (٤٢)

وغيرها، فأنا باحث والحقيقة التاريخية هي مطلبي، فأرجو أن يتسع صدر الزملاء من الإمامية لبحث اليوم، وأنا أعرف منهم علماء أجلاء من أكثر الناس حرصا على الحقيقة العلمية وجرأة عليها". قلت العبارة الأخيرة وأنا أنظر لصديقي العراقي الدكتور **كاظمي عبد الأمير** الأستاذ بجامعة بغداد والمتخصص في تاريخ العصر العباسي، فيبادلني النظر مبتسما ولسان حاله يقول "لا فائدة فيك .. ستظل تلعب بالنار دوما". لا شك عندي أن وصف العالم الحريص على الحقيقة يصدق أكثر ما يصدق في شخص كاظمي كما عرفته، لكننا نختلف دوما حول مواجهة العامة بحقائق التاريخ فيما يمس معتقداتهم، كان هو يعارض هذا، ويقول أن مهنة التاريخ عندها تنقلب مهنة بحث عن المتاعب كالصحافة، وقد تنتهي مسيرة الباحث فيها بالقتل على يد متعصب جهول، فكنت أحتج عليه بقول الإمام علي رضي الله عنه "**الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء**"[٢٧].

أنظر لعقارب ساعتي فأعجل حتى لا أتجاوز الوقت المحدد لي وأستأنف موضحا كيف أنكر **جعفر** أخو الإمام الحسن أن الإمام أنجب ولداً، فأطلق الإمامية عليه اسم جعفر الكذاب[٢٨]، وكيف يمثل إنكاره هذا جرحا ثالثا للرواية التراثية التي تطلب

---

[٢٧] (٧٤)
[٢٨] (٤١-٤٣-٤٤)

منا أن نكذب شقيق الإمام الحسن ونصدق واحدا من أتباعه هو **عثمان بن سعيد** الذي قال بحكاية الجارية والولد والغيبة الصغرى.

أتطرق للغيبتين الصغرى والكبرى، فالرواية تقول أن الحسن العسكري مات وولده محمد له من العمر خمس سنوات، لم يره أحد خلالها، وحين مات الأب وأصبح الطفل إماماً لم يخرج من عزلته، بل اختار الاستمرار في غيبة صغرى كان له خلالها نقباء أربعة بالتتابع، يموت أحدهم فيتولى التالي له، وكانوا ينقلون حاجات الناس إليه وينقلون تعاليمه للناس، كان هؤلاء النقباء هم عثمان بن سعيد ثم محمد بن عثمان ثم الحسين بن روح ثم علي بن محمد السمري، واستمر هذا الوضع لأربع وسبعين عاما كاملة، أي أن المهدي المفترض عاش حتى بلغ التاسعة والسبعين من عمره في غيبته الصغرى، ولم يره في هذا العمر المديد مخلوق غير سفرائه هؤلاء الواحد تلو الآخر، حتى مات السمري آخر نقبائه عام ٩٤٤م، فدخل في غيبة كبرى يفترض أنه فيها ليومنا هذا حي يرزق.

أعرض تصورا فرضيا مغايرا لسياق الأحداث لأبين مدى منطقيته مقارنة بالرواية التراثية. الشخصية المحورية في تصوري هذا هو عثمان بن سعيد، شخصية تجمع نقائضا بدورها، تقول

بعض المراجع[29] إنه عثمان بن سعيد الأسدي وتقول بذات الوقت أن نسبه ينتهي للصحابي الجليل عمار بن ياسر، وفي هذا تناقض، فعمار بن ياسر عبسي! فهل صاحبنا عثمان أسدي أم عبسي؟ أم أنها محاولة لزيادة الثقة فيه بنسبه لأحد ثقات الصحابة عند المسلمين عامة والشيعة خاصة وهو عمار رضي الله عنه؟ المهم أن عثمان هذا وجد نفسه في موقف دقيق خلقه موت الحسن العسكري في ريعان الشباب بغير وارث للإمامة، حيث تفيد الأخبار أن أخا الإمام المتوفي وهو جعفر كان فاقدا للمواهب الكاريزمية اللازمة للإمامة وملأ الفراغ الروحي والسياسي الذي خلفه أخوه المتوفي بغير وريث، وهكذا أصبحت الإمامة مهددة بالانقطاع، وبالتالي ينقطع الخمس الذي يدفعه الشيعي للإمام لينفقه في أوجه الخير، فيصبح المذهب في مهب الريح من جهتين، الأولى غياب القيادة الروحية والثانية جفاف الرافد الاقتصادي الذي يموله وهو الخمس، فماذا لو أن عثمان فكر أن ينقذ الإمامة بفكرة ذكية؟ يبتاع جارية يطلب من تاجر الرقيق أن تكون رومية لا تفقه من العربية حرفا ولا تنطق بحرف[30]، وهو ما تؤيده أحد الروايات، ثم يخرج على أتباع الإمام الحزانى لانقطاع الإمامة مدعيا أن إمامه المتوفي كانت له أم ولد منذ ست سنوات

---

[29] (٤٢)

[30] (٤٣)

وأنجب منها طفلاً اسمه محمد، ويدعي أن زوجته هذه تعين أن تكون رومية وأن تكون ابنة قيصر ومن نسل أحد الحواريين وفقا لرؤيا رآها والده؛ ففي علاقتها بأحد حواريي المسيح مبرر روحي شديد الإيحاء لاختيارها أما للإمام، ثم يدعي صاحبنا قصة الغيبة الصغرى، وهي كذلك قصة ذكية جداً وجاذبيتها كانت أسطورية للبسطاء، فلم يسمعوا لصراخ جعفر الذي نفى كل هذا عن أخيه الميت.

ولو افترضنا بذات الوقت أن الخليفة المتوكل قد رأى في فكرة الإمام الغائب ضمانا لعدم ثورة الشيعة ضده، لأنهم في الواقع بغير قيادة حقيقية، فانحاز لفكرة الغيبة[31]، بهذا يستقر الأمر لعثمان، فيجمع الخمس من الأشياع على هذا الأساس دهرا، قبل أن يحضره الموت فيورث سره الذهبي لولده محمد الذي صار النقيب والواسطة بعد أبيه في الاتصال بالمهدي، ويستعين محمد بن عثمان برجل يدعى الحسين بن روح على جمع مال الخمس من التجار ووجوه الشيعة، وربما اكتشف الحسين السر عرضاً من طول مخالطة محمد بن عثمان أو غير ذلك، فوكله محمد مكانه حين احتضر، ثم تلاه النقيب الأخير علي السمري، والذي أجاب من سأله وهو يحتضر عن النقيب

---

[31] (٤٧)

بعده قائلا "**الله بالغ أمره**"، ثم مات. لكن أحد الأتباع لم تعجبه هذه الخاتمة الغامضة، فظهر بعد وفاة السمري بمدة ليست بالقصيرة خطاب ممهور بخاتم الإمام الغائب يقول فيه "**يا علي بن محمّد السمري، أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنّك ميّت ما بينك وبين ستّة أيّام، فاجمع أمرك، ولا توصِ إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلاّ بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلب، وامتلاء الأرض جوراً**"[٣٢] ليكون هذا الخطاب هو المرجعية الوحيدة المؤسسة لفكرة الغيبة الكبرى والتي يفترض أنها مستمرة حتى اليوم.

"أنت تتهم قطبا وعالما كعثمان بن سعيد بالنصب بغير بينة، وتريد نقض عقيدة راسخة عبر القرون بشبهات". هكذا اندفع ذات الرجل الذي قاطعني أول مرة وبنفس الأسلوب المقتحم، لأجيبه أنا في اقتضاب وود أقل هذه المرة "من يدعي وجود شخصية تاريخية هو من يتعين عليه التدليل على وجودها، الشخصيات غير المرئية تاريخيا نسميها أسطورية يا سيدي، هذا ما أردت قوله بوضوح وإيجاز". أصمت لحظة حتى أسيطر على حدتي، ثم استأنف بهدوء "أنا أفند روايات تراثية بمقارنة تاريخية

---

[٣٢] (٣٩-٤٦-٤٧)

وطرح بديل، وهذا منهج متعارف عليه، فهل كنت تتوقع دليلا ماديا في شكل مخطوط بيد الحسن العسكري يقول فيه أنه لم ينجب؟ كيف للإمام أن يتنبأ بالتدليس عليه بعد موته؟ أليس الأولى لو كان هناك ولد أن يترك والده الذي أخفاه دليلا ماديا لأتباعه حتى يقروا بإمامة هذا الابن؟"

وهكذا أنهي بقية محاضرتي سريعا في جو شابه التوتر، ثم أعود لمجلسي بجوار كاظمي الذي نظر إلي ببرود وقال "الناس يريدون التفاصيل، لهذا تخترع لهم التفاصيل اختراعا، لكن هذا لا ينفي وجود الحقيقة المجملة، الغيبة لم تكن خوفا من اضطهاد، بل كانت اختبارا إيمانيا يا عزيزي، الاختبار هو أن تصدق الإمام دون أن تراه، ألسنا نعبد الله بغير أنْ نراه؟"

تأملت وجه صديقي بإعجاب ولم أجبه! فقد حاصرني منطقه الهادئ المدافع عن اعتقاده أكثر مما حاصرني الغاضبون باندفاعهم و ..

أنتبه من ذكريات الرباط تلك التي استغرقتني زمنا لأجد أن الطريق الصحراوي السريع قد انقضى سريعا، فهاهي بوابات الإسكندرية على مرمى البصر. "**تلكم الربوة كانت ملعباً، لشبابينا وكانت مرتعا، كم بنينا ن حصاها أربعاً، وانثنينا فمحونا الأربعا، وخططنا في نقى الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى، قد يهون العمر إلا ساعة، و تهون الأرض إلا موضعا**"

(٦)

الباندورا

كان قرص الشمس يذوب شفقا في الأفق عندما انتهى الطريق المتهالك وأشرف بسيارته على شاطئ أبي قير الرملي، أضاء الأنوار الكاشفة وهو يدلف بالسيارة يسارا على الشاطئ الرملي بمحاذاة البحر، ماراً على العديد من مطاعم المأكولات البحرية التي اشتهرت بها أبوقير، يتابع بنظره صف السيارات الواقفة عن يساره أمام المطاعم، عدد مفزع من السيارات الحديثة اللامعة، يذكر أنه يوم اشترى سيارته اليابانية التي يقودها منذ عشر سنوات قال له زملاؤه في الجامعة أنه لو استثمر علمه ومهاراته التعليمية في الدروس وطباعة المذكرات غالية الثمن، لبدل سيارة فارهة كل عام، يومها أجاب قائلا "تأسرني العشرة ولا أميل للتغيير، ولا أرى مجالا لأستاذ جامعي غير مدرج الكلية، ولن أطبع مذكرة لطلبتي كأنهم في الابتدائي، التاريخ مادة بحثية مفتوحة الآفاق ولا يدرس إلا بالبحث الحر والتنظير".

الشاطيء مزدحم نوعا ما بزحام يوم الخميس التقليدي، تمنى ألا تكون الربوة مشغولة بغيرهما اليوم، فهو يحتاج لحوار هاديء معها لا يعكر الزحام والهرج صفوه، عندما قارب الشاطئ على

الانتهاء لاحت الربوة، أو ما يحب أن يدعوها ربوة، وهي للدقة تبة رملية مرتفعة قليلاً يقع أسفلها مقهى ومطعم النورس، مطعمه المفضل في الثغر، وحين رأى أحد نادلي المطعم سيارته وتحقق منه داخلها، اندفع نحوه مرحبا فابتسم "علي" بود وهو يرد تحيته سائلا عن حاله وحال أسرته، أجاب النادل حامدا الله كعادة المصريين في السراء والضراء، واستأذن لحظات ليعد له جلسته "الملوكي" كما دعاها فوق الربوة، وخلال لحظات بالفعل كان النادل النحيف الذي يرتدي زيا رياضيا أحمر قد أعد جلسة منعزلة فوق الربوة، بدأ فبسط قطعا من الكليم ووضع فوقها طاولتين متلاصقتين ثم نصب فوقهما مظلتين، علق بإحداهما مصباحا كهربيا وبالأخرى صاعقا للناموس. بسط مفارشا بيضاء نظيفة على الطاولتين ورص حولهما أربعة كراسٍ معدنية لامعة ذات كسوة جلدية حمراء أخرجها للتو من الكشك الخشبي خلف المطعم. أشار لعلي أن يتفضل، فغادر السيارة منتعشا ومبتهجا بالجو والتطلع للقاء افتقده كثيرا. رفع يمناه شاكرا النادل وهو يجلس، و لم تمر لحظات بعد جلوسه حتى كان كوب زجاجي مترع بالشاي الأحمر يوضع أمامه يتصاعد منه البخار، الشاي الساخن مشهد شهي حين يميل جو الإسكندرية للبرودة، صب لنفسه كوبا من الماء بينما النادل يسرع للكشك الخشبي خلف المطعم ويعود حاملا جهاز

كاسيت قديم أسود اللون يضعه على أحد الكراسي الخالية ثم يتجه إليه سائلاً عما يحب سماعه، اختار أغنية **الحب كله** من بين ما ردده النادل على **سمعه** من أغاني كوكب الشرق، وبعد لحظة كانت **ثومة** تملأ الجو بصوتها الأسطوري المترع شجنا ونشوة وهي تقول "**واسقيني واملا اسقيني تاني، من الحب، منك، من نور زماني، اسقيني ياللي من يوم ما شفتك، حسيت كأني اتخلقت تاني**".

ينظر علي في ساعته ثم يسترخي في مقعده متأملا البحر، ما زال أمامه نصف ساعة قبل وصولها، ليتها تصل مبكرة فترى الشفق الذي تحبه، هكذا تمنى وهو يرشف كوب الشاي الساخن، يستقبل نسيم البحر بشهيق عميق ومتعة غير متناهية. يتأمل مياه الخليج المنبسط أمامه، يستدعي خليج أبي قير لذهنه دوما صورة الحملة الفرنسية، والمغامر العسكري العبقري **نابليون بونابرت،** علت شفتيه ابتسامة حين تذكر صورته بالزي الشرقي بعد أن ادعى الإسلام! وقد زادت العباءة والعمامة قصر قامته ظهورا، كيف فطن ذلك الداهية الفرنسي لمدخل التقرب الديني عظيم الجدوى لدى الشرقيين؟ لعل هذا هو الفارق بين العظماء والمجهولين من البشر، القدرة على قراءة الواقع وتحليله والنفاذ منه إلى الوسيلة التي تحقق الهدف، لم تلبث

ابتسامته أن فترت بينما تستدعي ذاكرته خطاب نابليون الذي وجهه لأهل مصر بواسطة علماء الأزهر، وجاء فيه: "**بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله إلا الله، لا ولد له ولا شريك في ملكه، قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة فطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني أدام الله ملكه، أدام الله إجلال السلطان العثماني، وأدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، ولعن الله المماليك أعداء السلطان، وأصلح حال الأمة المصرية**"

وهكذا فالإجلال للمحتل التركي والغازي الفرنسي، أما الأمة المصرية فغاية ما يرجى لها صلاح حالها على يد العارف بالله بونابرت، والذي تسمى في ثوبه الجديد باسم يناسبه هو **عبد الله باشا بونابردي**، وصلى الجمع في المساجد، ومشى في الأسواق بحرس قليل، فمن أوحى له بخطة العلاقات العامة الجهنمية تلك؟ من يعرف كل هذه المفاتيح لتخدير الثورة ضد

الغزو غير خائن مصري؟ أو متعاون مصري بلغة عرّابي الخيانة؟ **فسواء تاليرون** وزير خارجية فرنسا الذي نصح بالتودد للمسلمين في خطته أو **شارل ماجلون** القنصل الفرنسي الذي اقترح الحملة، لم تكن مداركهما لتعي الثقافة المصرية بهذا العمق لولا تعاون من عميل محلي، رجل يعلم يقينا أن المصريين يقبلون حكم الترك لأنهم مسلمون، فلماذا لا يحل الفرنسيون محل الترك لو ادعوا بأنهم كذلك مسلمون؟

نفس المنطق الذي عمل به الجنرال **مينو** لاحقاً، فعندما قتل **سليمان الحلبي** الجنرال **كليبر** لاستهانته بالمقدسات ودخوله الأزهر بالخيول لقمع ثورة القاهرة، خلفه الداهية مينو، فصدق على إعدام الحلبي بالخازوق بعد حرق يده اليمنى، وأمر بتركه على الخازوق في موضع يقال له تل العقارب حتى تنهشه الجوارح، ثم ارتد على عقبيه فأعاد حقن نفس المخدر في عروق مصر الثائرة، فإذا بالجنرال الفرنسي يهده الله فيسلم ويحسن إسلامه، ويسمي نفسه **عبد الله جاك مينو**، ويزيد فيتزوج ابنة واحد من أعيان رشيد، ولتكتمل التراجيديا ينجب منها ولدا فيسميه **سليمان**، ويدعي أنه اختار الاسم تيمنا باسم الشهيد الحلبي الذي ندم على إعدامه، هكذا فهم مينو لعبة الإسلام السياسي القديمة، وفهم أن الأمويين والعباسيين دجنوا الفقه

الديني ليوافق حكمهم، فجعلوا الخروج على حاكم مسلم أيا كانت جرائمه خروجا عن الدين وحرابة يعاقب فاعلها بالقتل، فالمسلم لا يشق طاعة حاكم مسلم، **إن أحسن الحاكم المسلم فله الأجر وعلى الرعية الشكر، وإن أساء فعليه الوزر وعلى الرعية الصبر**[٣٣]، فقط الصبر! فلماذا لا يستغل الجنرال الفرنسي هذا المدخل السهل الميسور لإضفاء شرعية على الاحتلال؟ شرعية توفر عليه الكثير من الدماء والأموال[٣٤] بمجرد أن يشهر إسلامه باللسان؟

توقفت خواطر علي التاريخية حين لمح طيفا محببا يتقدم نحو الربوة، فعاد للحاضر وعلت شفتيه ابتسامة ليست كابتسامته في كل حين، ابتسامة يكاد يضيء معها وجهه، تلوح له بيديها فيرد ملوحا، وتقبل نحوه بعودها الممشوق الريان في بنطلون أبيض رقيق يناسب لون الحذاء الرياضي، وتي-شيرت أزرق فوقه جاكت خفيف من كتان رمادي فاتح، وقد أرسلت شعرها الأسود اللامع كإطار عبقري حول وجهها الثلجي

---

[٣٣] خبر عن عبد الله بن عمر، و بنفس معناه قال كعب الأحبار: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضها إلا ببعض (٤٨)

[٣٤] جميع التفاصيل حول الحملة الفرنسية حقيقية (٤٩-٥٠)

المشرب بالحمرة، حتى في ملامحها قاربت ماري باندورا خياله! كانت أم كلثوم في هذه اللحظة تشدو بقولها "**يا أرق من نسمة وأجمل من ملك، إنت روحي وكل عمري ونور حياتي، يا حياتي إيه أنا بالنسبة لك؟**" .. نعم .. إيه أنا بالنسبة لكِ يا رائعتي؟

هكذا فكر علي وهي تشرق عليه فتعوض غروب الشمس، أبهى وأجمل عالمة رآها، أو لعلها أعلم جميلة، لقد عاش عمره يختلط عنده حسه الجمالي بذوقه الفكري، فلا يرى جمالا إلا في المرأة الذكية ولا ذكاء إلا في المرأة الجميلة. يأت صوتها وقد اقتربت قائلة "الصيف ودع آخر أيامه ومال الجو للبرد يا عاشق الهواء الطلق". تتجه نحوه مصافحة، ثم تجلس على الكرسي أمامه وتتم جملتها ضاحكة "مازلت تخشى قبول دعوتي للعشاء في بيتي حتى لا تفترسك الإنجليزية الشريرة وتنتهك عفافك؟ رغم أن شرفة شقتي في هذا الوقت من العام قطعة من الجنة". فأجاب وهو يحيط وجهها بنظرات من عينين حانيتين وابتسامة رضا تعلو شفتيه "أي مكان تحلين فيه جنتي، وليت الإنجليزية الشريرة افترستني منذ الأزل". قالت وهي تشعل سيجارة من علبته، وتتسع ضحكتها الحبيبة لقلبه "آه .. بعد أن تتزوجك طبعا .. افتراس شرعي؟"

"بالضبط .. لكنها رفضت". قالها مبتسما، لكنها أجابت وقد فترت ابتسامتها "تعلم أن موضوع الرفض هذا يثيرني فضلا عن كونه غير صحيح". أجالها في تغيير ظاهري لموضوع الحوار "هناك شاعر فلسطيني اسمه محمود درويش كان .."

"لست سائحة أمريكية، أعرفه ولدي بعض دواوينه"

"لا أعجب لهذا، المهم أنه وقع يوما في هوى فتاة اسرائيلية فحال بينهما الصراع العربي الإسرائيلي، فكتب قصيدة قال فيها: بين ريتا وعيوني بندقية، والذي يعرف ريتا ينحني ويصلي لله في العيون العسلية. أظن بإمكاني أن أنسج على منواله فأقول: بين ماريْ وعيوني عجرفة وجودية، والذي يعرف ماري يرى نور الإله بوجه الجدلية".

بدا التأثر واضحا على نظرتها، فعاجلها بقوله "لابأس .. كفانا مشاكسة اليوم". نظرت له وابتسمت وهي تومىء برأسها متجاوزة الموقف الذي ظلله الشجن، فالتفت مناديا النادل، ثم ما لبثا أن عاد كل منهما لشروده، تنتابه خواطر وذكريات، أدرك في العام التالي على تعارفهما أنه يحبها ويتمنى الحياة بقربها، كانت نموذجا لباندورا خياله لا يعيبه غير روحانيتها المحدودة رغم رهف روحها وجيشان عاطفتها، لكنه تنازل عن هذا أمام تفاهم وتناغم سرعان ما تطورا بينهما،

كان يعرف أنها تخطط للإقامة بمصر حتى تتم دراساتها الاستشراقية، فتقدم لها يطلبها للزواج، وفوجئ مفاجأة مؤلمة في تلك الليلة الباردة التي طمسها الضباب حين أجابته برفض رقيق، سألها شغوفاً بمعرفة السبب الذي يحول دون سعادته، فقال "كل شيء خلال الشهور الماضية كان يقول أنك .. أعني"

"أحبك، لن أخجل أن أقولها أيها الشرقي الذي يستأذن ليقبل حبيبته، أحبك ولا أخجل من هذا، بل لعلي فخورة به، لكن سبب الرفض لا يتعلق برغبتي أنا".

"سأصعق لو كان سببا عنصريا". قالها مازحا بمرارة، ولدهشته أجابت بما هو أغرب، قالت متلعثمة من حرج الموقف وألم الذكرى "لم تبتعد كثيرا، السبب ديني". أجابها وقد اتسعت عيناه دهشة "لأني مسلم؟"

"ولو كنت مسيحيا لما تغير الأمر، أنا على عهد مع أمي التي فارقت دنيانا منذ ثلاث سنوات". تهيأت لتقص عليه قصتها، فملأت صدرها بشهيق عميق تستجمع خلاله شجاعتها، ثم حكت له قصة أمها التي كانت مثقفة وجودية متطرفة، وعلى النقيض كان أبوها إنجيليا محافظا، تحابا في الجامعة وتسرعا في الزواج وهما يافعان وقبل أن تتبلور

شخصيتاهما، وربما جعلهما هذا أكثر تطرفا، فكل منهما كان يتصرف وكأنه في حالة حرب مع الآخر للحفاظ على هويته، فالآخر أقرب إليه من أنفاسه، ولهذا يحتاج لرفضه بشدة حتى يحتفظ لفكره بحدود آمنة، وهكذا فشلا في إقامة زوجية ناجحة. كان أبوها متسلطا بما يكفي لتطلب أمها الطلاق منه، لكنها لم تفعل، لأن الانفصال كان من شأنه أن يعرضها وابنتها هزة مالية عنيفة، فتحملت كل شيء لأجل طفلتها ماري، ولما كانت الأم تظن أن التربية الدينية هي ما أفسد عقل زوجها، فقد ألحت على ابنتها وهي في فراش الموت تطلب وعدها بألا تربط مصيرها هي الأخرى برجل يؤمن بقوى خارجة عن ذاته، بأي رجل يؤمن بإله، وقد نالت وعدها بالفعل.

علق علي مشدوها من المنطق العجيب "هل أنت جادة؟"

"أترى وفائي بالعهد لأمي الراحلة أمرا تافها أو هزليا؟"

"بل حكم الموتى للأحياء هو الهزلي، وأغرب منه تقييم الإنسان ورفضه مقدما لأنه يؤمن بالله! هذه ليست فلسفة وجودية".

"لا علاقة لطلبها بفكرها الوجودي، ولكن بمعاناتها مع رجل تعود أن يبيح لنفسه مايريد بعد أن يجد له مظلة دينية تقبله مهما كان شائنا وغير أخلاقي، تصور رجل كهذا مع

مثقفة واقعة في غرام معتقداهما الفكرية ومثاليتها لأبعد حد".

أفاق من الذكرى على صوت النادل الذي حضر ملبياً، فابتسم وهو يشير نحو "ماري" قائلاً "سيدة الحفل تختار الطعام للجميع".

(٧)

حديث السقيفة

أصغت لما رواه عن أحلامه وخواطره، ومضت ساعة في مناقشة الأمر وتقليب وجوهه خلال تناولهما العشاء المكون من سمك الوقار الذي تحبه وشرائح السبيط المقلي التي يفضلها، وبعد أن رفع النادل أطباق الطعام الفارغة، أخرجت من حقيبة يدها علبة سجائرها الرفيعة بالنعناع فأشعلت واحدة، ثم نظرت له نظرة ثاقبة وقالت "الأحلام تباديل وتوافيق من خبرات الماضي؟ ولا علاقة لها بالمستقبل". أجابها بأنه لا يعتقد أنها رؤى ولا يظن بنفسه أنه ملهم من السماء. يعرف تماما أن أحلامه إن هي إلا عوادم عقله الباطن، فكل ما يراه فيها من مشاهد رسمها خياله يوما من واقع دراسته للمكان والزمان والشخصيات التاريخية، لكن ما يحيره هو التوقيت، لماذا بدأت الأحلام الآن؟ أجابته مرجحة أن يكون انشغاله أثناء عمله في كتابه الأخير بالخوارج والمتطرفين المعاصرين الذين يراهم امتدادا للخوارج هو السبب، ولكن تبقى مشكلة، فحلمه حول الخوارج والنهروان استثنائي جدا، أما بقية الأحلام وأهمها حلمه المتكرر حول الإمام "علي" وهو يكتب في بيته قبيل الفجر كلها لا علاقة لها بموضوع كتابه، ثم هو بعد ذلك دارس للتاريخ

الإسلامي عامة رغم تخصصه في الفتنة الكبرى، واهتمامه وتأثره الشخصي بعبقرية الإمام علي لا يبرران اقتصار الأحلام على تلك الحقبة تحديدا، علقت ماري بأنه تقريبا يعيش بعقله الواعي بين حقبتين تاريخيتين، الأولى تقع بين القرنين السادس والسابع الميلادي في الجزيرة العربية، وهي حقبة النبي ثم الراشدين ثم الفتنة الكبرى والدولة الأموية وكربلاء، أما الثانية فهي القرن العشرين في الشرق الأوسط، الحرب العالمية ثم الخمسينات والستينات وزخم ثورة يوليو ثم التراجع الثوري في السبعينات. كان يرى الأمر طبيعيا، فالحقبة الأولى تشغله بحكم التخصص، والثانية تشغله لأن واقع المنطقة التي يعيش فيها قد تمت صياغته في تلك الفترة من القرن العشرين، فالخمسون عاما ما بين الحرب العالمية الثانية والتسعينات هي الحقبة التي حددت مصير الشرق الأوسط اليوم وغدا وفي المستقبل المنظور.. سألته عن حلمه بعلي بن أبي طالب وهو يكتب قبل الفجر، وهل له أساس من دراساته وتصوراته؟ فأجابها بأن مسحة الحزن على وجه الإمام حين قام للصلاة تركت في نفسه انطباعا بأنها إمارات حزنه لوفاة الرسول، والمعروف تاريخيا أن الإمام اعتزل في بيته مدة بعد وفاة النبي[٣٥]، فربما كان المشهد خلال اعتزاله،

---

[٣٥] (١٥-٥١)

وهذا يفسر عدم خروجه للصلاة في مسجد الرسول كعادته، سألته لو كان اعتزاله بسبب البيعة وميراث فاطمة الذي منعه عنها الخليفة الأول؟ ضحك وهو ينفذ بعينيه لأغوار عينيها وقال: لا يا مستشرقتي الباحثة عن الشبهات، فمن يعرف التركيبة الشخصية للإمام علي يدرك أن الهرب والاختفاء ليسا من شمائله، ولا يتفقان مع مواقفه التاريخية.

هكذا علق قبل أن يستفيض في شرح واقعة السقيفة وكيف تمت البيعة **لأبي بكر الصديق** رضي الله عنه، بينما علي يجهز الرسول للدفن، ولذلك فقد تحفظ الإمام على اجتماع السقيفة وما ترتب عليه، فكان يرى أنه الأحق بالخلافة، من منطلق أن حجة المهاجرين على الأنصار هي حجته على الجميع، فقد كان مما قاله أبو بكر للأنصار فيها "إن قريشا أحق الناس بهذا الأمر من بعد الرسول لا ينازعهم ذلك إلا ظالم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء"[٣٦]، وكذلك قال عمر لمن اقترح تعيين أمير من المهاجرين وأمير من الأنصار "هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمورها من كانت النبوة فيهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان

---

[٣٦] (٣٤-٩٠)

المبين"[٣٧]، فهكذا جعل الشيخان حجتهما لأحقية المهاجرين بالخلافة أنهم عشيرة الرسول، فكان علي يرى أن أقرب قريش للنبي هم بنو هاشم، وأقرب الهاشميين له بنو عبد المطلب، وأقربهم به صلة وأسبقهم للإسلام وأكثرهم بلاء فيه هو علي، وقد وافقه في هذا **أبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد بن عمرو وعمار بن ياسر**[٣٨]، لهذا سماهم الشيعة بالأركان الأربعة. من وجهة نظر مغايرة، رأى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أنهما كفوان لعلي في الفضل والسابقة، وهما بعد ذلك أسن منه، لذلك فهما الأولى بالخلافة. وهكذا كان لكل فريق رأي ولكل رأي وجاهته، لكن هذا لا ينفي أن عليا قد قبل بواقع الأمر حرصا على وحدة الصف، وسدا لذرائع الفتنة، واحتراما لرأي الأغلبية التي بايعت.

سألته عن تأخر بيعة علي للصديق[٣٩]، فأجاب بأنه تأخر احتراما لمشاعر زوجته فاطمة، والتي غضبت من الخليفة بسبب أرض فدك، ودليل ذلك أنه بايع بعد وفاتها، ثم تكرر الموقف مع استخلاف أبي بكر لعمر، فاعترض الإمام على مبدأ

---

[٣٧] (١٢-٣٤-٩٠)

[٣٨] (١٥-٥٢-٥٣)

[٣٩] جاء في تاريخ الطبري: وتخلف عن بيعة أبي بكر يومئذ سعد بن عبادة في طائفة من الخزرج وعلي بن أبي طالب وابناه والعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنوه في بني هاشم والزبير وطلحة وسلمان وعمار وأبو ذر والمقداد وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم من المهاجرين (٨)

الاستخلاف من سابق للاحق لأن رسول الله لم يستخلف، بل ترك الأمر شورى بين الناس، لكنه لم يعترض على شخص الفاروق بالطبع، ولم يصل الخلاف لحد التنافر والتخاصم، بل كان الإمام للفاروق خير ناصح أمين، ولم يغمطه الفاروق فضله، وهناك واقعة رواها بعض المؤرخين[٤٠]، فحواها أن أبا بكر ندب عمر بن الخطاب لتفقد الغائبين عن بيعته وأولهم علي، فما كان من عمر إلا أن توجه لبيت الإمام والزهراء في جمع من الصحابة، وخير عليا بين الدخول فيما دخل فيه الناس (أي بيعة الصديق) أو يحرق عليه بيته بمن فيه، وهي رواية شديدة التهافت، فالزهراء كانت في هذا البيت الذي تدعي الرواية أن عمرا هدد بحرقه، فهل يحرق عمر بيت ابنة الرسول فوق رأسها؟ وفضلا عن هذا، فمجرد التهديد بحرق بيت فيه فاطمة عشية موت أبيها كان كفيلا بإثارة فتنة تنهدم لها أركان الدولة، فما كان عمر ليفكر في أمر كهذا فضلا عن التهديد به، كما أن العلاقة الوطيدة بين عمر وعلي لاحقا لا تتفق مع الخبر، وحسبنا من هذا رثاء علي لعمر بعبارة جامعة مانعة، قال فيها "**لله بلاء عمر، فقد قوَّم الأود وداوى العمد، وأقام السنة وخلف الفتنة، ذهب نقي الثوب قليل العيب، أصاب**

---

[٤٠] جاء في تاريخ الطبري: فقالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا عليا، وعن زياد بن كليب قال: أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة (٨)

خيرها وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه، ثم رحل وتركهم في طرق متشعبة، لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقنُ المهتدي"[41].

"وعلى هذا فأنت ترى رواية التحريق مكذوبة؟"

"مبالغ فيها، ربما زار عمر عليا في بيته واشتد عليه في اللوم لتأخر بيعته لأبي بكر حرصا على وحدة الأمة، أما الباقي فمبالغات تهدف لتشويه صورة الفاروق، لكنها في الواقع تشوه عمرا وعليا معا، ففارس عدنان لن يهدد بحرق بيته فيستسلم على الصورة التي روتها الأخبار".

"وماذا عن إرث الزهراء؟". هكذا سألته فأجاب بأن رسول الله كان قد أوقف ريع الأرض التي غنمها في فدك على ابنته فاطمة في حياته، فاعتبرتها هبة لا ينطبق عليها حديث الرسول الذي نص على التصدق بتركة الأنبياء[42]، لكن الصديق رأى أن حق الانتفاع لا يعني هبة ولا انتقال ملكية، فأمر برد أرض فدك لبيت المال، وبقيت تابعة لبيت المال حتى أعادها **عمر بن عبد العزيز** لأحفاد الزهراء، لأنه رآها هبة لا إرثا، فرأي أبي بكر كانت له وجاهته بتكييف الأمر كحق انتفاع خلال حياة النبي

---

[41] (١٨)

[42] إشارة للحديث الشريف: إنا معشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة (٢)

ينتهي بوفاته، ورأي فاطمة ثم عمر بن عبد العزيز كذلك له وجاهة بتكييفها كهبة، وفي كل الأحوال لن يؤثر الحرمان من مال قل أو كثر في علي لدرجة اعتزال الناس، فهو نفسه حين صار الخليفة لم يسترد تلك الأرض، بل أوقف أرضا غيرها وآبارا له في خيبر على الصدقات، من يفعل هذا لا يعتزل لخلاف على مال أو صراع على سلطة.

"فلماذا اعتزل؟" هكذا سألت فتروى في الإجابة ليرتب أفكاره، ثم تحدث ففند أولا بعض الروايات التي وردت في تبرير عزلة الإمام، فالرأي القائل بأنه اعتزل ليجمع القرآن مستبعد، لأنه لا يبرر تعجل علي بعد وفاة النبي، فالقرآن محفوظ في صدور القراء ولا يخشى عليه من الضياع، وكذلك الروايات التي رددها بعض المراجع ومنها أن جبريل كان يواسي السيدة فاطمة أربعين ليلة بعد وفاة النبي، ويقص عليها ما سيحدث في مستقبل الأيام حتى يوم القيامة، وأن عليا كان يسجل كلام ملك الوحي في صحائف، حتى تكون منها ما عرف بمصحف فاطمة[٤٣]، فهي رواية مرفوضة شكلا وموضوعا، فلا وحي من خلال الروح الأمين لغير الأنبياء، والله لم يفتح باب الغيب لأنبيائه فضلا عن خلصائه، ومثل هذا يقال لمن روى أنه اعتزل لينتهي من وضع كتابين، أطلق عليهما اسمي الجفر الأكبر

---

[٤٣] (٤٥-٥٤)

والأصغر، وأنه وضع فيهما علم الحروف الذي يعرف منه الغيب[٤٤]، فهو قول غير مقبول، لأن أمير المؤمنين لا كان منجما ولا كاهنا، والله لم يعط مفاتيح غيبه لبشر، حتى الرسول أمره القرآن بإعلان حجب الغيب عنه في الآية الكريمة "**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ**".

نظرت إليه نظرة لمعت بها عيناها وهي تقول "فماذا يرى إمام القرن الحادي والعشرين في سبب اعتزال علي؟" ضحك لوصفها له بإمام القرن، ثم أجاب وهو يشعل سيجارة يدخنها مع الشاي الساخن الذي يعقب طعامه، فأوضح أن لديه تصورات لكنها تبقى بغير دليل ولا قرينة تؤيدها، فربما وضع الإمام كتابا في المحكم والمتشابه وناسخ القرآن ومنسوخه، فهذا هو العلم الذي وصفه **ابن عباس** بالحكمة وقال بأن ذخائره عند آل البيت وأن عليا حاز منه معظمه[٤٥]، وربما وضع مصنفا جمع فيه أهم الأحاديث الحاكمة للتشريع كما سمعها من الرسول، لأنه خاف أن ينساها أو تفقد بموته، لكن أي من هذين الاحتمالين يحتاج إنجازه بقلم من بوص ومحبرة وقتا أطول

---

[٤٤] (٤٥)

[٤٥] (١٥-١٩-٢٢-٥٥)

بكثير من فترة العزلة على أقصى تقدير لها، فلا يبقى غير احتمال ثالث، فلعله اعتزل ليكتب صحيفة في استنباط الأحكام والفقه الديني كما فهمه من الرسول، صحيفة منهج وأسلوب لا تفاصيل، وهذه الوثيقة لو وجدت لفصلت في الخلاف الأبدي بين أهل الرأي ممن يحتكمون للعقل بعد الكتاب والمتواتر من السنة، وبين أهل الحديث ممن يرجحون كفة النقل ولو على حساب العقل، فأنا أتصور أن تحليل الإمام علي لحدث كسقيفة بني ساعدة[٤٦] التي اعتزل بعدها، دفعه لإنجاز مؤلف كهذا بناء على ما خرج به من استنتاجات.

. توقف عن الحديث لحظيا بعد جملته الأخيرة ورشف رشفات متتالية من كوب الشاي ليزيد من حماس المستمعة الوحيدة التي لا تمل نظرياته، فطنت ماري لتوقفه فضمت الجاكت الخفيف على صدرها مع هبة هواء باردة أتت من ناحية البحر وقالت مغازلة غرور محاضرها "أي استنتاجات يا واكلاً عقلي؟" احتواها بنظرة شاكرة لغزلها الرقيق، ثم أجاب مبينا أن أهم ما يمكن أن يستخلص من وقائع سقيفة بني ساعدة

---

[٤٦] سقيفة لبني ساعدة، وهم أحد بطون الخزرج، اجتمع فيها كبار الأنصار، فأوشكوا على بيعة سعد بن عبادة، ثم لحقهم كبار المهاجرين وعلى رأسهم أبو بكر وعمر فناقشوهم حتى بايع أغلبهم أبا بكر (٨-١٨)

هو التغير اللحظي بعد وفاة الرسول، تغير دفع المهاجرين والأنصار للاجتماع في السقيفة لمناقشة انتقال السلطة بينما الرسول في الغسل ومعه علي وعمه العباس، كذلك رجح أن يلتفت الإمام علي بعين فاحصة لنزاع الأنصار والمهاجرين على السلطة، وكل فريق يسوق من القرآن والسنة دليلا على ما يراه حقا له[٤٧]، فيفطن من الظاهرتين لحقيقة مباغتة، ألا وهي تهافت الثورة الروحية بوفاة الرسول، فالطبيعة البشرية في نفوس الناس صارت أقوى كثيرا بغياب الكابح النبوي، وجنود الحق في حياة محمد لن يبقوا جميعا على حالهم بعده، فمنهم من سيعتصم بحبل الله، ومنهم من سيغلبه ضعفه وهوى نفسه، ومنهم من سيضله رأيه، وهو ما حدث بالفعل بمرور الزمن. فلعل الإمام فطن من كل هذا لأن النقل وحده لا يكفي، إذ لابد من حكم عدل دائم حتى يوضع النقل في موضعه، وهذا الحكم الدائم لا يكون إلا منهجا للتعامل مع النصوص، منهج استنباط إذا جاز التعبير، لأن نصوص الكتاب والسنة التي هدت الناس للحق حين وضعت في مواضعها، ربما توضع في غيرها فتضلهم، وتكون كلمات حق يراد بها باطل كما قال الإمام.

---

[٤٧] احتج الأنصار بأنهم أنصار النبي و حماة الإسلام، فاحتج المهاجرون بأن قريش قوم النبي ورهطه ولن تقبل العرب خليفة إلا منهم كما أسلفنا (٨-٩٩)

أطرقت "ماري" لحظة قبل أن تقول "أخشى أن ظنك هذا مدفوع بأمانيك أكثر منه بعقلك، أنت تتمنى وجود مثل تلك الوثيقة المرجعية يا عزيزي، لكن مثلها لم يوجد أبدا في تاريخ الأديان" صمتت برهة قبل أن تستأنف لتقول أنها في البداية كنت تحب شخصية الإمام كانعكاس لتقديرها لصديقها الذي جعله نموذجا ونبراسا، لكنها مع كثرة المطالعة في سيرته صارت أكثر من علي انبهارا به. وقد ظنت أن إعجابها بالإمام أمر استثنائي، قبل أن تكتشف أن الإعجاب بعبقريته قد تجاوز المسلمين إلى غيرهم منذ زمن بعيد، فافتتن **جورج جرداق** شاعر لبنان الرقيق به، وكتب أروع ما كتب في ترجمة علي على الإطلاق[٤٨]، و أعجب **كوفي أنان** بعبارته الحكيمة في خطابه لمالك الأشتر إذ يقول "**يا مالك إن الناس إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**" وتمنى أنان لو استطاع أن يعلقها في المحافل الدولية لتغنيها كل شعوب العالم، وباقتراح منه وافقت الأمم المتحدة على اعتبار رسالة علي هذه أحد مصادر التشريع الدولي[٤٩].

---

[٤٨] المعني هنا كتاب: علي وصوت العدالة الإنسانية

[٤٩] قرار اللجنة القانونية بالأمم المتحدة بتصويت الدول الأعضاء عام ٢٠٠٢م

كان علي ينظر لها بشرود، فقد شرد عقله من العام إلى الخاص "لهذه الدرجة يا ماري لم تعودي قادرة على قولها؟ على النطق بكلمة حب؟ فتصبح علاقتك بي مجرد تقدير؟" هكذا كان يفكر حين لوحت بيدها أمام عينيه وقالت "هل تحلم مستيقظا الآن؟". تنبه وندت من فمه آهة شجن حملت حسرة على العمر الذي يضيع وأخرى على الأشتر الذي التقط اسمه من حديثها، وأجابها بأن مالكا كان أفضل حاكم مسلم تولى على مصر، ولسوء طالعها في حكامها لم يدخل الوالي العادل عاصمتها أبدا، كأن قدر مصر ألا يعمر فيها على المزاود إلا شر البقر. قاطعته قائلة بأنها قرأت قصة اغتياله بالسم من قبل، فأجابها بأن للموضوع أبعادا أعمق من مجرد اغتيال وال جديد لعلي على يد أعوان معاوية وعمرو. نظرت له وهي تضع سيجارة أخرى من سجائرها الرفيعة بين شفتيها المكتنزتين، ثم قالت "كل شيء عندك أعمق وأكثر دلالة". قام وهو يطفئ عقب سيجارته في منفضة السجائر المكتنزة بالرمال، ثم مد يده نحوها يدعوها للمشي وهو يرد قائلا بأن العمق موجود في كل شيء حولنا، والدلالات تنمو بوفرة كأشجار الغابات، ثم ردد بيت طاهر أبو فاشا "**وفي كل شيء يلوح الهوى .. ولكن لمن ذاق طعم الهوى**".

"علي الإمام لا يغير عاداته، تمشية قصيرة على البحر بعد العشاء، وبعد كيلومتر واحد يتعب ويرجع ليشرب قهوته".

ابتسم وهو يخلع سترته من القطيفة بنية اللون، ليحيط بها كتفيها، ويقول "ربما لم نتزوج لأننا نفهم بعضنا أكثر مما يجب، ضمي السترة على صدرك، فالجو أبرد مما تحتمله سترتك الخريفية"

"ولو كانت سترتي ثقيلة لأعرتني سترتك أيضا، أظن أن إعارة سترتك لفتاة أمر يرضيك بحد ذاته، ربما عقدة قديمة؟". رد ضاحكا يوافق على ملاحظتها الذكية، فمشهد إعارة البطل سترته لفتاته كان مشهدا مألوفا في كلاسيكيات السينما المصرية، عندما كان عماد حمدي ورشدي أباظة هم الفتيان الأوائل، وقبل أن تحل بالسينما المصرية أزمة شفرات الحلاقة والصابون التي نتجت عنها ملامح بعض نجوم اليوم. لن يعجب لو رأى فتاة تعير أحدهم سترتها في فيلم حديث، فأكثر النجوم الرجال اليوم يعانون من الهزال.

قامت وهي تلف نفسها بالجاكت الثقيل وتخرج شعرها من تحته لتنثره على كتفيها كحرير أسود، نظرت لعلي ممتنة وقشعريرة الدفء تسري بجسدها، ومع ذلك لم يمنعها الامتنان من التعليق بعناد مرح "وهل بالضرورة أن تكون المرأة هي الضعيفة التي يحميها الرجل القوي من البرد؟"

"ليس بالضرورة، أعطني سترتي ودعي الفيمينيزم يحميك من

البرد". قالها وهو يحرك يديه على ياقة الجاكت كأنه يهم بترعه عنها، فضحكا سويا ضحكة صبيانية أنستهما سنين العمر، ثم اعتدلا متجهين نحو شاطئ البحر الهادئ، واستأنف هو متسائلا، لماذا لا يكون لكل من الرجل والفتاة دور مختلف؟ المشاركة تبادلية بطبيعتها والتطابق إفلاس، فعلى مستوى المجتمع لا يمكن لمواطن أن يدرس اليوم في الجامعة ويخبز غدا في فرن وبعد غد يجري جراحة لمريض، لهذا ظهر مفهوم العقد الاجتماعي. كذلك الحال بين الرجل والمرأة، فلابد من عقد اجتماعي يوزع الأدوار بينهما، فلو كان هو أقوى منها بدنيا ليحتمل بدلا منها برد الشتاء، فهي أقوى منه روحيا، ويمكنها أن تشيع الدفء فيه قلبا وقالبا بنظرة من عينيها، بهذا تصير المساواة في القيمة، أما تطابق الملكات فهو الإفلاس بعينه، الإفلاس الذي لم يؤسس عليه الكون.

(٨)
أهل مصر في خـــــربتًّا

تمادى الصديقان على الشاطيء الذي قل رواده بحلول الليل، فسار علي واضعا كفيه في جيوب الجينز الأزرق، وبجواره سارت ماري عاقدة ذراعيها لتتقي هبات من رياح البحر شابتها برودة منعشة حين تهب ناعمة هادئة، ثم تزداد قوتها أحيانا فتحمل شعرها الناعم المقصوص بعناية من أطرافه في كل اتجاه. بعد خطوات صامتة قليلة قالت وهي تلتفت له بنظرة تسبح في الذكريات "أتدري متى أعجبت بك للمرة الأولى؟ لقاؤنا الثاني في كافيتيريا الجامعة. لم أصرح لك بهذا حينها، فقد كانت صورة العربي الذي تراوده خيالات جنسية مع أول كلمة إعجاب لا تزال عالقة بذهني". ابتسم وهو ينظر في الفراغ مستدعيا ذلك اليوم من خزين الذكريات، ثم قال "كنت ترتدين بنطالا رياضيا أسود اللون، وقميصا برتقاليا، وترفعين شعرك بعقصة ذيل الحصان". نظرت له نظرة جانبية ذات معانٍ تراوحت بين التمني والحسرة، راقها كثيراً أن يذكر تلك التفاصيل. لا توجد امرأة لا تحب هذا من رجلها. نظرت أمامها وهي تبلل شفتها التي جففها رذاذ البحر المالح وذكرته أن حوارهما يومها كان متعلقا بفتح مصر، لهذا تذكرت ذلك

اليوم الآن. يومها سألته عن رأيه في الحملة العربية على مصر، أهي فتح أم غزو أم احتلال؟ فأجاب بأنها الثلاثة معا، كانت فتحا في نظر العرب المسلمين، لأن تبعية مصر لهم كانت نقلة نوعية للدولة الناشئة، وكانت غزوا بربريا في نظر الرومان الذين رأوا بدو الصحراء ينتقصون أطراف الإمبراطورية المقدسة، وكانت احتلالا في نظر الأقباط اللذين انتقلت بلادهم من محتل لمحتل. في ذلك اليوم وبسبب تلك الإجابة شعرت بأنه باحث حقيقي، ففكرتها عن الباحثين المسلمين من العرب والباكستان تحديدا أنهم يدرسون التاريخ لخدمة مضمون محدد سلفا، يريدون التدليل عليه ولو بلي عنق الحقيقة التاريخية.

أشعل سيجارته بصعوبة بسبب الريح ثم قال أنهم يخدمون صورة الدولة الإسلامية التقليدية، والتي يريدون تصويرها كدولة ملائكية لترغيب الناس في دولة يقودها عناصر الإسلام السياسي، والحقيقة أن عظمة الإسلام تكمن في رؤيته العملية للإنسان وحضارته، وعظمة رسول الإسلام كانت كامنة في بشريته بغير قداسة، كما أن تأسيس الدولة كان ثانويا في الإسلام بعد تأسيس المجتمع المدني، هكذا قال قبل أن يطرق لحظة ثم يكمل معلقا وهو يلتفت إليها بنظرة ذات دلالة ليقول أن أيام الدراسة في يوركشاير كانت أجمل سنين العمر.

هربت هي من تلميحه لتعود لنقطة الحوار بقولها "كنت تريد أن تقول شيئا يتعلق بفتح مصر واغتيال مالك، احكِ يا شهريار".

"في زمن حقوق المرأة شهريار يحكي وشهرزاد تقطع رقبته لو ملت من قصته؟"

"بالضبط". هكذا ردت باسمة فأجابها بضحكة قصيرة ثم شرع يحدثها برؤيته للحدث، بداية من فتح مصر، فحين فتح عمرو بن العاص مصر وعين واليا عليها في خلافة عمر كان حاكما ذكيا، خلق حالة من التوازن والهدوء النسبي فيها. قطعا لم يكن العرب والقبط سمنا على عسل كما تصور كتب التراث الإسلامي، لكن الفتح كذلك لم يكن شديدُ البطش والدموية كما صوره التراث القبطي، كانت هناك مقاومة مصرية في بارامون[٥٠] وبهنسا والفيوم وإتريب ومنوف وسمنود ونقيوس[٥١]، وطبيعي أن عمرا واجه المقاومة بالقمع كأي فاتح[٥٢]، لكنه حاول من جهة أخرى استرضاء الأقباط، ومن ذلك أمره بتجديد قبر مرقص الرسول[٥٣]، وتجديد مقياس النيل لتحديد الضرائب، لهذا كانت الأوضاع محتملة بوجه عام، لكن دوام

---

[٥٠] صحفها العرب فقالوا الفرما، وهي السويس حاليا

[٥١] ما يعرف اليوم بزاوية رزين في المنوفية (٥٦)

[٥٢] (٥٧-١٠٣)

[٥٣] (٥٨)

الحال من المحال. فقد بدأ التغيير في أواخر عهد عمر بن الخطاب، إذ رأى الخليفة أن خراج مصر أقل مما يجب، فولى **عبد الله بن أبي سرح** على خراج مصر الوسطى والعليا، ثم اغتيل عمر وتولى **عثمان** الخلافة، فطلب منه عمرو عزل عبد الله عن الصعيد، لأن إرهاقه للمصريين في جباية الخراج وقسوة معاملته لهم قد يؤديان لثورتهم، لكن الخليفة الذي كان عبد الله أخوه في الرضاع[٥٤] ولاه جباية الأموال وقيادة الجيش في مصر كلها بدلا من عزله، وقصر دور عمرو على إمامة الصلاة، ثم عزله منها تماما[٥٥]، فذاقت مصر ويلات ابن أبي سرح من جباية متعسفة لإهانات لا تنقطع، فقد كانت جباية عمرو في حدود مليوني درهم، وجباية عبد الله أربعة ملايين، وحين قال عثمان لعمرو "إن اللقاح بمصر قد درت بعدك ألبانها؟" أجابه عمرو "ذاك لأنكم أعجفتم أولادها"[٥٦]، تلك القسوة في الجباية فضلا عن انشغاله بفتوح شمال أفريقيا التي وهبه الخليفة كل أسلابها طعمة له لو فتحها، أدت لتدهور أوضاع مصر وقتها، وحين اشتكى وفد مصر للخليفة في موسم الحج، عاقبهم ابن أبي سرح بتعليقهم على المقرعة حين عادوا، وضربهم حتى الموت[٥٧].

---

[٥٤] (١٠٢-٦٤)

[٥٥] (١٠٢-٥٧)

[٥٦] (٧١-٦٤)

[٥٧] (٦١-٦٠-٥٩)

سألته لو كان ابن أبي السرح هو ذاته من كان كاتبا للوحي وارتد، فأجاب بأنه يعتقد أن الرجل كان طابورا خامسا لقريش، إذ أسلم وطلب الانضمام لكتاب الوحي، ولبث برهة ثم فر إلى مكة، وهناك ادعى أنه شارك الرسول في صياغة بعض الآيات مشككا في إلهية القرآن[٥٨]، وهنا قاطعته قائلة "أنت تراه طابورا خامسا لأنك مسلم، أما أنا فلا أستطيع أن أنفي احتمال صدقه في دعواه تلك". لم تكن أول مرة يتعامل فيها مع المنطق المادي الجدلي، فرد علي بهدوء يفترض جدلا أنه ليس مسلما ويتعامل مع الرواية منطقيا، فهل من المعقول أن يشرك صاحب دعوة أي شخص آخر، كائنا من كان، في صياغة آيات يفترض إنها منزلة من الله؟ فالمنطق يرفض رواية الرجل وليس الإيمان وحسب، وعلى كل حال فالغريب هو أن يصبح ابن أبي سرح واليا بعد هذا، بينما استمراره على وجه الأرض بعد فتح مكة كان بشفاعة عثمان، ليعفو عنه النبي بعد أن أمر بقتله ولو تعلق بأستار الكعبة[٥٩].

قص عليها كيف أدت قسوة ابن أبي السرح في الجباية لسخط أقباط الإسكندرية، فراسلوا قيصر بيزنطة يستنجدونه

---

[٥٨] (٥-١٢-٦٠)

[٥٩] (١٢-٢٢-٩٢)

باسم المسيح، ويتعهدون بمساعدة قواته لو غزا الإسكندرية عن طريق البحر، فأرسل **قيصر** لهم جيشا بقيادة **إيمانويل الخصي**، واحتل الإسكندرية بمساعدتهم، وبلغ النبأ الخليفة عثمان فجرد جيشا بقيادة عمرو بن العاص لمواجهة التحرك العسكري البيزنطي، ونجح عمرو في طرد الروم، وزاد الجباية على المصريين في الثغر تأديبا لهم، ومع ذلك استمر ابن أبي سرح واليا بعد هذه الأزمة التي تسبب فيها[٦٠].

هكذا بدأ النقاش يأخذها كالعادة باتجاه الفتنة الكبرى، وكيف كتب الخليفة أمراً بعزل ابن أبي سرح وولى **محمد بن أبي بكر** مكانه، فحالت دون ذلك خدعة مروان الشهيرة[٦١]. فحين أمر الخليفة صاحب ديوانه وحامل خاتمه **مروان بن الحكم** بتحرير أمر بعزل ابن أبي سرح عن مصر و تولية ابن أبي بكر، وتسليم الأمر مختوما لأهل مصر الثائرين، فعل مروان، لكنه حرر خطابا ثانيا لعقبة بن عامر نائب والي مصر، يأمره بقتل من يحملون الخطاب الأول حين يصلون إليه، وأرسله مع غلام ارتاب فيه الثوار وهو يسير بمحاذاتهم في طريق العودة،

---

[٦٠] (١٨-٥٧-٦٤-١٠٢)

[٦١] أمر الخليفة صاحب ديوانه وحامل خاتمه مروان بن الحكم بتحرير أمر بعزل بن أبي سرح عن مصر و تولية محمد بن أبي بكر، وتسليم الأمر مختوما لأهل مصر من الثائرين، غلام مروان، أرسله لعقبة بن عامر نائب والي مصر بخطاب، فتحوا الخطاب فوجدوه أمرا بقتل زعمائهم، مختوم بخاتم الخليفة، فعادوا للخليفة بالخطاب، فقال لهم أنه لا يعرف عنه شيئا و لم يأمر به، فطلبوا منه أن يخلي بينهم وبين مروان بن الحكم فرفض (٨-١٨-١٩)

فقبضوا عليه وفتحوا الخطاب فوجدوه أمرا بقتلهم مختوما بخاتم الخليفة، عادوا للخليفة بالخطاب فقال لهم أنه لم يأمر به، فطلبوا منه أن يخلي بينهم وبين مروان بن الحكم صاحب ديوانه وزوج ابنته فرفض، وهكذا استمر ثوار مصر في حصار الخليفة في بيته. أما في مصر فقد استغل محمد بن أبي حذيفة ظرف الثورة فأخذ البيعة لنفسه، فكان من أهل خربتا[٦٢] الموالين لمعاوية أن خرجوا عليه وعزلوه ثم قتلوه، وظلت الولاية شاغرة حتى تولى الخلافة علي بن أبي طالب فأرسل **قيس بن سعد بن عبادة**[٦٣] واليا عليها من قبله، وكان واليا فذا، جمع بين الأمانة والقدرة، ولم يكن في رأي أهل زمانه يفتقد أيا من مقومات الإمارة غير اللحية، فقد كان أمرداً.

"مشكلة كبيرة حقا". هكذا علقت ماري ممازحة، فأجابها بأن اللحية عند العرب كانت ضرورة من ضرورات الوجاهة والمهابة، فكان قوم قيس من الأنصار يقولون "لو استطعنا أن نشتري لقيس لحية بأموالنا لفعلنا"[٦٤]، ثم استأنف يحكي كيف استقرت مصر تحت حكم قيس، بعد أن صالح أهل خربتا الموالين لمعاوية على أن يعطيهم نصيبهم من الفيء مقابل ألا

---

[٦٢] تعرف اليوم بنفس الاسم في كوم حمادة، البحيرة (٦٠)

[٦٣] (١٠٢)

[٦٤] (١٠٢)

يخرجوا عليه، فالتزموا بذلك، لولا أن معاوية دبر حيلة لإيهام علي بأن ولاء قيس للأمويين، إذ قال لأهل الشام "لا تسبوا قيساً فإنه لنا شيعة، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم بخربتا؟ يجري عليهم أعطياتهم ويحسن إلى كل راكب يأتيه منهم". وأبلغ **عبدالله بن جعفر** علياً بقول خصمه هذا، فأرسل لقيس بقتال أهل خربتا، فرد عليه قيس بأنهم وجوه أهل مصر وأسود العرب؛ فمنهم بسر بن أرطاة، ومسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج، أصر علي و رفض قيس وكتب للإمام قائلاً "إن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري"[٦٥]. سألته ماري عن تلك الأسماء العربية التي ترد دوما في المراجع على أنهم أهل مصر، وكيف يتفق هذا مع كون أهل مصر من الأقباط، فأومأ برأسه وهو يبتسم لمفارقة تاريخية وقال "لكن أهل مصر هؤلاء ليسوا مصريين". ثم بين لها أن من تعبر عنهم كتب التراث الإسلامي والمخطوطات بكلمة أهل الأمصار عموما، أي أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة إلى آخره، هم قبائل وأفراد من العرب استوطنوا هذه الأقاليم بعد الفتح، ومن قصدهم قيس بن سعد تحديدا بوجوه أهل مصر كانوا قبائلا يمنية في مجملها، مع بعض أفراد من قريش وغفار وثقيف وعبس ممن سكن إقليم البحيرة،

---

[٦٥] (١٠٢)

والذي يتميز حتى اليوم بأصوله السكانية العربية، وخربتا كانت عاصمة إقليم البحيرة في ذلك الزمان، والشاهد هنا أن أهل مصر لم يكونوا عنصرا فاعلا في الصورة السياسية وفي الصراع الدائر فوق أرضهم منذ ذلك الزمان البعيد.

استدارا عائدين للمقهى الذي بدا ضوؤه بعيدا بينما علي يسألها لو كانت زارت قبر مالك الأشتر في المرج من قبل فأجابت بأنها فكرت في ذلك أكثر من مرة، وكذلك في زيارة ضريح عقبة بن عامر لكنها لم تفعل، فوعدها بزيارتهما معا وزيارة قبر محمد بن أبي بكر في ميت دمسيس بالمنصورة، فحكايته هو الآخر كانت كحكايات أبطال اليونان، تراجيديا كاملة، فقد كان ابن الصديق رجلا تقيا وصاحب مروءة، لكنه لم يكن رجل دولة، وقد ولاه عليا على مصر بعد اغتيال مالك فثار عليه أهل خربتا ومهدوا الطريق لجيش الشام ليغزو مصر وعلى رأسه عمرو بن العاص، فاستولى الأمويون على مصر، وقبضوا على واليها محمد بن أبي بكر فقتلوه ومثلوا به مثلة فظيعة، إذ شقوا بطن حمار ميت وأفرغوها من الأحشاء، ثم وضعوا جثمانه فيها وأحرقوا الجثتين معا[٦٦]، ومن حينها

---

[٦٦] (٦٠-١٢٩)

صارت مصر درة التاج الأموي، فجرى عليها ما جرى على كل الأمصار، إذ أجهض الأمويون التجربة الاقتصادية الإسلامية القائمة على الكفاية والعدل، وقاموا بثورة مضادة لثورة الإسلام الاجتماعية فكونوا مجتمعا طبقيا عنصريا، عومل فيه الفقراء معاملة الجاهلية الأولى، وعد فيه غير العربي مواطنا من الدرجة الثالثة في وطنه.

التفت علي نحوها فراعته دموع في عينيها، توقف عن السير وأوقفها ليسألها، فأجابته "أتمنى أن تثق بحقيقة واحدة، وأن تحسها كما أحسها بداخلي تماما، تمنيت كثيرا لو لم أعدها بهذا الوعد السخيف وهي على فراش موتها". اختلج جفناه برعشة لا إرادية وهو ينظر لها فتكاد روحه تنبعث شعاعا لترسو على وجنتيها، قالت وهي تمد يدها لتمس كتفه "لا أصغي إليك وأنت تحدثني عن التاريخ لفضول مهني أو ثقافي، ولكن لسبب عاطفي، إيمانك بقضاياك وآرائك يخلق حولك تيارا رائعا من الحماس في زمن بلا حماس، فأشعر وكأني أمام أحد عظماء التاريخ، جان بول مارا، كرومويل، أو جيفارا، لهذا تمنيت في كثير من اللحظات لو كان بإمكاني أن أبقى بجوارك طول الوقت".

أجاب وهو يجد صعوبة في خروج الكلمات من حلق قبضه

التأثر وإن اصطنع الابتسام "ليتني يوم في عمر واحد منهم يا صديقي، هؤلاء رجال صنعوا التاريخ، أما أنا فأدرسه وأحكيه فقط".

"بل تحييه ثانية لترشف من عبره يا صديقي".

أكملا طريق العودة نحو الربوة صامتين، كان يحاول أن يستوعب الكلمات التي قالتها منذ لحظات، كلمات حانية وإن أثقلتها الحسرة على عذابهما معا، كان يواسي نفسه مسترجعا قول القائل "ليس مهما أن تحب، المهم هو أن يحبك من تحب" .. وهو يحبها ويعلم أنها تحبه، فلتذهب الدنيا بعد هذا بهما حيث أرادت. كانت مثله تفكر فيما قالته تواً، فتستشعر خطراً، بدأ تعبيرها عن مشاعرها يعود لمعدله الذي كان عليه في يوركشاير قبل أن يتبين لهما أن الطرق لن تتقابل، ربما لأنها تعلم أنه يحتاج أن يسمع هذه الكلمات تماما كما تحتاج هي أن تقولها، فبرغم محاولته الدائمة للحفاظ على توازنه النفسي، إلا أنه في حقيقته رجل يئن تحت جبل من الأحزان، فهمومنا تنتكس أحزانا عندما نعجز عن تحقيق أي تحسن فيها، وهو مهموم بقضايا وطنه، تتراكم عليه الأحزان وهو يرى عالمه الخاص الذي ولد ونشأ فيه وأحبه ينحدر نحو الهاوية، فعالمه هو الطبقة الوسطى المصرية، تلك التي ينتمي إليها بكل ذرة في

كيانه، ويخنقه شعوره بحجم الجهل والفساد اللذان يحيطان بمصيرها، ويفوقان قدرته على المواجهة، لهذا كانت حاجته للحب مضاعفة، وهي تعلم أنها وعزة وحدهما مصدر الحب والحنان في حياته، فإذا كان الوعد السخيف يمنعها من منحه كل شيء، فليس أقل من كلمات يعرف بها أن قلبا في فضاء هذا الكون ينبض مع قلبه.

(٩)
النهروان أولاً

أنصت جراح القلب الشهير لمحدثه على الطرف الآخر من الهاتف وهو يقول "لا يوجد حد لترقه وتجديفه". أجاب محدثه متأففا فقال "وما دخلي أنا؟ هو أخو طليقتي وحسب، أي نسب هذا الذي يطفح علي صديده كل حين كالخرّاج!

"يستعدي علينا الدولة ويسمينا خوارج العصر".

"ليس أول ولا آخر من هاجم، كم دقت على الرأس طبول يا شيخ **يزيد**".

"لو تركنا الطبول تدق كيف تشاء، سيأتي يوم تعلو فيه على صوت الدعوة، ولو مر كل غثاء كهذا مر الكرام فسنرجع لظلمات الستينات والعلمانية الناصرية لا أرجعها الله".

"وإذا؟". هكذا سأله زياد فتقهقر صوت يزيد ليقول في وداعة وتوازن مصطنعين (كمن تدرب على هذا التلون لسنوات) أن الجماعة ملتزمة بمنهجها السلمي والحضاري، فليس أمامهم غير الرفض بصورة شرعية، ولما أجابه زياد بأن هذا أمر انتهى أوانه مع تعديل قانون الحسبة، والذي قصر حق تحريك الدعوة على النائب العام فقط، وأن صاحبهم كذلك لم

ينكر معلوما من الدين بالضرورة لتقام عليه حسبة من الأساس، رد الشيخ يزيد (كما يسمونه داخل الجماعة) بأن أول الغيث قطرة، فعليهم ابتداء أن يتقدموا بطلب إحاطة لوزير الثقافة حول كتابه **النهروان أولا** الذي يسيء للدين ويعكر الصفو العام، فلو قدمه الدكتور زياد تحديدا سيكون الموضوع جاذبا للإعلام بسبب خلفية التصاهر القديمة بين مقدم الطلب والمشكو بحقه، نائب يواجه نسيبه السابق انتصارا لحدود الله، عنوان جذاب ويصنع صدى جيدا لزياد وللجماعة في رأي يزيد.

لم ترق الفكرة لزياد لأول وهلة، فقال .وهو يهرش أذنه اليسرى كعادته حين يفكر أن الأمر قد يفسر على العكس بأنه تصفية حسابات شخصية، يجيبه يزيد بأن هذا سيضاعف اهتمام الصحف والإعلام، وهذا عين المرام. صمت النائب البرلماني المحسوب على الجماعة وزوج أخت علي الإمام سابقا لحظة ثم سأله "ألديهم فكرة عما تطلبه مني؟"

كان يعني قيادات الجماعة في المجلس القبلي الأعلى الذي يقودها، فرد عليه الشيخ بأنه قطعا لن يبادر بطلب كهذا من تلقاء نفسه، وأخبره أن أحد الإخوة سيأتيه اليوم بمسودة بمجموعة نقاط يجب شمولها في طلب الإحاطة وسيمده كذلك بنسخة من الكتاب محل الطلب، وعلى النائب المحترم أن يصيغ

الطلب بأسلوبه الحماسي المعروف.

زياد يعرف تماما دور الشيخ يزيد، فهو قيادي على مستوى محافظة الجيزة، فضلا عن دوره في التنسيق بين أعضاء المجلس من منسوبي الجماعة من جانب والمجلس الأعلى من جانب آخر، لهذا لم يتعب نفسه بالاعتراض كثيرا. كان هذا ماثلا في ذهنه وهو يرد موافقا على تقديم طلب الإحاطة مع تحفظه على إسناد المهمة له بسبب علاقة سابقة بالكاتب، مدعيا أنه يكره عليا وأخته كراهة التحريم حتى أنه زهد بعدها في الزواج، ولا يريد شيئا يذكره بهما. كانت عبارة "بغضوا إلي الحلال" تلك حجته الدائمة لعدم الزواج بعد أن طلق عزة الإمام، وكان يحرص على تكرارها كلما سنحت فرصة. أجابه يزيد قائلاً "تحفظك مقبول، فتوكل على الله وارفع رأسنا، لو احتجت لأي شيء هاتفني على محمولي الشخصي، سأكون في مارينا غدا وبعد غد وربما أغلقت محمول العمل"

"عروس جديدة؟"

"ليت الشباب، سنوات المعتقل والتعذيب في شبابنا أوهنت عظامنا قبل الأوان، همتكم يا أهل الطب لتبتكروا لنا الجديد، فلا أزرق ولا أصفر صار يجدي معنا" هكذا قال يزيد ضاحكا، فهو كمعظم أفراد جماعته يعشق الحديث عن اعتقاله وتعذيبه

بمناسبة وبغير مناسبة، فقد كان ذلك من ضمن مسوغات التقدم داخل صفوف الفصيل السياسي المحظور. ضحك زياد ضحكة لها من صوت أكثر مما بها من مسرة، ثم أغلق الخط بعد كلمات الوداع وألقى الموبايل على الأريكة الأمريكية قبل أن يلقي بنفسه عليها في سأم.

يزيد من المقربين وحملة الخطوط الساخنة مع أعلى سلطات جماعته، فلا مفر. هكذا فكر وهو يمشط بأصابعه لحيته المهذبة أسفل شارب حليق، ويمدد ساقيه على منضدة معدنية بمنتصف غرفة الكشف بعيادته الخاصة بالمهندسين، لا ريب أن المهمة ثقيلة جداً على قلبه. ولكن لماذا؟ شرود زياد وملامحه التي تكدرت وعضلات وجهه المتقلصة تنم عن معاناة داخلية كبيرة، لم كل هذه المعاناة من مهمة برلمانية عادية؟ على الأقل لمن كان مثله.

يقطع شروده رنين الهاتف الداخلي فوق مكتبه، يرفع السماعة ويرد على سكرتيرته بضيق فيأتيه صوتها مترددا حين أحست ضيقه. تسأله لو أراد أن تسمح للمرضى بالدخول، سألها لو كان هناك أحد من ذوي الحيثيات الخاصة من الساسة والقطط السمان من زبائن عيادته، ولما أجابت بالنفي طلب منها أن تعطه نصف ساعة من الراحة وتأمر بإعداد قهوته.

وضع السماعة في عنف ملحوظ ومد يده لدرج مكتبه فأخرج علبة خشبية. سحب منها سيجاراً ضخماً، تحسس السيجار بينما تجمعت قطرات العرق على جبينه برغم التكييف المركزي في عيادته الفارهة، شردت عيناه المعلقتان بالشكل القضيبي للسيجار الضخم بين يديه فبدا كالغارق في ذكرياته.

كان هذا منذ سنين، يوم اقتحمت عزة حجرة نومهما إثر عودتهما من زيارة أسرتها، كان المفروض أن تقضي الليل هناك لتعد لأخيها المدلل بعض الوجبات سهلة التجهيز في ثلاجته، لهذا سول له شيطانه أن يتصل بسكرتيره الخاص ويطلب منه لقاءً عاجلاً، هناك في حجرتهما وعلى فراش الزوجية نام مع وليد، فتى قوي في الثمانية وعشرين كان حريصاً على إرضاء نزواته الفاجرة، وليد نفسه لم يكن شاذاً، بل إن زياد يوقن أنه يفضل النساء وكانت له علاقات بالعديد منهن، لكنه ذكي ويعرف كيف يسلك طرقا مختصرة للثراء والسلطة، فهو يحصل شهريا على ثروة صغيرة لا يستهان بها من عمله معه، فضلا عن العلاقات التي يكتسبها لقربه منه، والخدمات التي يعرف متى وكيف يطلبها فتجاب، ومن جهة زياد كان شباب وليد يرضي شبقه الشاذ تماما، وكانت لحظاته معه لحظات سعادة يختلسها، فيمارس جنونه الذي يعتبره حقاً له، ثم يعود ليلعب دور الرجل

السوي ورب الأسرة المتزوج أمام الناس، وأمام زوجته، زوجته التي كانت، ففي لحظة دخولها من باب الحجرة كانا في ذروة الجنون، عاريين حتى من الظلال، ونجفة السقف والأباجورات كلها مضاءة! كأنهما حرصا على أن يكون المشهد صادما لها حتى الموت.

"أف لهذا المجتمع السخيف الذي يربط تحقيق ذات الرجل بذكورته، فلولاه ما تزوج منها ولا مر بهذه التجربة المهينة". هكذا فكر وهو ينفث الدخان قوي الرائحة.

في ذاك اليوم، سقطت حقيبتها من يدها وهي تلطم خديها لطمتين، قبل أن توليهما ظهرها، فتعدو في الطرقة الممتدة أمام غرفة النوم وهي تترنح، ثم تتهالك وهي تلج الحجرة الصغيرة، الحجرة التي كان يفترض أنها للأولاد، أولاد لم ينجبهم أبداً، اندفع من الفراش عاريا وجرى خلفها وهو يلف محرما حول وسطه، وحين دخل الحجرة الصغيرة على صوت نحيبها كانت تضرب حائط الحجرة برأسها في عنف مجنون، كمن تريد أن تقتل نفسها، أو على الأقل تتخلص من وعيها، وكانت الدماء قد بدأت تتفجر بالفعل من جبهتها فتلطخ طرحتها الصفراء وأعلى وجهها، كانت تلطم رأسها في الجدار الصلد وهي تعض بأسنانها على إبهامها، وحين حاول الاقتراب منها صرخت

بوجهه بكلمات غير مفهومة، وأبعدته بيدها في قوة وعنف لم يعهدهما بها من قبل، ميز من كلامها لفظة "وسخ" أو هكذا هيأ له، حاول أن يقول لها أن تكف عن الصياح وإثارة فضيحة يخسر فيها الجميع دون جدوى، لم تكن في حالة تسمح لها أن تسمع أو تعقل، في تلك اللحظة مر وليد خلف ظهره هاربا يلملم ملابسه، لمح زياد خياله على الحائط الذي ترتطم به رأسها! وما هي إلا ثوان معدودة حتى سقطت على الأرض فاقدة للنطق، بينما عضلات وجهها تتشنج كمن أصابها صرع.

قامت من انهيارها العصبي بعد ثلاثة أسابيع في مستشفى نفسي متخصص، لم تنقطع خلال هذه الأسابيع تحقيقات علي معه كل يوم عن سبب حالتها، وحين عادت من المستشفى لبيت أبيها زارها وحاول أن يتحدث، أن يشرح ويبرر، كان أكثر ما يؤلمه وقتها أنها تنظر إليه بتقزز شديد، حاول أن يشرح أنه هكذا خلق وأن هذا ليس ذنبه، ردت كقنبلة تفجرت في وجهه بعد طول صمت، قالت في صوت أشبه بصراخ مكتوم أو أنين مرتفع إنها لا تحاسبه على شذوذه، فهذا شأنه، وإنما تسأله عن أمر واحد يخصها هي وحدها، لماذا تزوجها؟ ألمجرد أن تكون ستارا يحجب حقيقته عن الناس؟ حاول أن يجد إجابة سائغة لا تجعله مذنبا فقال إنه كان يأمل في تغير ميوله مع

ممارسة علاقة طبيعية. هو طبيب وهي كذلك، لهذا يعرف أن ما يقوله مجرد سخف فارغ، وهذا ما قالته له قبل أن تضيف أنها تفهم تماما لماذا احتاجها حين تحول للتيار الذي ينتمي إليه الآن، كإتمام لصورته الجديدة، تماما كما كانت قصائد الغزل أيام الجامعة تكمل صورة المثقف اليساري وحياته الزاخرة بمغامرات عاطفية، فحين قفز لمعسكر الإخوة لم تعد صورة المغامر صالحة، فكان لابد من الزواج ليتم الشكل المقبول اجتماعيا.

أطرق مقطبا حاجبيه بينما تعتمل في صدره مشاعر غاية في التعقيد، هناك جزء عميق في نفسه يعرف أنها على حق تماما، لكنه استطاع أن يروض هذا الجزء في ذاته منذ زمن بعيد، تماما كما روض عقله على تبرير كل شيء وأي شيء يريد، استأنفت وقد وضعت يدها فوق صدرها لتتغلب على شعورها بخفقان ورغبة في القيء فسألته لو كان يتذكر خطبته العصماء أيام مؤتمر السكان حين طرح موضوع الشذوذ إعلاميا؟ وكلماته الرنانة فيها عن شيوع البلوى وزمن التبجح بالانحراف؟ كان يكررها في كل مناسبة وتعبيرات الاشمئزاز ترتسم على وجهه زورا. أيمكن لبشر أن يصل لهذه الدرجة من الزيف؟ هكذا سألته مستفزة ليجيبها بعصبية ظاهرة بينما نظرته

مازالت مصوبة نحو قدميه "وماذا كان علي أن أفعل؟ أخسر كل شيء بسبب صدفة جينية لا ذنب لي فيها؟ ليس ذنبي أن تكويني الجيني خلق عندي استعدادا وأكملت ظروفي الحلقة فصرت هكذا، هل أواجه مجتمعا متخلفا بأمر لن يقبله أبدا؟"

أجابته بأن المجتمع ليس له ذنب، فقد عاش فيه من هم مثله دائما، ربما بغير ترحيب كأوروبا، لكنهم عاشوا دون أن يرجمهم أحد أو يصفق لهم أحد، وضربت له مثلا بأحد أساتذة الكلية والذي كان معروفا بشذوذه دون تصريح، لم يقتله أحد، لكنه لم يصبح نجم مجتمع ولا يمكن أن يختار عميدا ولا رئيسا لجامعة ولا عضوا في البرلمان، خاصة لو كان عضوا منسوبا لجماعة تدعي لنفسها حماية الفضيلة والدين، لم يخش على مستقبله كما يدعي ولكن على طموحه الجموح، فكان اختياره لزوجة منسَّبة مدعما لوضعه في التيار الذي انضم إليه بعد أن صار رائجا ورابحا.

انقلب توسله لشيء من التنمر حين ذكرت الطموح والبرلمان، فرفع بصره من الأرض لينظر اليها وأمسك معصمها بشيء من العنف. قال بصوت كالفحيح "طموحي من حقي، ونجاحي من حقي، وصلت لكل هذا بكدي، وليس من حق كائن من كان أن يقف بطريقي".

"وما ذنبي أنا؟"

"كنت زوجة سعيدة، لو لم يحدث ذلك الموقف لكان من الممكن .."

"أن أعيش مغفلة للأبد؟ لا يا سيدي، أنت واهم، تتخيل لفرط أنانيتك أن الناس جميعا يصدقون الممثل البارع المتقن لدوره، لكنك واهم جدا".

تراخت يده واستدار ليعطها ظهره وهو يرتكز على ضلفة دولاب الفضيات المفتوحة بذراعه حتى لا ترى أمارات القلق التي تعتري وجهه، سألها عما تقصده فأجابت بأنها كانت تشعر طول الوقت، ربما لم تتمكن من مواجهة نفسها وربما كانت تخشى أن تظلمه بظنونها، لكنها كانت تشعر بشيء ما، لا تكاد تطرده من رأسها حتى يعود ينخر فيها كالسوس في العظام. قبل الزواج كان مجرد إحساس بشيء غريب بينها وبينه، كانت الألفة بينهما أقرب لعلاقة الصديقات بعضهن ببعض، وراحتها في الحديث إليه، والتي كنت تسميها حبا، كانت تفتقر للرغبة الممزوجة بالحذر الأنثوي الطبيعي تجاه رجل، وبعد الزواج صدمتها رغباته الشاذة التي كان يدعي أنها عادية جدا، وأن هذا حال كل الرجال، لأنه واثق أن لم يكن لها علاقة حميمة برجل قبله، فتخيل أنها من أهل المريخ و أنها تصدق أن لكل الرجال ميول مقززة كميوله.

أفرغت كلماتها كحمل ثقيل ثم انهارت على مقعد الصالون وقد غالبتها رغبة في القيء حين تذكرت شذوذ علاقته معها

منذ اليوم الأول، بكت وهي تتذكر هذه اللحظات وحاولت طردها من رأسها، ثم وضعت يدها على فمها لتقاوم رغبتها في إفراغ معدتها الخاوية إلا من الماء، لكنها كانت برغم كل هذا منتشية بعد طول قهر. فهل أسعدها ضعفه في هذه اللحظة؟ هل أعاد إليها بعضا من كرامتها السليبة؟ ربما شعرت بذلك أكثر حين أتاها صوته خفيضا مرتعشا "كفى، لا داعي للتجريح".

لم تقلل نبرته الكسيرة من حدتها، كان الصديد بداخلها أكبر من أن تطهره مسحة ماء، فاندفعت تقول "أنا من تقول كفى، الإنسانة التي خسرت عمرها هي من تقول كفى، المرأة التي جرحتها عيناك المعلقتان بالرحال وهي بجوارك هي من تقول كفى، الزوجة التي ضحت بالأمومة حين علمت بعقمك هي من تقول كفى، المغفلة التي لوثت فراشها باللواط هي من تقول كفى. وهأنذا أقولها لك، كفى، طلقني الآن وارحل للأبد".

صحا المفاوض داخله في لحظة حين سمع لفظ الطلاق، كان معدا ومهيأ لهذا منذ اللحظة الأولى، بل إنه كان ينتظر هذه الكلمة ليملي شروطه، فعليه أن يضمن ألا يؤثر هذا الحدث الغبي سلباً على حياته ومستقبله، أجابها موحيا بالموافقة ولكن بشروط أسماها طلبات، وقال أن طلباته تلك لا تضرها في

شيء، وإن كانت ستحميه هو من ضرر محتمل لمستقبله، هكذا قال بلهجة لا تخلو من تذلل، يعرف تماما كيف ومتى ومع من يستخدمها، ولما سألته عن طلباته تلك أجاب بأن عليهما أن يخبروا الجميع أن العقم هو سبب الطلاق، فلا يعرف مخلوق غير هذا حتى شقيقها. هنا علقت قائلة "لكنه يعرف بالفعل". صعق كمن مسه تيار كهربي قوي فانتفض من وقفته المرتخية، وفقد لهجة التذلل التي كان يصطنعها فقال بوقاحة "بهذه السرعة؟"

"يعرف منذ زمن بعيد، نصحني بالرفض بعد أول لقاء معك حين تقدمت لخطبتي، وليتني سمعت له". هدأ قليلا حين فهم أنها تتحدث عن مجرد شعور، علق بسخرية سائلا إياها متى كشف عن أخيها الحجاب فصار يعلم الغيب، أجابته بأنه رجل بلا زيف، عيناه صافيتان لم يغش عليهما الجشع وجري الوحوش بغشاوة الغباء، لم يركع لسلطة أو يلهث خلف مال، فظل نقيا، لهذا يرى بقلبه. لطالما كرهها وهي تتحدث عن أخيها بهذه الطريقة، قاطعها قائلا "وماذا قال قُدِّسَ سرُّه؟" لتجيبه بأن عليا رأى في عينيه يوم تقدم لها كذبة كبرى يعيش فيها وتعيش فيه، رأى رجلا بغير ثوابت غير الوصول لما يريد وبأي ثمن.

"لكن هذا لا يعني أنه يعرف"

هكذا علق زياد فاستمرت في حديثها كأنها لم تسمعه، كان

علي يحاول أن يطمئن عليها بعد أن تأخر الإنجاب، كان يسألها على استحياء أسئلة لا تفهم ما وراءها، لكنها حين تذكرها اليوم تكاد تجن، فكأنه كان يعرف كل شيء، وحين عادها في المستشفى نظرت في عينيه وبكت بكاء مريرا من القهر والصدمة، فنظر في عينيها ودمعة عاصية تلمع بعينيه، ثم همس في أذنها قائلا "لا تخافي يا صغيرتي، خطأ لابد من تصحيحه وفورا".

قاطعها "زياد" وفي عينيه جرأة من يمكنه أن يقتل ليصل لهدفه فطلب منها أن تدعه لشكوكه ولا تحولها إلى يقين، كان يشعر بألم عندما يتخيلها تقص لعلي مشهده مع وليد، كان يتخيل علي وهو واقف بباب غرفة النوم مكانها، تقتحم نظراته عريهما في ذاك الوضع، تلتصق نظرات الاشمئزاز بجلده فتكويه كيا. استجمع عقله وطرد تلك الخيالات حتى يستطيع أن ينهي الموقف كما يريد، فليس هذا وقت جلد الذات. استأنف قائلاً "الطلب الأهم، الطلاق مستحيل الآن، ليس قبل الانتخابات وبداية الدورة البرلمانية القادمة". بدت على وجهها علامات استنكار وهي تقول "بعد الانتخابات؟ معنى هذا .."

"معناه ستة عشر شهراً"

بهذه الكلمات فاجأهما صوت علي من ناحية باب غرفة المعيشة التي جلسا بها، التفتت عزة تجاهه، وكأنها رأت ملاك

رحمة بينما هي مغروسة بقاع الجحيم، أما زياد فرمقه بعينين تفيضان كراهية، لطالما كره كل شيء في علي كرهه للموت، كان يشعر بصدره ضيقا لمجرد وجوده، ومواجهته الآن في موقفه هذا تجعله أكثر كراهية له من أي وقت سبق. "علي المتصنع الجبان الذي يدعي أنه لا يحب المال لأنه عاجز عن تحقيقه، ويدعي الزهد في المناصب لأن همته لا تبلغها". بهذا الحقد الأسود كان زياد يحدث نفسه وهو يرمقه يخطو داخل الغرفة، بينما تجنب علي النظر إليه، أتاه صوته غير خالٍ من التوتر قائلا "الطلاق سيتم صباح الغد".

"ومن سيجبرني، أنت؟". هكذا طغى كرهه لعلي على حرصه على إدارة الموقف لصالحه فأفلتت منه طريقته في التفاوض وأصبح مستفزا. التفت علي نحوه قائلا بحدة من يكظم داخله بركانا "بجوفي نار تشويك لو أطلقتها، أمامك سواد الليل وتطلقها في الصباح، لن تعيش أختي على ذمة مثلك يوما آخر، ليتها كانت على ذمة رجل".

شعر بلطمة إهانة ففقد دبلوماسيته تماما وهو يقول "فلترني كيف ستجبرني على طلاقها يا .. يا سيد الرجال". هكذا رد زياد ثم استدار يهم بالخروج. أمسك علي ذراعه بقوة ولفه إليه يواجهه، ثم رفع سبابته في وجهه بحدة، كان في عينيه وصوته غضب وكره لم ترهما أخته من قبل، قال وهو يقرع بسبابته ذقن زياد "لا تحسبن نفوذك الذي حققته في زمن شاذ مثلك يجديك شيئا، كشف طبي بسيط سنطالب به حين نرفع قضية

عاجلة في محكمة الأسرة، يكتب بعده الطبيب عبارة معروفة تقول: مستعمل من الخلف ويهوى كما تهوى النساء، بعدها ينهار مستقبلك السياسي للأبد". هم بالكلام ليسفه من تهديده رغم أنه أزعجه كثيرا، فعاجلته كلمات علي الذي قال وحدة غضبه تتصاعد "والأفضل لك أن تجدي المحكمة، فلو حدث العكس لن يكون لدي سوى حل واحد، هو قتلك".

لم يشعر زياد بساعي العيادة وهو يضع القهوة، فلم يرشف منها رشفة واحدة، فقط ذكرى تلك اللحظة هزته لدرجة الإفاقة، فقد استسلم بعد التهديد، مهما كانت قدرته على المراوغة فمجرد رفع قضية ومطالبة طليقته بتوقيع الكشف الطبي عليه كانت كفيلة بوضعه في مزبلة السياسة للأبد. لهذا تحديدا كان ضيقه من طلب الإحاطة المطلوب توجيهه لعلي، فهو آخر إنسان يحب مواجهته. كان هذا ما أزعجه، لكنه أخذ يطمأن نفسه بأن طلاقه منها يجعل من المستحيل على أي مخلوق أن يطلب توقيع مثل هذا الكشف عليه، وإذا حاول علي البغبغة بكلام مرسل سيكون من السهل إظهاره بمظهر موتور معاد للدين يحاول تشويه سمعة نائب شريف يدافع عن الدين. إذا لم يكن من المعركة بد فلتكن شرسة جداً، حتى لا يترك لغريمه فرصة للنجاة، هكذا فكر زياد، فلو كان شطر عقله يخاف من كشف المستور، فشطره الآخر يحب هذه المعركة، فهي فرصة

لا تعوض ليشوه هذا المغرور الذي يراه الجميع فوق البشر، هاهو الغبي يضع نفسه أمام أقوى فصيل سياسي في البلد، وهذا حال كل الكلمنجية البعيدين عن دوائر السلطة والقرار، لا يدركون أن تيار الإسلام السياسي اليوم صار كجبل الجليد، يبدو منه على السطح جماهيره المتعاطفة معه، وشبابه متنامي العدد في الجامعات والمحافل الثقافية والسياسية، لكنهم لا يعلمون شيئا عن حجم جبل الجليد الحقيقي، وعن مدى تجذره في دوائر صنع القرار في الداخل والخارج، وعن تشابك علاقاته ومصالحه المتبادلة مع سيدة العالم الحر، وأقوى دولة عرفها تاريخ البشر، لم يدرك الرومانسيون كما أدرك هو في الثمانينات أن جذور هذا التيار ترتبط بالعالم الجديد الذي يتم الآن رسم حدوده وتحديد قواعده بقوة المال وقوة السلاح، فقد حسمت أمريكا الحرب الباردة ضد السوفييت لصالحها من خلال الحلف الجهنمي بين اليمين الرأسمالي المتطرف واليمين الديني المتطرف مسيحيا كان أم إسلاميا، وعلى مستوى العالم كله، من أفريقيا لأفغانستان لأمريكا اللاتينية. لهذا صار تيار الإسلام السياسي اليوم أعتى من أن يقهر "ها أنت تواجه التنين بغرورك يا ابن الأشراف، فلنر همتك يا فارسا بلا سيف ولا جواد". هكذا فكر زياد وهو يبتسم بعد أن فتحت أفكاره شهيته للمعركة.

(١٠)

البحث عن فلك نوح

الشمس ساطعة في السماء، تلمع صورتها على صفحة الفرات كالذهب، وعلى ضفته تلاحمت بيوت من الآجر، نحن في مدينة من مدن العراق التي بنيت بعد الفتح، فقبله كانت المباني الحجرية هي الأكثر شيوعا على ضفاف الفرات، أرى منازلها تنتظم في قطائع متقاربة كأنها تتكئ على بعضها بعضاً، وتصنع في مجملها دائرة، هذه هيئة الكوفة في نهاية القرن السابع للميلاد، كوفة الجند، مركز الدعم اللوجيستي لجيش المشرق، فقبل الفتح الإسلامي لم تكن هذه الأرض مأهولة، حتى أراد قائد جيش المشرق **سعد بن أبي وقاص** أن يبني نقطة انطلاق وإمداد لجيوشه المغيرة على المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية، وتكون كذلك مثابة لهذه الجيوش إذا عادت للكر، حيث كان القادة يفضلون البعد بمعسكراتهم عن المدن المفتوحة حفاظا على انضباط الجنود، وحدا من المظالم وانتهاك الحرمات التي قد تحدث عرضا من راغبي الدنيا بين الجند، فعهد سعد لسلمان الفارسي باختيار موقعها وبنائها لتكون كوفة الجند، أي معسكرهم، فاختار **سلمان** هذه البقعة طيبة الهواء على ضفاف الفرات وخط مدينته.

بدأ فبني بها المسجد الجامع وداراً للأمير سعد، ثم دورا للجند في قطائع تتحلق حول المسجد، ها هي دار الإمارة هناك، يلتصق بها بيت المال من ناحية، ومن الناحية المقابلة لهدة من الأرض عليها بيت منتظم البنيان هو .. هو بيته! بيت علي بن أبي طالب حين سكن الكوفة، مازال قائما حتى اليوم كواحد من أهم المزارات الشيعية في العراق، ففيه قضى الإمام الثلاثة أيام الأخيرة من حياته جريح الهامة كليم الفؤاد، وفيه غسل جثمانه الطاهر وجهز للدفن، ويح قلبي يا ابن عم رسول الله! في المدينة المنورة علي، وهنا في العراق علي، فإلى أين ستأخذني في المرة القادمة يا أمير المؤمنين؟

ها هو مسجد الكوفة يبدو صغيرا بسيط البنيان، فنحن في نقطة زمنية في القرن السابع الميلادي قبل توسعته، كم شهدت يا مسجد الكوفة من الأحداث؟ وكم عرفت من عظام الرجال؟ ومن صغارهم أيضاً؟ أسير حتى أبلغه فأقف بالباب، أرى المنبر الذي خطب فوقه أمير المؤمنين يوما أمامي على خط مستقيم، هذا هو الباب الشمالي للمسجد إذن؟ باب الثعبان؟ حيث تقول الأسطورة الرائجة أن عفريتا من الجن المسلم دخل منه ليسأل علياً في أمر من أمور الفقه، فدخل في هيئة ثعبان حجمه كالفيل[٦٧]، كم يعشق المهمشون حشيشة الأحلام التي يلوكونها صباح مساء؟ الأساطير تسعدهم وتربت على عقولهم

---

[٦٧] (٦٤-٦٩)

النائمة في حنان بالغ، لهذا يحبونها ويرفضون الاستغناء عنها، أما صوت العقل فيطرح إشكاليات تصدع رؤوسهم المصدعة بالفعل من هموم السعي على الرزق، لهذا يرفضونه ويكرهونه.
أهم بخلع حذائي لأدخل المسجد فأجدني حافياً، أخشى أن أنظر لجسدي حتى لا يفاجئني مشهد كفن يلفني! أدخل لأرى في صحن المسجد مصطبة مرتفعة عن الأرض قدر شبر، يصر العوام أنها القاعدة التي بنى عليها النبي نوح سفينته، ظنوا هذا لأن الفرات عودهم أن يفيض كل عام بمياهه من منابعه خلف حدود تركيا فيغمر بيوتهم وزروعهم، فظنوا مدينتهم مكانا مثاليا لحادثة الطوفان وفلك نوح عليه السلام، وبسبب فيضانات الفرات كذلك احتاج المسجد لرفع مستواه أكثر من مرة حتى لا يغمره الماء، واليوم تحتاج لأن تنزل بسلم حلزوني من صحن المسجد لتقف على تلك الأرض التي أقف عليها أنا الآن .. الآن .. واليوم .. هل يعرف أحد وهو في حلم أنه كذلك؟ أدركني يا الله، أنا في حلم وأعرف أنه حلم، فلماذا لا أستيقظ؟ ثم هذا الصداع الذي يتصدع له باطن رأسي، كم أكرهه؟ يا إلهي ما أصعب العيش بين عصرين!

اليوم يظهر في منتصف المسجد سلم حلزوني يهبط لأرضية المسجد القديمة، وعليها المقامات الأصلية ومصطبة السفينة تلك، ومازالت قصة فلك نوح تلك تردد على آذان أطفال الكوفة حتى اليوم، فيحكى لهم كيف كان فناء بيت نوح في

موقع المسجد، وكيف بنى فيه الفلك التي حملته وذريته ومن اتبعه على الحق واثنين من كل زوج من الطير والحيوان لبر الأمان.

يتبدل المشهد، ويخفت الضوء، أرى قاعة محاضرات مظلمة وشاشة عرض بلازما عليها صورة للمسجد بسلمه الحلزوني، فهل هو حلم داخل حلم؟ هل يعرف من يحلم أنه يحلم أم هذه أعراض جنون؟ خلف البوديوم الخشبي يقف الدكتور **سلمان العقيبي** أستاذ التاريخ الإسلامي بتلك الجامعة الخليجية، وهابي عتيد يضايقني الانطباع الذي يتركه عن الأكاديمي المسلم حين نكون بمحفل علمي دولي. تذكرت، لقد حضرت هذه المحاضرة منذ سنوات، أذكر تماما أقواله المرسلة عن سفين نوح عليه السلام، والتي خلط فيها بين العقيدة الدينية والنص التاريخي والموروث الشعبي، محاولا الخروج بنتيجة محددة سلفا، وهي انطلاق السفينة من فناء بيت نوح في الكوفة لتستقر فوق جبل تندوريك في تركيا، والذي أصر سلمان على تسميته بالجودي وفقا للنص القرآني[٦٨]، آخر ما يصلح له هذا الرجل أن يكون مؤرخا معاصرا، فهو ينتهج منهج المقريزي وابن كثير وابن خلكان في عصر تجاوز هذا كله، هاك صوته يرتفع وهو يشير لشاشة العرض بيمينه التي يتألق فيها خاتم فضي مطعم بالماس،

---

[٦٨] هود: ٤٤

متحدثا عن بحثه الذي يعيد الثقة لنظرية جبل الجودي المسمى بالتركية تندوريك، ويدعي أن التكوين فوق الجبل ليس تكوينا طبيعيا كما قرر دافيد فاسولد وآلان كوليتر في تقريرهما الشهير[٦٩]، ثم يتهم الرجلين قائلا أن تقريرهما تحيطه الشكوك من كل جوانبه، ويختم عبارته بكلمة "نعم .. نعم". يكرر العقيبي لفظة نعم كثيرا في حديثه، ابتسم وأنا أتصور الإعلانات المدفوعة التي ستنشرها مؤسسات الإعجاز العلمي بصورة مقالات في أعرق الصحف العربية حول الموضوع، وكيف ستجد الجرائد الوهابية من لندن للرياض مادة جذابة في البحث المتهافت، فتنشره تحت مانشيتات من عينة "عالم مسلم يثبت بالأدلة القاطعة صحة الرواية القرآنية لقصة نوح عليه السلام وخطأ رواية الكتاب المقدس" بينما الحقيقة كالعادة أنه لا توجد أدلة ولا يحزنون. رأيت كل هذا منذ سنوات، فلماذا أعيشه ثانية الساعة؟

أرى أحد الحضور يرفع يده ليستأذن في النقاش، بدا لي من هيئته يومها أنه بريطاني، وأكدت هذا لكنته الرصينة المنمقة وهو يتحدث الفصحى بطلاقة نسبية. قال "عذرا بروفيسور سلمان ولكن هل لديك تصور واضح للإطار الزمني للحدث؟ أعني حدث الطوفان؟" أعجبني دوما في الأوروبيين قدرتهم على

---

[٦٩] (٣٠)

مناقشة حتى أسخف الأطروحات بجدية، وبغير أن تلح على وجوههم ابتسامة السخرية، ولا أنكر أنها فضيلة أفتقدها في نفسي، فهأنذا أغالب ابتسامتي بينما يشرع سلمان في الإجابة وهو يحرك شماغه الأبيض الأحمر ويعدل من وضعه فوق رأسه باهتمام، ثم يقول "سيدي نحن نتكلم عن عصور سحيقة القدم، نعم، عشرات القرون قبل بداية الكتابة في سومر القديمة أو مصر، في مثل هذه الحالات يستحيل تحديد إطار زمني إلا من الحفريات ذاتها، والتي لم تكتشف بعد، نعم".

"هذا يعني أنك تصطاد حيوانا لا تعرفه! لنفرض أنك وجدت مجموعتين من البقايا تصلح لتكون فلك نوح، وفحصتها بالنظائر المشعة فتبين لك أن واحدة ترجع لعام ٣٠ ألف قبل الميلاد والثانية لعام ٦٠ ألف، أيهما سترجح؟"

"مركبين على قمة جبل؟ عن جبل نتحدث أم عن قاع الأطلسي؟ سبحان الله".

"ما تسميه اليوم قمة جبل اليوم ربما كان وهدة من الأرض عام ٦٠ ألف قبل الميلاد، بل ربما كان قاع المحيط كما قلت أنت مازحا".

يتقدم سلمان نحو محدثه البريطاني بضيق واضح في خطوته وتعبيرات وجهه، وإن حاول أن يحتفظ بنبرته هادئة وهو يقول "لماذا كنتم تبحثون إذا عن نفس القطعة فوق جبل آرارات منذ

بضع سنين؟"

"عفوا، من تعني بقولك كنتم؟ لم أبحث عن أي شيء هناك".

حتى البريطاني فقد السيطرة على سخريته، كالعادة نتكلم عن الأمريكيين والأوربيين فنضعهم في سلة واحدة نسميها الغرب، ثم نتوهم حربا يتجدد أوارها بين غرب مسيحي وشرق إسلامي، بينما العالم المسيحي ذاته تخلى عن مسمى كريستيندوم[٧٠] هذا منذ قرون طوال. يقلب الدكتور سلمان يده ناظرا في ساعته وقد حلا له إنهاء اللقاء قبل المزيد مما يعده سفسطة، فحلت لي مداخلة. طلبت الكلمة وطرحت سؤالي قائلاً "لماذا تفترض أن الجودي في القرآن وآرارات في التوراة مختلفان؟ لماذا لا يكون الجودي بالعربية هو الاسم المعبر عن ذات الجبل المذكور في التوراة السريانية باسم آرارات؟"

"الفارق اللفظي أبعد مما يحتمل التصحيف". هكذا أجاب لألتقط أنا طرف الخيط، فأعلق بأن لفظة آرارات ليست أبعد عن لفظة الجودي منها عن تندوريك، وهو اسم الجبل في كل الخرائط، وهو نفسه الاسم الذي يعرفه به سكان المنطقة جميعا، لكن الأسماء لا تعني شيئا. ثم ضربت مثلا باسم مصر عبر

---

[٧٠] العالم المسيحي، وهو اسم كان يطلق على أوروبا القرون الوسطى، حيث كان من الكاثوليك من يعتبر الانتساب لغير الدين حراما، فكم تشبه الليلة البارحة؟

العصور، إذ كانت على عهد قدماء المصريين تسمى **كيمبيت**، أي الأرض السوداء، ثم أطلقوا عليها صفة **ثاميرا** أي الخصبة، فيقال **كيمبيت ثاميرا** أي مصر الخصبة، ومع الوقت استخدمت **ثاميرا** وحدها كاسم، ثم استخدم الهكسوس اسم الإقليم الأكبر في الوجه البحري الذي احتلوه وهو **هيكوبتاح**، أي أرض الإله بتاح، كاسم لمصر كلها، واستمر الاسم بعد طرد الهكسوس، وحورت الكلمة من هيكوبتاح إلى **كوبتا**، ثم أسماها اليونان حين احتلوها **كوبتاس** بإضافة المقطع اليوناني التقليدي "us" في نهايتها ومنها أصبحت **آيجيبتاس** ثم **إيجيبت** اليوم[٧١]، ولا علاقة لكل هذه الأسماء ببعضها، فتباعد الأسماء ليس قرينة على اختلاف المسميات. ضربت مثلا ثانيا وأنا ألقي عليه سؤالا تعمدت أن يكون مستفزا بقولي "وهل كان أحد يسمي الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الثانية والمخطط الإنجليزي الشهير باسم السعودية؟"

يجيبني متصنعا الفكاهة بينما يظهر الضيق عليه من حركة ساقه العصبية تحت الثوب الأبيض "ما شاء الله، متخصص في التاريخ الفرعوني أم الإسلامي دكتور؟" ثم يسألني عن لفظة مصر ومصدرها، فأجيبه عارضا الرأيين الأكثر قبولا حول اسم مصر، فالأول أنها تعني الحضر المتمدن في لغة عرب الشمال، دعوها بهذه الصفة حين صعبت عليهم الأسماء القبطية

---

[٧١] (٧٠)

واليونانية، أما الرأي الثاني فهو للدكتور **عبد الحليم نور الدين**، ويقول بأنها اشتقت من الأصل المصري القديم مِجرْ بمعنى محمية[٧٢]، وكان يطلق على كيمبيت فيقال كمبيت مجر أي مصر المحروسة، تعبير مصري ضارب في القدم مازال مستخدما لليوم، ثم استخدمت مجر وحدها، وصحفت إلى مصر مع الفتح العربي، وعلقت بأنني أميل لهذا الرأي. فسألني سلمان بشغف من وجد غفلة ينقض منها على فريسته عن القرآن الكريم وكيف ذكرها إذن باسم مصر، فأجبته بأن القرآن نزل بلسان عربي، وبلسان قريش تحديدا، فسميت باسمها الشائع بينهم، ولو أنزل الله كتابه بالقبطية لسميت فيه كوبتا كما أطلق عليها في القبطية. ثم سألني عن رواية تقول أن أصل الاسم يعود لمصرايم بن نوح[٧٣] فأجبته بأنها رواية توراتية بلا أساس تاريخي، رددها رواة مسلمون نقلا عن اليهود، فشاعت في الكتب التراثية. هنا فضل ألا يستمر في جدل الأسماء هذا، فحاول إنهاء الحوار بقوله "حسن جدا، لنرجع للموضوع".

"ملحوظة أخيرة دكتور سلمان، النسخة الآرامية من التوراة سمت الجبل الذي رست عليه السفينة باسم كاردو، أي جبل الأكراد، وهذا يمكن تصحيفه إلى الجودي".

---

[٧٢] (١٠٥)

[٧٣] تقول حكاية التوراة أن مصرايم بن نوح هو أول من نزل مصر، فسميت باسمه (١٧-٧١)

" نقطة جيدة". هكذا علق البريطاني الذي بدأ الحوار على ملحوظتي، بينما هز سلمان رأسه في عدم اهتمام ثم استدار عائداً نحو البوديوم. أقوم أنا وأتجه لباب القاعة متحسسا جيوب سترتي بحثا عن سجائري وولاعتي، إلى متى يحاولون إثبات ما لا يحتاج لإثبات؟ إلى متى خلط الأوراق؟ أما اكتفينا من البقاء في موقعنا المفضل في ذيل العالم؟ أشعل سيجارتي بعد أن أغلقت باب القاعة خلفي ثم أقطع الممر الطويل الذي يصل باب القاعة بالبهو الخارجي حيث أقداح القهوة الساخنة، ها هي ريما نمر أستاذة الدراسات الشرقية في المعهد الألماني بلبنان تدخن سيجارة مع قهوتها، تماما كما رأيتها تقف يومها، يا إلهي ماذا أسمي هذا؟ حلم أم فلاش باك لأحداث حياتي؟ أم لأحداث حياتي الحالية وحيوات سابقة؟ أستغفر الله العظيم. لو استمر بي الحال هكذا طويلا فسأنتهي كراهب بوذي في التبت.

ما زلت حلوة وفياضة برواء الشام التاريخي يا ريما، كأن الزمن لا يمر ببابك، رقيقة برغم النظارة والبدلة الرسمية ذات اللون الرمادي الوقور؟ أتجه نحوها مبتسما لأحييها "صباح الخير ريما".

"أسعد الله صباحك، كيف حالك بعدما سمعت بالداخل؟"

"مازلت حيا".

مدت ذراعها مصافحة وتحدثت بلهجتها اللبنانية التي تختلط فيها عذوبة الجبل بسلاسة البقاع، فقالت "توقعت أن أجدك هنا حين خرجت لأدخن، لم أتوقع أن تحتمل هذا الهراء طويلا". أوميء برأسي موافقا ومبديا امتعاضي وأنا أجيب "عمر البشرية العاقلة على الأرض مائتي ألف عام، ونوح كان ثاني الأنبياء بعد آدم بفارق لا يزيد عن عشرة قرون، معنى هذا أنه يبحث عن سفينة بنيت منذ تسع وتسعين ألف سنة، دهر مرعب يكفي لتحويل السفينة إلى رماد تذروه الريح"

"المبدأ ذاته ليس مقبولا، توقف العالم منذ مائة عام عن القول بتاريخية التوراة، فمتى نتوقف نحن .عن خلط الدين بالتاريخ؟"

"العالم لم يتجاوز هذا السخف تماما، في ١٩٩٣ خرج علينا أحد مهاويس تاريخية الكتاب المقدس بقصة التكوين الجليدي فوق جبل آرارات في تركيا، فأثبت البحث الجاد أنه تكوين طبيعي، وكذلك الحال مع ظاهرة **دوربينار**[٧٤] التي يتكلم عنها سلمان، تكونت بعثة وفحصت كل شيء وقررت أنه تكوين طبيعي يشبه قاع سفينة، حتى الأثقال الحجرية التي كانت

---

[٧٤] الضابط التركي الذي اكتشف التكوين الصخري فوق تندوريك فسمي باسمه

تستخدم لحفظ اتزان المراكب في البحر الهائج - والتي وجدت غير بعيد من الجبل - أثبتت الدراسات أنها حديثة جدا"[٧٥]

"هذا لا يغنينا عن إعادة الكرة، فربما خدعنا الأمريكيون! تعلم أننا فطنون فوق العادة". هكذا قالت ضاحكة وهي تطفيء سيجارتها في المنفضة العمودية المثبته على الأرض، قبل أن تسألني قائلة "متى تتناول غداءك؟"

" سأرد على بريدي الإلكتروني أولا، ربما في الثانية عشرة والنصف".

"هاتفني بغرفتي لو أردت لنتغدى سويا"

" بالطبع، تقبريني ربما"

صوت قوي يلقي السلام، كأنه يلقيه على جمع كبير. تتغير الصورة أمام عيني قافزة للماضي مرة أخرى، فأفقد صورة ربما ويظهر أمامي مسجد الكوفة ثانية، أتذكر الصوت الرخيم، إنه صوت علي، ها هو فوق المنبر يتكئ على سوره الخشبي بيمناه، زاد الشيب في شعره ولحيته كثيرا، حتى بدا وكأنه في العقد الثامن من العمر وإن كان بعد في أول السابع، يتبدى على محياه كرب شديد، أراه يعقد حاجبيه الكثيفين، ويزفر زفرة تحمل

---

[٧٥] عن تقرير اللجنة المعروف بتقرير كوليتز وفاسولد بعنوان: ظاهرة فلك نوح التركية تثبت كتكوين جيولوجي طبيعي بفحص طبقات الأرض، نشر عام ١٩٩٦ في العدد الرابع والأربعين من مجلة العلوم الجيولوجية الأمريكية

لهيبا من صدره العريض وهو ينظر للجموع أمامه، ثم يبدأ بمأثورات استهلال الخطبة بصوت هادئ، كأنه هدوء يسبق عاصفة، وتبدأ العاصفة بالفعل مع ارتفاع حاد في صوته حين انتهى من الدعاء المأثور، إذ يقول **"أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، ألا وإنني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، سرا وإعلانا، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان .. فيا عجبا! يا عجبا"**

يصمت برهة كمن يكظم غيظه ثم يقول وهو يرمق القوم أمامه بنظرات تلتهب كمداً "يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، أيطاع معاوية وأعصى؟ قبحا لكم وترحا، صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَون ولا تَغزُون، ويعصى الله وترضون"

قال جملته الأخيرة مجلجلاً، لعلهم يفيقون، أراه يطيل النظر فينا، نعم .. فينا .. فأنا جالس بين أهل الكوفة. أتفرس وجوه من حولي، من هؤلاء من كانوا جنده يوم عسكر قرب الكوفة بعد النهروان، كان عازما أن يمم صوب الشام للقاء معاوية، ليحسم أمر والي الشام المتمرد على الحاكم الشرعي، لكن مطلبا

شاع بين الجند بالراحة، فلم يجد بدا من الموافقة وعسكر بهم خارج المدينة، وطلب إليهم ألا يدخلوها فينفرط عقدهم ويغلبهم التراخي، وحدث ما خشي منه، فأقام هناك ليرى جنده ينسلون من معسكره رجلاً فرجلاً حتى لم يبق في معسكره إلا نذر يسير لا يصلح لزحف.

يطيل الإمام النظر، ينتظر ليرى وقع كلامه علينا، أو عليهم، فلا يجد غير التواني في وجوههم وهم يشيحون بأعينهم من مواجهة عينيه الثاقبتين، يزم شفتيه في أسى مرير، قبل أن ينطلق صوته هادرا كالرعد يقول "**يا أشباه الرجال ولا رجال، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم، وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .. لا رأي لمن لا يطاع**"[٧٦]

كم قرأت هذه الخطبة وأنا أتصورك بموقفك هذا يا أمير المؤمنين؟ موقف الحق المخذول من أشباه الرجال؟ وكم بدنيانا من أشباه وأقزام! ما زالوا كما هم يا أمير المؤمنين، ما زال

---

[٧٦] الخطبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مختارة من عدة خطب له في نهج البلاغة (٧٤)

العرب كما هم، خذلوا كل داعٍ للحق بعد أن خذلوك، وحشدهم للباطل كل أفاق بعد أن حشد معاوية من أهل الشام مائة ألف جندي على الدرهم والدينار، على هذا كان دأبهم حتى صاروا قاع العالم ومهزلة التاريخ. نعم سيدي، أصحاب الرؤوس المنحنية أمامك اليوم هم أنفسهم من قبلوا بصاحب القرد يزيد بن معاوية خليفة غدا! وهم من خذلوا الثائر عبد الله بن الزبير[٧٧] حتى صرعه الحجاج بن يوسف ثم مثل به بعد قصف الكعبة بالمنجنيق[٧٨]. هم ذاهم من تركوا دم المظفر سيف الدين قطز يذهب هدراً وأقسموا يمين الولاء لقاتله[٧٩]. ومنهم خرج حسن بن مرعي الذي خان طومان باي وسلمه لعدو الوطن تقربا وزلفى[٨٠]. ومنهم انحدر من خذلوا محمد كريم في محبس الفرنسيين، بعد أن حكم عليه بفدية قدرها ثلاثين ألف ريال أو الإعدام بالرصاص عقابا على مقاومة المحتل، فوقف

---

[٧٧] ثار عبد الله بن الزبير بعد موت معاوية رافضا ولاية يزيد، وأخذ البيعة لنفسه في الحجاز فدانت له حتى غزاه الحجاج بن يوسف وقصف الكعبة بالمنجنيق حين احتمى بها أتباع ابن الزبير (١٨)

[٧٨] قطع الحجاج رأس الزبير وأرسلها للخليفة عبد الملك في دمشق، ثم صلب جثمانه عاريا ثلاث ليال في مكة حتى أتت والدته أسماء بنت أبي بكر فقالت للحجاج في كبرياء: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ فأمر بإنزاله (١٨)

[٧٩] دان حكم مصر للظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري بعد اغتياله للمظفر سيف الدين قطز المنتصر على المغول في عين جالوت (٦٧-٧٢)

[٨٠] كان حسن بن مرعي من مشايخ العرب و كان لطومان باي جميل في عنقه، فلما لجأ إليه طومان باي ليختفي عنده وشى به للعثمانيين تقربا لهما (٧٢)

الزعيم الذي بذل ماله في المقاومة يهيب بالناس من محبسه، ويقول "**اشتروني يا مسلمين .. اشتروني يا مصريين**"[٨١]، ولكن لا حياة لمن ينادي. هم من خانوا بعد هذا فرصة الوحدة العربية الأخيرة في الخمسينات والستينات لضعفهم أمام دولارات البترول[٨٢]، هم من صالحوا اسرائيل ليفرغوا لقصف ليبيا[٨٣]. هم بذاتهم في كل حين وكل قطر، في مصر أو الشام أو العراق أو الجزيرة، أشباه الرجال أمة واحدة، مهما تباينت الأسماء والأزمان والأماكن!

والآن، ألا يكفي هذا حلما ليوم واحد؟ أشعر بثقل فوق صدري .. أتمنى لو أفيق من هذا النوم المرهق كالسفر الطويل، لكن المشهد يتبدل لأرى مجلسا لوجوه تعرف بسيماها، هو مجلس لصحابة رسول الله وإن لم أميز شخوصهم، لكنني أحسهم، أشعر بمجلسهم كأنه يضاء بنور الحقيقة، لا أسمع ما يتناجون به، حتى يدخل عليهم رجل سمين عظيم البطن مائل للطول، وعليه رداء من حرير قرمزي مذهب الأطراف، إنه

---

[٨١] (٥٠)

[٨٢] إشارة لتآمر بعض عروش النفط على الوحدة بين مصر وسوريا واحتمال انضمام لبنان لها في الخمسينات، ثم مناهضة محاولات وإرهاصات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق بعدها، وذلك وفقا للوثائق الإنجليزية التي أثبتت تنسيقا سريا بين أمريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا مع الأنظمة الملكية في المنطقة لإسقاط الوحدة (١٤٥)

[٨٣] إشارة للقصف المصري لطرابلس بعد اتفاق وقف اطلاق النار مع إسرائيل

معاوية بن أبي سفيان، نعم ومن غيرك يا أبا يزيد؟ من غيرك فض هذه المجالس النورانية للأبد؟ أراه يصافح الجمع الكريم فردا فردا، ثم يجلس بينهم، ها هو يميل تجاه أحدهم، فيقول بصوت جهوري قصد به أن يسمع الجميع وإن وجه الخطاب لأحدهم "يا عمار، إن بالشام مائة ألف فارس يأخذون العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدالهم، لا يعرفون عليا وقرابته، ولا عمارا وسابقته، ولا الزبير وصحبته، ولا طلحة وهجرته، ولا يتقون سعدا ودعوته، فإياك أن تقعد غدا في فتنة تنجلي فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي"

تهدد بقتل علي لو قتل عثمان؟ ومال علي يا معاوية؟ ومالك لا ترسل بعضا من آلافك المائة لتنقذ ذي النورين الذي حاصره الثوار، وتثبت الأمن في المدينة لو كنت تحرص حقاً على دمه؟ أم أن الدرج الذي نويت اعتلاء كرسي الحكم عليه، كان يحتاج لدم الرجل الصالح، والصحابي الكريم الذي حجبتم عنه الناس والحقائق يا بني أمية، كنت تحتاج دمه لتحصل على شرعية بين مرشحي الخلافة، شرعية ولي الدم المطالب به. مائة ألف فارس! مرحى يا أبا يزيد، أسمعتهم رنين الذهب وقرع السياط وملكت جنود المال وعبيد العصا فدانت لك الأرض، ألا رحم الله من لم يتألف بمال ولم يهدد بسطوة.

لماذا ينتصر الضلال فيك يا دنيا على الحق؟ لماذا لا يعتدل في

أرض العرب أمر إلا لينحرف؟ لماذا كتب على أرباب الحكمة والعدل أن يبذلوا أرواحهم لمجرد إثبات موقف شريف، بينما يرث الدنيا أصحاب العصا والجزرة؟ لماذا لم تستمر دولة الكفاية والعدل التي أسسها رسول الله على التقوى؟ و لم يقدر لدولة الشيخين أبي بكر وعمر أن تتوالى حلقاتها الراشدة؟ لماذا قتل عمر بعد أربعة ليالٍ من عزمه على رد فضول مال الموسرين إلى الفقراء؟ ولماذا وصلت الخلافة لعلي بعد أن انفرط العقد واحتلت الدنيا قلوب الناس؟ لماذا لم تستمر دولة خامس الراشدين إلا بضع سنوات كحلم جميل تخلل كابوسا أمويا؟ لماذا لم يقدر لثورة مصدق في إيران أن تستمر؟ ولطفرة الليندي أن تطول؟ ولثورة ناصر في مصر أن تعيش بعده؟ لماذا انتصر الملكيون مع الأمريكان والصهاينة في معركة الستينات وقتل حلم الوحدة العربية؟ **لماذا لكل نبي في أرضنا ألف مسيلمة؟**

غفرانك اللهم، لا راد لمشيئتك، ولكن النفس على الفرص الضائعة لتدمى، والقلب على كبار الرجال ليبكي أحر البكاء.. القلب .. ما هذا الألم بصدري؟ أطعنة غادرة أم قلب ينفطر؟ آه ...

يفيق من نومه مقطب الجبين عابس الوجه غارقاً في عرقه، ليجد منامته القطنية التي يرتديها بدون أزرار، مزق أزرارها

وهو نائم، وذراعه الأيسر قد التوى متشنجا بينما كفه اليسرى المضمومة تضغط على صدره بقوة لبرح الألم. يمد يده إلى زجاجة مياه بجوار فراشه ويرفع رأسه ليجرع منها جرعات قبل أن يصب الماء صباً على رأسه ووجهه وعنقه. تسقط الزجاجة من يده، ويشعر بضربات قلبه كأن شياطينا تطاردها، ماذا؟ أهي أزمة قلبية؟ لقد أصيب والده بجلطة الشريان التاجي وهو في مثل سنه تقريباً .. لا .. بل كان في الخمسين حين حدث هذا. يهمس لنفسه قائلا "أهي النهاية؟"

فكرة أنها النهاية جعلت نبضه يتسارع أكثر. "اهدأ .. لا تجعل الخوف يفكر لك .. أنت تحتاج لرعاية طبية عاجلة فقط حتى لا يتطور الأمر وتسوء العاقبة، ولكن .. بمن تتصل الآن؟" هكذا فكر محاولا تهدئة نفسه حتى لا يزيد الجزع حالته سوءاً، يلتقط المحمول ويستدعي قائمة الأسماء، يضغط الحرف (S) ليستعرض الأسماء حتى يصل لاسم شريف الإمام ابن عمومته وصديق طفولته السكندري، يضغط الرقم وينتظر ليسمع رسالة محبطة "الرقم الذي طلبته ربما يكون مغلقاً". يحاول ثانية لعل وعسى، ولكن بلا فائدة.

ماري إذن، لكن كم الساعة الآن؟ يمد يده لساعة اليد التي خلعها على الكومود قبل نومه، يلتقطها ثم تسقط منه على الأرض، فيلتف بجزعه ليلتقطها ثانية، يشتد الألم نتيجة لحركته تلك. "لهذه الدرجة، مجرد حركة تزيد الألم؟" هكذا فكر وهو

ينظر للساعة اليدوية المضيئة فيجدها الحادية عشرة وأربعين دقيقة قبل منتصف الليل، غالبا هي في سابع نومة، تمنى ألا تكون معتادة على إسكات أجراس المحمول عند النوم مثلما يفعل هو، يبحث عن الاسم الحبيب ويضغط الرقم، بعد عدة رنات يأتي الصوت العذب كأول الغيث، لابد أنها كانت نائمة "أليس من حقي أن أحلم مثلك؟"

خف الألم قليلا وسرت بجسده رجفة انتعاش حين أتاه صوتها، يحاول الرد فيجد صعوبة في أن يخرج صوتا، يحاول ثانية لتخرج الجملة وبدايتها حشرجة لا تخطئها الأذن "لا تفزعي .. أحتاج لزيارة طبيب قلب في منزلي .. فورا"

"علي ماذا بك؟" هكذا قالت والانفعال يملأ صوتها الذي استيقظ بلمح البصر حين سمعت جملته، أجابها "عرق .. ألم بصدري وصعوبة في التنفس و .. أحتاج طبيبا"

"فورا حبيبي، سأرسل إسعافا لمنزلك من مستشفى قريب منك وألحق بها على الفور"

برغم الألم ترسم كلمة حبيبي بسمة على شفتيه ويرد "لا أحتاج لإسعاف، فقط طبيب"

"فورا.. علي .. تماسك أرجوك ولا تتحرك، سأكون عندك ومعي الطبيب فورا، ثم ننتقل لمستشفى لو نصح بهذا".

"تمهلي في القيادة .. أرجوك".

حين أتاه صوتها عبر المحمول أحس أنها ليست النهاية، فهدأ قليلا، قصتهما لم تنته بعد، هكذا كان قلبه يحدثه "قصتنا لم تنته بعد، ولا أحسبها ستنتهي في بئر الحرمان هذا، فلابد لطول الليل من صباح"

(١١)
راعية الفـــــــؤاد

علي جالس في فراشه تحيطه الوسائد وقد بدل البيجاما الممزقة بأخرى، في يده كوب من شراب الكركديه الدافيء، وماري جالسة على حافة الفراش تجفف قطرات العرق على جبينه بمنديل ورقي وتقول "اتصلت بالجامعة وأبلغتهم، وجدت رقم زميلك الدكتور مراد هاشم وأمام اسمه الحروف الأولى من اسم الجامعة، عادتك في تسجيل الاسم مع الجهة التابع لها كانت مفيدة، عذراً لانتهاك الخصوصية، لكن كان لابد من ترتيب الموقف". قال وهو ينظر لها بنظرة حملت الشكر والامتنان فضلا عن الحب المعتاد "فعلت عين الصواب".

"صحيح، لماذا الحرفين (ML) أمام اسمي في محمولك؟ فكرت كثيرا و لم أفطن لماذا يرمزان؟"

"شفرة بسيطة ومباشرة للغاية، (ML) تعني My Love.. حبيبتي، وهل هناك صفة أهم من تلك؟". ابتسمت ونظرت بعيدا للحظة في خفر لذيذ، قبل أن تنظر نحوه فتحتوي وجهه بنظرة رائعة، جمعت حبا وتقديرا وحنانا، مدت يدها تربت على خده وأعلى عنقه، وأطالت النظر بعينيه، زمت شفتيها لحظة كمن قررت أمراً، قبل أن تهدي بشفتيها قبلة

طويلة لخده الأيسر،ثم تعتدل لتقبل طرف سبابتها اليمنى وتضعها على صدره. فوق القلب تماما، وتقول "ليسلم قلبك اللؤلؤي الجميل يا علي"

"لا تخافي، عمر الشقي بقي"

"لكنك لست شقيا، ولهذا يجب أن نخاف ونتصرف بحرص، لنشكر الرب أنها ليست جلطة في شريان تاجي، لكن لا يمكنك الاستمرار في حياة الدخان والقهوة والشاي والتفكير والأحلام حتى تحدث الجلطة، لاحظ أن هناك ضيق في الشريان أدى لقصور طفيف مع الإرهاق، لا يمكن إهمال هذا، لقد أبلغت زميلك أنك في إجازة مرضية لمدة أسبوع ووعدني أن يدبر الأمر، وأنا أيضا انتهزت الفرصة وحصلت على إجازة رعاية طفل، لأرعاك". هكذا قالت مداعبة بمرح، ليجيبها هو "كلمة شكرا تبدو بلا معنى ولا قيمة أمام ما فعلت وتفعلين".

قالها وهو يلتقط كفها فيقبلها بإجلال وامتنان، نظر في عينيها لحظة ثم قال "حين سمعت صوتك على الهاتف، شعرت بشريان جديد يفتح بقلبي، بدأت في التعافي فور سماعي لصوتك وتيقني من رؤيتك بعد لحظات، ربما تكون الرغبة في الحياة التي يتحدث عنها الأطباء". ردت مازحة فقالت "لا، بل صوتي به نيتروجلسرين موسع للشرايين"

مادلين لزيزينيا لتجلب لي بعض أغراضي، فقد قررت القرار المت.. المتطفل التالي (دائما ما تجد صعوبة في تتالي حرفي التاء والطاء في العربية)، توجد غرفة إضافية هنا، وسوف أستعملها لمدة أسبوع حتى تتعافى، والاحتجاج بحديث الرجل والمرأة والشيطان[٨٤] غير مقبول في هذه الظروف"

كان وجودها قريبة منه أكثر مما يتمنى، للحظة خطر له أن هذا القرب قد يذيب جليد الوعد الفاصل بينهما، فأجابها "بالعكس، كنت أفكر كيف أبلغ الخبر لعزة حتى تأتي لترعى أخاها طريح الفراش، وكنت قلقا من فكرة إبلاغها بالهاتف، إنها ضعيفة الأعصاب بلا حدود، تعرفين الظروف التي مرت بها، فشكرا لك يا حلالة العقد"

"صحيح .. كيف تفهم حديث خلوة الرجل والمرأة؟"

هم أن يجيب وقد أخذه الحماس، فوجدها تضع يدها على فمه وتقول "كم أنا غبية، قال الطبيب أنك يجب أن ترتاح حتى من الكلام لبضعة أيام"

"للطبيب أن يقول ما شاء، لا أستطيع الحياة بغير كلام، بغير الحديث سيتوقف قلبي تماما"

"اليوم على الأقل؟"

---

[٨٤] الإشارة هنا لحديث الرسول (ص): لا يخلون رجل بامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما (٢)

"لا بأس، لكن بعد أن أجيب سؤالك، الحديث رواه الإمام أحمد والحاكم وصح عندهما بإسناد قوي، ولو نظرنا للموضوع بنظرة عملية بعيدا عن مثاليات المثقفين، لوجدنا الواقع أن اجتماع رجل وامرأة بينهما ألفة أو ميل متبادل، يمكن أن يكون موحيا بعض الشيء، أليس كذلك؟"

قامت من جانب الفراش لتجلس على الفوتيه المقابل له وهي تضحك وتقول "مادام موحيا فالفوتيه أسلم من طرف الفراش"

ضحك لرد فعلها وقال "حتى لو جاء شيطان .. لا يصلح الشيطان ما أفسده الدهر"

"الدهر لم يفسد شيئا، لا تتحدث وكأن عمرك مائة عام أيها الأربعيني المتشيخ! نعود للحديث"

" هذا هو مضمونه، المقصود بوجود الشيطان هو الجو الموحي في رأيي، وليس معنى هذا حتمية حدوث أمر لمجرد أنهما انفردا ببعضهما، فكما أن هناك شيطان هناك وازع خلقي وديني وإرادة إنسانية، مع ملاحظة الاختلاف الزمني، ففي الزمن الذي قيل فيه الحديث كانت المرأة عند أغلب الرجال أحادية المضمون والجوهر، ومرتبطة حتميا بالفعل الجنسي، لكن الأمر اليوم يختلف، وهاك الدليل، ها نحن وحدنا نناقش حديثا شريفا". هكذا شرح قبل أن يقف لحظة ثم يواصل مبتسما "لكن هذا لا ينفي أن الشيطان موجود معنا، أراه يحرك ذيله بخبث برغم الضباب في عينين أرهقهما المرض"

ضحكت لدعابته، ثم اتخذت ملامحها سمتا جادا وهي تقول "خطير أن نبرر كل شيء بالفارق الزمني، سيأتي يوم ويقول أحدهم: لو أن الدين لم يعد قابلا للتطبيق في زماننا، فلماذا نحتاجه؟ لماذا لا نفكر بعقولنا وحسب؟ التبرير الزمني قد يفرخ فكر الاستغناء عن الدين بالقيم الحضارية والعقلية"

"الدين ليس محدودا في الأمور الخلافية، نحن نتكلم في الخلافيات أكثر مما نتناول الأفكار السامية والرؤى الفلسفية الخالدة لأنها لا تحتاج للنقاش وليست محل خلاف، وهذه الأفكار هي صلب الدين، فجوهر العقائد هو تأسيس شخصية إنسانية تفهم هدفها وطريقها في الحياة وتتمسك به"

قالت وقد قامت من جلستها لتسدل الأستار على النافذتين المتقابلتين في حجرة نومه "الموضوع يحتاج نقاشا أطول، سأضعه على جدول أعمال أول جلسة على البحر بعد أن تتعافى، أما الآن فتصبح على خير، وأنا أيضا سأخلد للنوم، فنحن لم ننم ليلة أمس تقريبا، سأستعير كتابا من المكتبة في الصالة لأقرأه قبل النوم"

"تصرفي كأنك في بيتك، المكتبة كلها لكتب والدي رحمه الله، كتبي آتي بها معي وأعود بها"

"أحلام سعيدة".. "كفاني من الأحلام وما تجلب الأحلام! تمني لي نوما معتما بغير أحداث ولا أحزان"

(١٢)

غرور ورقية

انحرف السائق بالسيارة الأمريكية الفارهة يمينا ليهبط من فوق كوبري أكتوبر عبر مخرج الشهيد عبد المنعم رياض في طريقه للبرلمان، كان ـياد في مقعده الخلفي يطالع أوراقه التي سيلقي منها طلب الإحاطة الذي تقدم به لرئيس المجلس، موجها لكل من وزير الثقافة ووزير التعليم العالي بصفتهم، وأدرج على جدول أعمال المجلس في جلسته الصباحية التي تنعقد في غضون الساعة

يقطع تفكيره صوت السائق وهو يسأل "هل أمر على هيلتون النيل لتشرب قهوتك؟" أجابه دون أن يرفع عينيه عن الأوراق "المجلس مباشرة، لا وقت لدينا اليوم"

يمد زياد يده لعلبة صدفية بين المقعدين الأماميين للسيارة ويسحب سيجاراً، يشعله ويفتح النافذة الزجاجية قليلاً لتقلل من تراكم دخانه قوي الرائحة، تواجهه نسمة صباح منعشة في أواخر الخريف، يعود لأوراقه لتقع عينه على الاسم الكامل لعلي الإمام في الصفحة الأولى، ينظر له لحظة ثم يشرد "علي الإمام .. لماذا أنت دائما في طريقي؟ مجرد مغرور، هذا هو أنت، تعيش في وهم النبل الرومانسي ظاهرياً، بينما باطنك

الاستعلاء على كل من حولك، من اليوم الأول لم تحبني ولم تردني زوجاً لها، لماذا؟ من تظن نفسك؟ وماذا حققت في حياتك؟ مجرد فتى محظوظ ولد في أسرة هادئة ميسورة الحال فوجد وقتاً يهدره في التفكير في أحاجيه التي لا تفيد وكتاباته السقيمة، هذا هو أنت، لو جربت المبيت في مستوصف في عين شمس القبلية مقابل خمسة جنيهات لليلة كاملة، لعرفت أن في الحياة ما هو أهم من الخوارج والمعتزلة، لو تجرعت علقم اليتم صغيرا، وجربت النوم على فراش مشترك مع ابن خالتك الأكبر منك بعشرة أعوام، ولو عاينت الحياة في كنف زوج خالة لاختلفت حياتك تماماً، أنا تفوقت برغم كل هذا وأصبحت الأغنى والأنجح والأكثر نفوذاً، فلماذا كنت دائما تنظر إلي تلك النظرة حتى بعد أن سبقتك في كل شيء؟"

يفيق من شروده على توقف السيارة أمام بوابة المجلس الخارجية، فيهبط منها بعد أن لملم أوراقه مسرعا في حقيبته الجلدية السوداء، ويتجه نحو المبنى التاريخي المهيب، عليه أن يسرع ليشرب فنجانا من القهوة قبل الجلسة حتى يكون رائق الذهن وهو يلقي بيانه الخاص بطلب الإحاطة، أجرى جراحتي قسطرة علاجية اليوم من الخامسة والنصف فجراً حتى الثامنة، كلما زادت المسئوليات قلت ساعات نومه وقل عمق النعاس،

كأنه يخطف منه خطفا مسرعا، لماذا يتعين علينا في هذا البلد إما الجري دائما أو الوقوف التام؟ لماذا لا يوجد وسط في أي شيء؟ ثراء فاحش أو فقر مدقع، تطرف ديني أو لاديني، حملة دكتوراه بلا عدد وأميون بلا عدد. ذات يوم سيرحل عن هذا البلد، إلى بلاد تشرق فيها الشمس فلا يحجبها الغبار، ويقبل الناس فيها غيرهم كما هو، دون وضع أنوفهم في أدق خصوصياته. سيرحل، هو واثق من ذلك، ولكن متى؟ تلكم هي المسألة، فهذا البلد برغم كل شيء له ميزات بلا حصر عندما تملك ما يكفي من المال والنفوذ، يمكنك حينها أن تحيى حياة لا يحياها مليارديرات العالم، لأن المال هنا يشتري أشياء لا تباع ولا تشترى في بقية بلاد الله.

في غضون الساعة كان يقف في القاعة الرئيسية ليلقي بيانه حول كتاب النهروان أولاً، والمودع في دار الكتب والوثائق القومية برقم ٧٢١١١٥/٢٠٠٥م، من تأليف الأستاذ الدكتور علي عزمي الإمام. وجه طلب الإحاطة لكل من وزير الثقافة ووزير التعليم العالي، أما وزير الثقافة (رجل أعمال بارز وصديق شخصي لرئيس الوزراء) فبصفته المسئول عن الحفاظ على السلام الفكري للمجتمع كما ذكر في طلب إحاطته. السلام الفكري، عبارة بلا معنى، لكن لها بريقا يروج في دنيا

السياسة والإعلام، هكذا علمته التجارب. أما وزير التعليم العالي فبصفته الجهة التابع لها المؤلف وظيفيا، حيث يشغل منصبا تعليميا ييسر له نشر فكره المسمم بين شباب الوطن، ووزير التعليم العالي كما هو معروف كان عضوا في جماعة إسلام سياسي محظورة، قبل أن ينتقل لعضوية الحزب الحاكم قبيل اختياره كنائب رئيس جامعة بشهرين، ومعروف بميله المستتر مع تيار الإسلام السياسي.

بعد الديباجة التقليدية استأنف زياد بيانه قائلاً "الكتاب موضوع الإحاطة تم طرحه في المكتبات من خلال دار الشهاب للنشر والتوزيع منذ شهرين تقريباً، ونجده أولاً يحتوي على أطروحات تاريخية مضللة ومخالفة لحقائق التاريخ الإسلامي، معتمدا بالأساس على مصادر ومراجع رافضية[٨٥] متعصبة، تشوه التاريخ الأغر للإسلام عمداً، وهذه المراجع يذكرها الكاتب نفسه ضمن قائمة المراجع في نهاية كتابه. الكتاب ثانيا يهدد السلام الفكري والاجتماعي للوطن، ويستعدي أبناء الوطن على بعضهم بعضا من خلال الطرح الأساسي للكتاب، وهو دعوته لمواجهة التطرف الديني بالحسم الكافي، فمن يحدد الخط

---

[٨٥] يطلق مسمى رافضة أو روافض على الشيعة، لرفضهم عام الجماعة وولاية معاوية، وبالمقابل يسمي الشيعة أهل السنة النواصب لأنهم أعانوا معاوية وناصبوا الإمام علي وآل بيت النبي العداء في نظرهم

الفاصل بين ما هو تطرف وما هو التزام؟ وما نوع الحسم الكافي في نظر سيادته؟ ثم تأتي ثالثة الأثافي، الأستاذ الجامعي. يشبه من يخلط الدين بأمور الحكم بالخوارج، ممن كان شعارهم: لا حكم إلا لله! سبحان الله! يا سادتنا الدستور المصري في المادة الثانية ينص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، والاعتراض على عبارة "لا حكم إلا لله" وادعاء أن من يقولها يكون خارجيا، معناه تحريض الشعب ضد الدستور، ودعوته لمواجهة التطرف كفرض عين على كل مسلم معناها تهديد السلام الاجتماعي للوطن. هذا لا يمكن أن يسمى فكراً، بل تخريب وتحريض على القلاقل. إما أن نكون علمانيين مثله وإما نكون خوارجا ويجب على المسلمين مواجهتنا. الإسلام دين ودولة، والدستور المصري يؤيد ذلك، وسنظل نقول هذا ما بقيت في صدورنا أنفاس تتردد، الإسلام دين ودولة، وسنبقى محاربين من أجل إعلاء كلمة الحق في هذا الوطن ولو كره الذين ظلموا. كيف يريدون مصر؟ كيف يريدونها يا نواب الأمة؟ يريدونها علمانية إباحية تناسب هواهم، لا والله إنا لهم بالمرصاد".

يمد يده لكوب الماء أمامه فيرشف جرعة ثم يجفف العرق الذي تجمع فوق جبهته بمنديل وهو يقول "سيدي الرئيس،

أرجو عرض الموضوع على اللجنة الثقافية في المجلس الموقر للحصول على رأي مجمع البحوث الإسلامية في الكتاب، كذلك أهيب بالسيد وزير التعليم العالي، لاتخاذ ما يلزم من تدابير لتجنب الأثر التخريبي لوجود صاحب هذا الفكر المشبوه في هيئة التدريس بكلية الآداب، فمثل هذا"

يقاطعه رئيس المجلس من منصته وهو يستند برأسه إلى كفه المضمومة ويقول بغير اهتمام "وقف أستاذ جامعي ليس بهذه البساطة، السيد وزير الثقافة يتفضل بالرد على طلب الإحاطة، بإيجاز لو تكرمت يا سيادة الوزير، فمازال بالجدول الكثير من الأعمال".

يضع الوزير أربعيني العمر نظارة القراءة المذهبة ماركة فريد على عينيه ويبدأ بالديباجة التقليدية، ثم يشرع في الرد "بالنسبة للكتاب موضوع الإحاطة، تم انتداب لجنة قراءة من الوزارة فور تقديم الطلب وتقرير اللجنة معي الآن، اللجنة ترى أن مراجع الكتاب كلها معتمدة، ووجود بعض المراجع الشيعية بينها لا يدين الكاتب، لأن المذهبين الجعفري والزيدي اللذان استعان ببعض مراجعهما معترف بهما من الأزهر الشريف، كمذاهب فقهية لا تخالف صحيح الدين[٨٦]. ثانيا لا يوجد

---

[٨٦] يعترف الأزهر بالمذهبين الجعفري والزيدي كمذاهب اسلامية، تدرس مع المذاهب الأربعة السنية منذ شياخة صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت رحمه الله

إنكار لمعلوم بالضرورة كما أشار العضو في طلب الإحاطة وفقا لتعريف المعلوم بالضرورة الذي أفاد به مجمع البحوث في حالات سابقة، لكن لا مانع لدينا في كل الأحوال من عرض الموضوع برمته على المجمع لابداء الرأي المتخصص ثم نتخذ قرارنا على ضوء هذا الرأي"

يرد رئيس المجلس قائلاً "شكرا سيادة الوزير، يحول الموضوع للجنة الثقافية بالمجلس لعرضه على الجهات المعنية بإبداء الرأي، طلب الإحاطة التالي المقدم من السيد العضو.. "

لم يسمع زياد ما جاء بعد ذلك، فقد سبح بذهنه بعيداً، لقد اتسم رد فعل الوزير بالبرود، لكن المهم أنه ألقى الكرة في ملعب مجمع البحوث، وهذا هو دوره المطلوب منه، أما طلبه وقف علي عن العمل فمفهوم ضمنا أنه مستحيل، كان مجرد إحماء للجو، وهذه مرحلة لها ما بعدها، فحين يقول مجمع البحوث رأيه يكون لكل حادث حديث. هكذا هنأ نفسه على الإنجاز الكبير، ومناها بمكافأة على هذه الإجادة، فأرسل رسالة قصيرة لصديقه الشاب الخليجي عبد الله يسأله عن ارتباطاته في المساء، ثم انقضت بقية الجلسة الصباحية هذا اليوم وهو نائم مفتوح العينين، مهارة اكتسبها بعد عضوية المجلس الموقر، فلديه بعدها اجتماع في مجلس القسم، وبعده العيادة. "حياة كفاح وتعب وعرق لمساعدة الناس بعلاجهم وتخفيف آلامهم، وليست حياة أوهام كحياة ذلك المأفون". هكذا كان زياد

يردد في نفسه حين وصله الرد من صديقه بالإيجاب.

السبت، الثامن من سبتمبر

استقر علي في جلسته المفضلة في شرفة شقته على ترام الإسكندرية، تبدو على وجهه ملامح اهتمام وهو يستمع لمحدثه على المحمول، ثم يرد قائلاً "لن يجد المجمع شيئا يبرر التوصية بالمصادرة كما يحلمون، الكتاب مؤسس على مرجعيات صلبة". يتطلع للشارع أسفل الشرفة، ويراقب الترام الذي هدأ من سرعته ثم توقف، وهو ينصت لناشره الذي يجيبه قائلا "بالأمس قدموا طلب الإحاطة، واليوم تغطية كاملة في جريدة الهلال الأخضر، فضلا عن مقال رئيس تحرير جريدة صوت الشعب. المتعاطف معهم، حدسي كناشر يقول أن الموضوع يستحق القلق".

"وحدسي ككاتب هو العكس، زوبعة في فنجان، إنما يراهنون على صلابة أعصابنا كدأبهم، أعد الطبعة الثانية على ضمانتي الشخصية، وأنا متكفل بأي خسائر تترتب على قرار المجمع"

"لست قلقا من خسائر، لكن قلقي عليك، تعرف تاريخهم مع الدكتور "نصر"[87] وغيره"

---

[87] إشارة للدكتور نصر حامد أبوزيد الذي حكم القضاء بتفريقه عن زوجته السيدة إقبال يونس إثر دعوى حسبة رفعت عليه بسبب ورقة بحثية قدمها لنيل درجة الأستاذية في التفسير بكلية الآداب

"كان قانون الحسبة القديم يمكن كل من هب ودب من الشق عن قلوب الناس، لكن الزمن تغير، لهذا قدموا طلب الإحاطة، مجرد ظاهرة صوتية"

"لتكن مشيئه الله"

يأتي صوت ماري من خلفه وهو ينهي المكالمة بود قائلة تذكره بأنه وعد بإجازة لمدة أسبوع من كل شيء وتهدد بمصادرة محموله لو خالف وعده ثانية. أخبرها بأمر طلب الإحاطة الذي قدمه طليق أخته، لترتسم على وجهها علامات الدهشة والاهتمام وهي تجلس على كرسي الخيزران المقابل له في الشرفة، وهي تتساءل "أليس جراحا، ماله وكتاب كهذا؟"

"ماله جدا، فهو ينتمي للتيار الذي يناقش الكتاب شرعية وجوده على الساحة السياسية، ومن حقه كنائب برلماني أن يقدم طلب إحاطة لأي وزير، يحيطه علما بموضوع في دائرة اختصاصه لاتخاذ ما يلزم بشأنه. هو مخلب قط لا أكثر، وأحسبهم اختاروه لعلاقتنا السابقة، آملين أنه مع تصاعد الحملة إعلاميا قد يلقي ظلالا على حياتي الخاصة، فلو عجزوا عن منع تداول الكتاب يسببون لي ضررا أدبيا أو نفسيا"

تقلب شفتها السفلى في امتعاض من فكرة منع تداول كتاب. وتعجب لطريقة تفكيرهم في عصر الاتصالات، فلو

جامعة القاهرة عام ١٩٩٥م، و ترتب على هذا هجرته لهولندا، ويشغل حاليا كرسي ابن رشد لدراسة الإسلام والعلوم الإنسانية في جامعة أوترخت

منعوه مطبوعا فكيف سيمنعوه على شبكة الإنترنت؟ فأجابها بأن فاعلية المنع لا تهمهم كثيرا، ولكن صدور قرار المنع في ذاته، ففيه إظهار لنفوذهم وردع لغيره من الكتاب ودور النشر، استعراض عضلات لا أكثر، ولنفس السبب يهتمون بانتخابات النقابات والمحليات واتحاد الطلاب، فمصر تعيش مرحلة التمكين وفقا لمخططات بعض فصائلهم. ذكرته أنها حين قرأت الكتاب حذرته من المشاكل التي قد يسببها في بلد كمصر بأوضاعها الراهنة، لكن لا حدود لعناده الذي يورطه في المعارك. أجابها مرددا مطلع أغنية وطنية من الستينات تقول "يا أهلا بالمعارك". علقت هي مبتسمة بقولها " ألا تكفيك أشباح الأحلام من الماضي لتستدعي أشباح الحاضر؟"

"كلهم سواء في الماضي والحاضر. الخوارج والمرتزقة على موائد الأمويين أمس هم البروفة الأولى للمتطرفين والانتهازيين اليوم، وما بين مؤامرات الخوارج وفساد المرتزقة يختفي كل جميل ونظيف في حياتنا". هكذا أجابها قبل أن يشخص بعينيه نحو قدميه للحظات كعادته حين يخطر له أمر، ثم ينظر نحوها ويسألها لو كانت راعية فؤاده تسمح له باستخدام الكمبيوتر لمدة ساعة واحدة، فهو يحتاج للرد عليهم بمقال ينشر بأسرع وقت.

"لا فائدة، تصادمي للنهاية"

"لو لم أرد على الهجوم الصحفي فلن يقفوا عند حد، سيغريهم السكوت ويحسبونه ضعفا"

"أنت أدرى بهم، لتكن ساعة واحدة أرجوك"

يعبث بأزرار المحمول حتى يطلب رقم صديقه **إبراهيم موسى**، رئيس تحرير إحدى الصحف المستقلة بحق في زمن قل فيه الاستقلال، ينتظر لحظات حتى يرد إبراهيم فينطلق صوت علي قائلا "لا أصدق أن جناب رئيس التحرير يرد من أول محاولة؟"

"أنت من يغلق هاتفه لأيام، حاولت مكالمتك أمس حين قرأت طلب الإحاطة في التغطية البرلمانية، ماذا تنوي؟"

"أنوي الرد طبعا، فهل أجد مكانا لنشر ردي؟ أم أنك شفيت من إدمان المشاكل؟"

"لو أقلعت أنا عن المشاكل لن تقلع هي عني، فأنا زوجها وعشيقها الأول، تنقل فؤادها هنا وهناك، ثم تعود وتستقر في كنفي". قالها إبراهيم ضاحكاً فضحك معه علي طويلاً. إبراهيم صحفي جريء يهز بقلمه قلوب المصريين كل صباح، وله اهتمامات قريبة من اهتمامات علي في التاريخ والتراث الإسلامي وإن لم يكن متخصصا فيه، غير أن السياسة والكتابة فيها يستغرقان أغلب وقته الذي تخلفه له السياسة. رد علي بعد فاصل الضحك القصير قائلاً "ثلاث مقالات، أولها

سأسميه **طلب اعتذار**، ألا يدعي بعضهم اليوم الاعتدال ونبذ العنف؟ أليس من حق المجتمع قبل قبولهم كفصيل سياسي مدني أن يسمع اعتذارا رسميا منهم على جرائم الماضي؟ من اغتيالات سياسية لتصفية جسدية لقضاة. عليهم الاعتذار للمجتمع ولأسر ضحاياهم، والإقرار بأن مرتكبيها مضللون وليسوا شهداء"

"كاعتذارات الفاتيكان تقريبا؟ الموقف مختلف، اعتذار كهذا لو قالته كوادرهم السياسية فستلتهمها كوادرهم ال.. التي يسموها نوعية، لن تجد مجنونا بينهم يفعل هذا"

"وهو المطلوب إثباته، أنهم مازالوا فصيلا يعتنق فكر العنف". يرد إبراهيم وقد راقته الفكرة "الفكرة قوية، متى ستكون جاهزا بمقالك؟"

"غدا صباحا حتى يمكنك نشره في العدد الأسبوعي، قد يصل لنصف صفحة بسبب التغطية التاريخية لأعمال العنف في تراثهم الأسود، أنوي التركيز على القاضي الذي اغتالوه وحكموا على قاتله عمدا بالدية في قتل عمد وبغير موافقة ولي الدم. يدعون الحكم بما أنزل الله وما حكموا بغير الهوى والغرض قبل الوصول إلى السلطة، فماذا ينتظرنا لو وصلوا إليها؟ ماذا سيحدث لو نالوا غرضهم الذي صار مرضهم ومرض الوطن؟"

"سأنشره حتى لو اضطررت لحجب مقالي أنا شخصيا في

العدد الأسبوعي"

"شكرا يا صديقي العزيز، لكن إياك وحجب مقالك حتى لا يكرهني من يستيقظون على سطورك كل يوم، المقال بالصور الأرشيفية يصلك غدا على البريد الالكتروني بمشيئة الله"

(١٣)

جبل الجليد

الخميس، الثالث عشر من سبتمبر

في ذاك الصباح المشمس من خريف الإسكندرية، جلس في الشرفة يتصفح الجرائد، طالع مقاله الثاني في جريدة **صوت مصر**، والذي تناول فيه الأبعاد الخفية لعلاقة الولايات المتحدة بتنظيمات الإسلام السياسي، بعد أن كتب مقاله الأول عن الاعتذار المطلوب من الجماعات التي تدعي الاقلاع عن العنف قبل قبولها كلاعب في الحياة السياسية. أخذ يطالع العناوين الجانبية التي وضعها صديقه إبراهيم لمقاله بالفنط الأحمر الكبير

- **وثائق جديدة حول علاقة أحد الجماعات بالمخابرات المركزية**
- **سر القيادي الذي دعته أمريكا لزيارتها عام ١٩٥٣م**
- **مراكز نشطة من باكستان لسويسرا بأموال نفطية وخبرات مخابراتية أمريكية تحت ستار مقاومة الشيوعية**
- **اعترافات أعضاء سابقين بمؤامرة ١٩٦٥م**
- **زيارة ثلاثة قياديين لقاعدة العضم الأمريكية في ليبيا قبيل الخامس من يونيو ١٩٦٧**
- **لماذا حاربوا للحفاظ على مصالح أمريكا في الخليج العربي؟**

كشف علي في مقاله ضمن ما كشف سر ولعهم بموضوع حرب اليمن، فكلمة السر لفهم دورهم السياسي في الستينات هي تلك الحرب، قاموا بكل ما وسعهم لقلب نظام الحكم عام ١٩٦٥م حتى يسقط النظام المصري وينسحب جيش مصر من اليمن، ليعود الإمام البدر للحكم وتظل عروش البترول آمنة، ومعها الأمان التام للمصالح الأمريكية، فالولايات المتحدة كانت تدرك يقينا أن نفوذا لناصر في الخليج يمثل تهديدا أكبر من تهديد الدكتور مصدق في إيران، وحين فشلت المؤامرة الانقلابية القريبة من مؤامرتهم ضد مصدق، كانت ضربة عام ١٩٦٧م بينما عدة فرق من الجيش المصري تحارب مرتزقة عروش البترول في اليمن. اعتمد في مقاله على عدد من الوثائق اشتراها من صالة مزادات متخصصة في وثائق التاريخ الحديث في لندن، لهذا توقع ردود فعل قوية، فحتى من كان يعرف هذه العلاقات من القراء فقد نسيها بعد الحادي عشر من سبتمبر الذي قلب كثير من الموازين وإن لم تنتهي العلاقات، بل تغير طبيعتها.

نظر لمقاله بعين راضية واستقبل عدة مكالمات من زملاء وأصدقاء، البعض هنأ والبعض ناقش والبعض لام، لكن الكل بلا استثناء حذر من دخول عش الدبابير. كان علي يرد على التحذيرات بكلمة يحبها من فيلم **ناجي العلي**، حين قال الفنان

الفلسطيني الشهيد لزوجته "يا مرة خليهم خايفين مني .. ليش بدك تخوفيني منهم؟" يعلم في قرارة نفسه أن هدفه ليس هجوماً عليهم، كان هدف كتابه "النهروان أولا" الذي تسبب في تلك المعركة خلق حالة وعي بين الطبقة الوسطى بحقائق العالم الذي نعيشه، وأول تلك الحقائق ذلك التحالف القديم الجديد بين الرأسمالية المتطرفة والتيارات الدينية المتطرفة حول العالم، كان كتابه أول خطوة في هذا السبيل، لكنهم تعجلوا بنقل المعركة إلى الصحف ورجل الشارع، فكان لهم ما أرادوا.

وضع الجرنال على الطاولة الخشبية الصغيرة بعد أن تأكد من صحة كلمات مقاله دون أخطاء مطبعية، ثم تناول جريدة الأهرام وهو يشعل سيجارة مع قهوة الصباح، ماري تعطيه خمسة سجائر يوميا، لهذا أصبح دقيقا في اختيار متى وكيف يدخن. طالع الصفحة الأولى بملل، أخبار سياسية تتكرر على مدار العام كأن الزمن قد توقف، وضع الأهرام ليمسك بجريدة القانون فيجد على صفحتها الأولى مانشيتا يقول "الشيخ نادر التل يصرح من الكويت أن احتلال العراق كان شرا لابد منه، وأن التعامل مع قوات الاحتلال ليس حراماً". جرى بعينيه فوق سطور المقال باهتمام في البداية، ثم ما لبثت علامات الاهتمام على وجهه أن تحولت إلى ابتسامة ثم ضحكة، ثم انتابته نوبة ضحك هستيرية. جاءت ماري على صوت ضحكاته من المطبخ وهي ترتدي مريلة منزلية. تسائلت عن الأمر فأجابها من بين ضحكاته قائلاً "لدينا مثل يقول هم يضحك وهم يبكي" ثم

أشار لمقال الشيخ الأزهري المصري الذي يملأ الفضائيات ببرامجه الدينية، التقطت الجرنال بيدها بعد أن جففتها في مريلة المطبخ في حركة تلقائية تتفق فيها كل نساء الدنيا، جرت على الأسطر بعينيها بينما أشعل علي سيجارة في تبذير كبير بعد الانتهاء من الأولى بلحظات. رفعت عينيها عن الجرنال وعلقت بشبه حيادية "قد تكون له وجهة نظر ليست واضحة لك".

"بل واضحة كشمس الضحى، الصلاة هنا والطعام هناك"

"لا أفهم؟"

"حلقات مفرغة ندور فيها منذ قرون. عقدت هدنة لدخول الشهر الحرام في مواجهة علي لجيش معاوية، فكان نفر من جيش معاوية ينتقلون للصلاة خلف علي وقت الجماعة، ثم يعودون لمعسكرهم آمنين في ظل الهدنة، فلما سُألوا: لماذا لا ترضونه لدنياكم لو كنتم ترضونه لدينكم؟ أجاب بعضهم فقال: الصلاة خلف علي أقوم، وسماط معاوية أدسم[٨٨]"

تضحك ماري وتعلق "منطق غريب".

"ومثله منطق فضيلة الأستاذ، يخطب في الناس عن الصحوة الإسلامية وإنقاذ الأمة، ثم يطير شرقا ليلتقي بطوال العمر من

---

[٨٨] (٥٤)

مشايخ النفط، وهناك تحرر باسمه الشيكات، فيفتي بناء على حجية هذه **المراجع البنكية** بأن صدام كان طاغية أما أمريكا فأمنا الرؤوم. يذكرني بأستاذ له، مخضرم عريق في حمامات النفط، يلعن مصر الستينات ويرى هزيمتها في يونيو عادلة لأنها كانت تستعين بالسوفييت الملحدين، واليوم يرى قاعدة العديد[٨٩] الأمريكية من شرفة منزله فلا يلق بالا، لأن السوفيت ملحدين لكن الأمريكان من أولياء الله الصالحين. مدد يا سيدي رامسفيلد"

كان وجهه يزداد احتقانا مع كل كلمة، وإن حافظ على نبرة صوت منخفضة الحدة، وعلى وجهه ترتسم ملامح غيظ مكظوم، فسألته "مالك يا علي؟" قالتها بقلق وهي تنظر في وجهه، فلم تكن حالته الصحية مناسبة لهذا الانفعال. نظر إليها، وأطال النظر برهة بعينيها ثم ابتسم ابتسامة خضراء نضرة، وما هي إلا لحظات حتى زال احتقان وجهه واسترخت عضلاته التي كانت مشدودة كعادته حين يتحمس أو يتميز غيظاً، هكذا كان دوما كعصب ملتهب، لكن لفتة حانية أو كلمة محبة كانت دائما كذلك كفيلة بأن تطفيء لهيبه في لحظة. شعرت بهذا من اختفاء رعشة يده التي تمسك السيجارة،

---

[٨٩] القاعدة العسكرية الأمريكية في قطر وأكبر قواعد الولايات المتحدة خارج أراضيها.

ثم تحركت شفتاه ليقول بعد لحظات من الصمت "لو أن العالم كله صادق وحنون كعينيك لدامت سعادتي، لكنها أرض النفاق يا مريمي، وأنا بشر. كثيرا ما ينتابني ملل من كل شيء، ويقتحمني سؤال قاهر: هل هناك نتيجة ترجى؟ هل سيأتي يوم يرى فيه الناس الحق حقا فيتبعوه؟ أم ستبقى دنيانا مرهنة لكلاب الذهب وعبدان السوط؟ هل ستأتي أنوار المسيح أو المهدي أم ستسود ظلمات الدجال؟"

"لم كل هذا؟ ألست راضيا عن نتائج الحملة الصحفية؟"

"بل نجحت أكثر مما توقعت، إلا أن قلبي سقيم. إنها الحرب، قد تثقل القلب، لكن خلفك عار العرب"[٩٠]. فهمته فعلت وجهها علامات إشفاق على هذا المحارب رغم أنفه، وأنصتت إليه وهو يستأنف قائلا "أكره الحرب، لكني مضطر للترحيب بالمعارك لأن كرهي لفساد الفاسدين أكبر. الحرب يا مريمي تخرج أسوأ ما فينا، والحب ينبت أجمل ما فينا، ويوما بعد يوم، تتزايد الحروب ويذبل الحب حولنا.

قالها شاخصا ببصره لسماء الصبح الصافية، أما هي فكانت شاردة في قسمات وجهه الأربعيني. "مريمي"، ذلك النداء الحبيب من شفتيه أحيانا يشعرها أنها قدره وأنه قدرها. لم

---

[٩٠] شعر أمل دنقل، من قصيدة: لا تصالح

يشعر علي إلا وهي تتقدم نحوه وتمد يديها فتضم رأسه لصدرها بحنان. انتابته قشعريرة وارتبك للحظة، ثم ما لبث أن أغمض عينيه. يالها من لحظة لا يحصي كم تمناها! كل هذه السنوات يحلم بأن تتجسد فيها أمه لتغمره بأمواج الحنان من صدرها، انتظرها طويلا واشتاقها مرفأً آمناً وسط عباب الحياة، اشتاق للحظة سكون معها .. سكون، ما أغربنا نحن البشر؟ ننتظر لحظة بعينها ألف يوم ونتخيل كل يوم ماذا سنفعل حين تأتي، وحين تأتي اللحظة ويصبح الخيال حقيقة، لا نفعل شيئاً، تماماً كحاله الآن، وماذا عساه يفعل حيال فتنة عمره وخاتمة النساء وقد غدت قريبة كحبل الوريد؟ هل يشكر القلب الذي أعلن احتجاجه على طول الحرمان فاقتربت؟ في أنواء هذا الكون كم يحتاج إليها؟ فما هو غير طفل عنيد يرفض أن يلوثه زمن قبيح، والأدران والملوثات في عرفه وفهمه تختلف عما هي عند باقي الناس، لكن أي طفل مهما بلغ عناده يحتاج لدفأ أمه في آخر اليوم، ليستطيع النوم دون أن تفسد الأحلام وكوابيس الغيلان والحور نومه. هكذا كانت الأفكار تختلج بصدره، وهو يرفع يدها ويدنيها من فمه فيقبلها، ابتعدت قليلاً، فشعر بلوعة الفطام، نظرت في عينيه وهي تقول "لكنها حرب تنوير، أنت تفعل الآن وهنا ما كان يفعله توماس مور وميلتون وكوبرنيكوس وجاليليو وبيكون. كل العمالقة خاضوا معاركا حتى نرى نحن النور، وها نحن نعيش بنورهم بعد رحيلهم بقرون. الحرب التي تثقل القلب هي حرب تخوضها لهدف

شخصي، أما التنوير فلابد أن تفخر به، لأنه تماما كالحب، يخرج أعظم ما فيك"

يتأملها بامتنان ويقول "أمس كنتُ مثل جان بول مارا وجيفارا واليوم أصبحت مثل مور وميلتون، سأتمزق غرورا في الغد لو رأيتني مثل **الإسكندر الأكبر**". ابتسمت وأطرق هو قليلا ثم قال "العمر يجري، وبوادر الأزمة القلبية ذكرتني بجريه بسرعة الصوت، هناك قصيدة للدكتور **إبراهيم ناجي** يقول فيها: **حان حرماني وناداني النذير، ما الذي أعددت لي قبل المسير؟ زمني ضاع وما أنصفتني، زادي الأول كالزاد الأخير، ري عمري من أكاذيب المنى، وطعامي من عفاف وضمير**"

"الأطلال". هكذا قالت فهز رأسه موافقا وهو يقول كمن شرد في عالم آخر "**آه من يأخذ عمـــري كله .. و يعيد الطفل والجهل القديما**" ثم يعلق قائلا "كان ناجي طبيبا، وكانت له عيادة بوسط البلد، وبذات المبنى كانت صيدلية الدكتور **نقولا حداد**، أول من ترجم النسبية للّغة العربية، وكان بينهما اتفاق جنتلمان، لو وجد ناجي مريضا غير قادر يرد له أتعابه ويضع على وصفته العلاجية علامة، يصرف بمقتضاها نقولا علاجه مجانا، ثم يقتسما تكلفة العلاج بينهما، كان هؤلاء أدباء وعلماء زمن التنوير الحقيقي يا عزيزتي"

"لكل زمن جماله ورجاله، وقد تكتب مستشرقة انجليزية

ذكرياتها عن مصر يوما، فتكتب حكايات كثيرة رائعة عن مؤرخ شاعر رقيق، عن عقل جميل وقلب جميل". نظر لعينيها نظرة تقول "لماذا لا توافقين يا حبيبتي ليصبح الوجود أجمل، والشمس أدفأ، والبحر أكبر، لأنعم بالسكن والسكون، حنان صدرك يا مريمي هو سكني الذي خلقه الله لي، فلماذا تمنعين عني هبة الرب يا سمية العذراء؟" تنتفض فجأة وهي تقول "معنى هذه الرائحة أن طعامنا تحول لفحم من العصر الحجري".

قالتها وهي تعدو نحو المطبخ، فضحك وقد تحسنت معنوياته كثيراً، ثم وقعت عيناه على الجرنال الذي وضعته ماري فوق الطاولة، فرأى صورة الداعية الفضائي بابتسامته الباهتة، تذكر كيف غادر خطبة الجمعة في مسجد قريب ذات يوم عام ٢٠٠٦م خلال العدوان الصهيوني على لبنان. كان الخطيب عظيم اللحية يقول أنه لا يجوز لمسلم سني أن يدعو لحسن نصر الله بالنصر، لأنه رافضي كافر، ولا يجوز لمسلم أن يتعاطف مع حزب الله لأنهم روافض وقتلاهم في النار. يومها قال علي بصوت مسموع وهو يقوم فينتعل حذاءه "وهل قتلى الصهاينة في الجنة؟ أستغفر الله العظيم". سمع وهو ينصرف همهمات بعض المصلين خلفه، فقال في قلبه "صلوا خلفه أنتم لو أردتم، أما أنا فأراه معتوها لا تجوز خلفه صلاة".

مهموما كان دائما بقضية هذه الأمة الواقعة في قلب العالم القديم، يمكنك أن تسميه قوميا، ولكن القومية عنده لم تكن نعرة عنصرية ولكنها قناعة بحتمية التنسيق الاستراتيجي بين مصر ومحيطها الجغرافي والحضاري العربي. لذلك كانت همومه تتكاثر يوما فيوم. حين ولد علي عام ١٩٦٦م كانت فلسطين وحدها محتلة، اليوم فلسطين والعراق والجولان وشبعا على قائمة الاحتلال، والبقية تأتي. خطرت بعقله أبيات لمظفر النواب، يقول فيها "**العلي يتوضأ بالسيف قبيل الفجر، أنبيك علياً، مازلنا نتوضأ بالذل ونمسح بالخرقة حد السيف، ما زلنا نتحجج بالبرد وحر الصيف، ما زالت عورة ابن العاص**[٩١] **معاصرة وتقبح وجه التاريخ**" لقد عرض هذه الأبيات في رسالة الدكتوراه ضمن أمثلة على رسوخ الخلفية الاقتصادية والسياسية لأحداث الفتنة الكبرى في العقل الجمعي للمثقفين العرب. يتذكر تلك الأيام الجميلة الماضية فتمتعه الذكرى، وتتداعى لذهنه ذكريات مناقشة رسالته للدكتوراة في شيفلد.

---

[٩١] سقط عمرو بن العاص أثناء مبارزة مع علي في صفين، فكشف عورته حتى يشيح علي بوجهه لحظة يفر خلالها، وقد كان (٣٤-٧٣-٧٤)

(١٤)

الرسالة

يقف أمام المرآة ليهذب شاربه بعد حلاقة ذقنه صباح يوم المناقشة مع الأساتذة المنتدبين، **جون بلوز** من معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة إكستر، **ريتشارد هيس** من قسم الدراسات الإسلامية بأكسفورد، فضلاً عن **إريك ماجنوم** أستاذه المشرف من شيفلد والمتخصص في تاريخ الشرق الأوسط بين القرن الأول الميلادي والحروب الصليبية. كان علي يغني في الحمام أغنية ارتبطت عنده منذ الطفولة بالاختبارات المهمة واللحظات الفارقة، تلك الأغنية التي صاحبت مناقشة رائد التنوير **طه حسين** لإجازة السوربون في مسلسل الأيام في الثمانينات، تقول كلماتها "**اليوم ده يومك يا طه، و لا شيء سواك راح يفيدك**". انتهى من شاربه سريعا وارتدى البدلة الرسمية رمادية اللون، مع رابطة عنق داكنة الحمرة بها خطوط رمادية وبيضاء مائلة، ثم وضع شعار شيفلد الذهبي في عروة الجاكت، وبعد رشات من عطره المفضل نظر لنفسه في مرآة غرفته راضيا، فحمل حقيبة الأوراق والحقيبة التي وضع بها الرداء الأسود والقبعة الأكاديمية وانطلق للجامعة.

قاعة المناقشة هادئة وخافتة الأضواء لتتيح أفضل رؤية

لشاشة العرض الالكترونية. علي خلف بوديوم كلاسيكي من خشب الماهوجني، مرتديا رداء الحرير الأسود والقبعة، لمسات كلاسيكية تتمسك بها جامعة شيفلد العريقة. قرأ في سره الآيات الكريمة من سورة طه بتمهل بينما الأساتذة يجلسون على طاولة الشرف مقابله "**رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي*وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي*وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي*يَفْقَهُواْ قَوْلِي**". أشار له مشرفه بالبداية، فبدأ بالديباجة الأكاديمية والشكر المعتاد ثم ضغط على جهاز التحكم ليعرض أول لوحاته، والتي احتوت على أربعة صور، أعلى الشاشة لليسار صورة زيتية للإمبراطور **قسطنطين المقدس**، راعي المسيحية الأكبر كما يذكره التاريخ، أسفلها صورة لقداس داخل كنيسة وفيه قسس وشمامسة بزيهم التقليدي، أما الجانب الأيمن فأعلاه رسم زيتي لمعاوية ابن أبي سفيان، وأسفله صورة لدراويش يرقصون في حلقة ذكر. بدأ التعليق بإنجليزية سليمة قائلاً "قد تبدو اللوحة لأول وهلة بعيدة عن صلب الرسالة، لكنني أرى علاقة مباشرة بينهما، فالسادة في النصف الأعلى من اللوحة هم من تمكنوا في حالة الدينين المسيحي والإسلامي من السيطرة على الدين الجديد وإفراغه من طبيعته الثورية المنحازة للإنسان والثائرة على الطغيان، ليتحول الدين إلى صورة طقسية أكثر منه مشروع حضاري يغير واقعنا، وهذا ما تعبر عنه الصورتان بأسفل. نحن لا ننكر بالطبع أن

امبراطوريات كبيرة تكونت في الحالتين، فثبتت أركان امبراطورية روما المقدسة وصارت أوروبا تسمى كريستيندوم بفضل عملية **القسطنة** التي أجريت للمسيحية، وكذلك تكونت إمبراطورية أموية بفضل عملية **التأميم** التي أجراها بنو **أمية** للإسلام، ولكن ماذا عن البسطاء من ملح الأرض؟ لقد عادوا في الحالتين لحالتهم البائسة، تلك التي أرسل الله رسله ليخرجوهم منها، فقد صودرت ثورية الدينين لصالح رأسالمال".

"ليس جيداً أن تبدأ بالهجوم على الرأسماليين عندما يكون بين هيئة المناقشة أمريكيون يا صديقي". قالها البروفيسور هيس ممازحاً فابتسم علي وأجاب قائلاً "ربما أغرتني بذلك ثقتي في النزاهة الأكاديمية لصرح مثل أكسفورد، ثقة تنفي أية ريبة في انحياز أيديولوجي مسبق"

"رد ذكي، تفضل وعذرا للمقاطعة، أردت فقط إضفاء مسحة من الألفة بيننا جميعا"

"شكرا لك سيدي". هكذا رد "علي" ثم استأنف قائلاً: الرسالة كما تفضلتم بقراءتها تحتوي على برولوج عن الإمبراطور قسطنطين ودوره في عملية تنميط الكاثوليكية[٩٢]،

---

[٩٢] (٧٥-٧٦)

وتعميق الجانب التراجيدي في شخص المسيح على حساب الجانب الثوري فيه، الجانب الرائع الذي بشر بدنيا جديدة للبسطاء والكادحين والمقهورين، دنيا نلمح فلسفتها الجوهرية في العهد الجديد: **طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون**[٩٣] .. **وأقول لكم ايضا أن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله**[٩٤] .. **ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم**[٩٥]، هذا هو ما حرص الإمبراطور على تهميشه في المسيحية، باسطا عليها مظلة النسر الروماني المتعالي على البسطاء والمتحالف مع رأسالمال، فهي الإمبراطورية التي قام اقتصادها على ثلاثة أعمدة، احتلال عسكري يضمن مواردا وغلالا زهيدة التكلفة من المستعمرات البعيدة، طبقة أرستقراطية عسكرية وبرلمانية حاكمة، وأخيرا عضلات العبيد والفقراء زهيدة الثمن. نظام غير مؤهل للحياة في ظل مسيحية **يسوع** الناصري، وكما استخدمت الألعاب الأوليمبية لإلهاء المساكين حين يشتد الفقر، دعم قسطنطين

---

[٩٣] متى:٥:٥

[٩٤] متى:١٩:٢٤

[٩٥] لوقا:٦:٢٤

المسيحية بمنظومة طقوس غيبية مفعمة بالأسرار، وقمع الصوت المعارض ممثلا في **آريوس ونسطور** وغيرهما، ليتربع الفكر الإمبراطوري على العرش ويصبح هو الدين ذاته وما عداه هرطقة، ونظراً لأن البرولوج ليس من أصول رسالتي، فسأطلب عذركم في النفاذ مباشرة إلى الموضوع المحوري للرسالة"

أومأ المناقشون موافقين، فاستأنف قائلاً "جاء الإسلام بمنهج الاستقامة السلوكية على مستوى الفرد، ومنهج الكفاية والعدل على مستوى المجتمع، وطُبِّق المنهجان طوال حياة النبي، ولبثا مطبقين في مجمل الخلافة الراشدة عدا الفتنة، ثم فقدت الخلافة **رشدها بعد الراشدين، ولعل تسميتهم بالراشدين تعد دليلا على من جاء بعدهم، فقد أعطاهم العقل الجمعي للمسلمين هذا الاسم تمييزا لهم، بعد أن رأوا النموذج فاقد الرشد في الدولة الأموية، حين حدث تأميم الفكر الإسلامي بتغيير البعدين الاجتماعي والاقتصادي فيه، فلنطالع معاً قصة هذه الثورة المضادة منذ بدايتها.**

من مكانه خلف البوديوم عرض علي لوحة عليها المراحل الخمس الأساسية لأطروحته التاريخية، مرتبة من الأقدم للأحدث، ويظهر أمام كل مرحلة منها عدد من النقاط التي يغطيها البحث، وبدأ حديثه عنها إجمالا ثم تفصيلا، فتناول في

الفصل الأول من رسالته خلفية المجتمع الجاهلي اجتماعيا واقتصاديا والتغيرات الاجتماعية السابقة للبعثة، وفي الثاني تناول البنية الاقتصادية والاجتماعية لدولة المدينة المنورة في عهد الرسول، وفي الثالث تناول ذات البنية في عهد أبي بكر وعمر، وفي الرابع تناول خلافة عثمان والاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية فيها، ثم تناول في الفصل الخامس مرحلة تمكين الثورة الأموية المضادة في خلافة علي وما بعدها.

بدأ تفصيله بالمرحلة الأولى من الجاهلية، حيث كانت مكة قبل الإسلام مركزا تجاريا ودينيا بالغ الأهمية للجزيرة العربية، وكان من وجوهها **عبد مناف بن قصي بن كلاب** والد كل من **هاشم** جد الرسول الأكبر، **وعبد شمس** والد **أمية** جد الأمويين[96]، وبين كيف كانت المنافسة بين الأخوين في حياتهما شديدة والاختلاف بينهما كبيرا، فبينما كان هاشم قائدا اجتماعيا بطبيعته، تراضت قريش أن تجمع له رفادة الحجيج وسقايته، كان أخوه عبد شمس بعيدا عن سمت القيادة، فهو رجل أعمال لو جاز التعبير، كثير الترحال في التجارة للشام وغيرها لخدمة تطلعاته المادية. بعد وفاة عبد شمس، استمر ابنه

---

[96] (٦٣)

أمية في منافسة عمه على السيادة، بنفس منهج التقل الاقتصادي الذي اتبعه أبوه، وحدث أن اختصما مرة لكاهن من خزاعة ليقضي بينهما في خلاف على عادة عرب الجاهلية، وكانوا يسمون هذا منافرة، فجاء حكم الكاهن على أمية بالغرامة والنفي من مكة عشر سنوات، وكان حكما قبليا لا مناص منه، فرحل للشام وتاجر بها عشر سنين، مما رسخ عدائه لهاشم من ناحية، وضاعف ثروته من ناحية[٩٧]، ثم عاد لمكة ليجد أن هاشما قد مات، فتستمر المشاحنات بينه وبين **عبد المطلب بن هاشم**، ولكن لسوء حظ أمية كان حدث كبير في تاريخ المدينة الصحراوية قد وطد زعامة عبد المطلب، إذ قام أحد قواد مملكة أكثوم الإثيوبية، واسمه **أبرهة**[٩٨]، بحملة ناجحة ضد **ذي نواس** ملك اليمن، واحتل صنعاء كنائب عن ملك أكثوم المسيحي، ثم حنث بيمين ولائه وسمي نفسه ملكاً حوالي عام ٥٢٥م، وأحبط حملة أكثومية ضده وقتل قائدها[٩٩]. كان أبرهة مسيحيا مخلصا، ومقتنعا تمام الاقتناع أن الرب أعانه في الوصول للملك ليحقق هدفا سامياً، فاهتم بنشر المسيحية في اليمن

---

[٩٧] (٦٦)
[٩٨] تصحيف عربي لأبراهام أو إبراهيم
[٩٩] (١٣١)

وجنوب الجزيرة، ثم بنى كاتدرائية في صنعاء، والكاتدرائية باليونانية كما نعرف تدعى إكليسيا، والتي حرفت لتظهر في تاريخ الطبري والمراجع العربية باسم القليس[١٠٠]، ثم قاد أبرهة حملة لتوسيع مملكته بضم المناطق الساحلية من الجزيرة العربية ومنها الحجاز حوالي عام ٥٧٠م[١٠١]، وبعض المصادر، ونحن لا نوافقها، ادعت أن قرشيين دخلا كاتدرائية اليمن وأهاناها بالتبول فيها، فقرر أبرهة الانتقام بحملته تلك، فلو أن هذا هو السبب لطالب بتسليمهما إليه حين وصل مكة، كما أن جيشا من أربعين ألف مقاتل لا يجهز لسبب كهذا. ما يهمنا أن أبرهة قابل عبد المطلب خلال الحملة للنقاش حول إبل لقريش غصبها جيشه، ودار بينهما حوار شهير متداول، ثم نصح عبد المطلب قومه بصعود الجبال المحيطة بمكة للاحتماء من بطش الجيش، تاركين الكعبة لحماية رب الكعبة، وقد فشلت الحملة لسبب غير معروف تاريخيا (نحن كمسلمون نؤمن وفقا للقرآن بأن الله قهر الحملة بإعجاز إلهي) وعاد أبرهة لليمن حيث مات بعد وقت قصير، وما يهمنا في هذا هو تعزيز مكانة عبد المطلب كزعيم بدوره القيادي في الأزمة، بينما استمرت الزعامة

---

[١٠٠] (٨-١)
[١٠١] (١٣٢)

الاقتصادية لأمية وولده **حرب،** فكونا امبراطورية مالية أموية تكرر بسببها موقف الآباء، فحدثت منافرة بين عبد المطلب وحرب، حين أغرى حرب بعض قطاع الطرق بقتل تاجر يهودي كان في جوار عبد المطلب بسبب منافسة تجارية في أسواق تهامة، ونلاحظ هنا الأسلوب اللا أخلاقي الذي اتبعه الأموي بتصفية منافس تجاري جسدياً. هكذا كانت امبراطورية الأمويين الاقتصادية تدار، ولابد لنا هنا من التنويه عن قيامها على عدة ركائز: المرابحة في التجارة مع الشام واليمن، فيودع الرجل ماله مع كبار التجار الأمويين ليتجروا به مقابل نصيب من الربح، وهو نفس منطق توظيف الأموال الحديث، ثم الربا، بإقراض صغار التجار والصناع، بهدف ضم تجارتهم كغرم للدين لو عجزوا عن السداد، وأخذ المدين نفسه أو أولاده كرقيق وفاء لدينه لو لم تكف تجارته، ثم الرق الذي وفر اليد العاملة الرخيصة، ثم تشغيل الإماء في البغاء لصالح السيد. وكان أمية أشهر من عرف منهم بذلك. وهكذا، تسببت الأساليب اللا أخلاقية للأمويين في عزلهم عن مناصب الشرف والصدارة في مكة برغم الثراء الفاحش، وعلى ذلك يقوم دليلان: الأول أن مناصب الشرف وهي اللواء والندوة والسقاية والرفادة والحجابة كانت توزع بالتراضي بين العشائر فوزعت على هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون أمية، والثاني حلف

الفضول الذي تكون من هاشم وأسد وعبد العزى وتيم دون أمية كذلك، وربما كان استبعادهم من حلف الفضول منطقيا أكثر من انضوائهم فيه، فقد قام هذا الحلف الفاضل اسما ومضمونا لحماية الضعفاء والفقراء من طغيان الأثرياء، وكان هؤلاء الطغاة أمويين في الغالب[١٠٢]. هكذا شرح علي قبل أن يتوقف لحظة ليشرب جرعة ماء قبل أن يستأنف قائلاً "المرحلة الثانية كانت ظهور الإسلام في بني هاشم كضربة قاضية لطموحات الأمويين في التسود على قريش، فضلا عن جوهر الدين المقاوم للاستغلال، والمانع للربا والبغاء، فكان منطقيا أن تقود البرجوازية الأمية حربا ضد الدين الجديد ذي النزعة الاشتراكية، فقاد زعيمهم وقتها **صخر بن حرب بن أمية** (وكنيته أبو سفيان) حملة اضطهاد وتعذيب ضد مسلمي مكة من المستضعفين والأرقاء، لم ينافسه في ذلك إلا عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل، وأمية بن خلف[١٠٣]، ثم كانت الهجرة الأولى للحبشة، وكان المنطقي أن يُترَكَ المهاجرون وشأنهم، لكن القلق القرشي على العلاقة التجارية مع الحبشة حال دون ذلك، فنحن نعرف مما سجله الطبري أن الحبشة كانت مركزا تجاريا نشطاً

(٦٦-٢٣)

(٢٣-١٨)

بين جزيرة العرب وأفريقيا[١٠٤]، لهذا حاول القرشيون السعاية ضد المسلمين لدى النجاشي، فسجل التاريخ سعاية عمرو بن العاص الشهيرة[١٠٥]. ثم أسلم اثنان من أقطاب الرجال، حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، الملقب في الجاهلية بصياد الأسود، وعمر بن الخطاب فتى بني عدي عظيم الهيبة قوي الشكيمة، فعاد بعض مهاجري الحبشة اعتقادا بتوقف الاضطهاد بعدما أعز الله المسلمين بهما. هنا لجأت قريش للضغط الاقتصادي والاجتماعي، فيما عرف بحصار المسلمين في شعب أبي طالب، وواقع الأمر أن المؤلفات العربية أوردت لفظة حصار واتبعتها المراجع الإنجليزية بغير تدقيق لمدى تعبير اللفظ عن حقيقة ما حدث، فما حدث كان معسكر تركيز (Concentration Camp) وليس حصارا. معسكر تركيز للهاشميين والمسلمين في طريق ضيق بين الجبال، أجبر الهاشميون أن يضربوا خيامهم فيه مع الرسول والمسلمين ثلاث سنوات كاملة، ووضع عليهم رقباء يناوب بعضهم بعضا، ساوموا كل تاجر دخل مكة بطعام وزايدوا على المسلمين حتى لا ينفذ إليهم إلا أقل القليل وبأفدح ثمن، مما استنفذ مدخرات الرسول فضلا عن مدخرات عمه

---

[١٠٤] (٨)

[١٠٥] حاول عمرو بن العاص الوقيعة بالمسلمين عند النجاشي بأنهم يقولون في المسيح قولا لا يرضيه، لكن السعاية فشلت حين وجد النجاشي احتراما كبيرا في القرآن للمسيح (٨)

وزوجته، والغريب أن قرار قيادات قريش، والأمويون على رأسهم، لم يقتصر على تركيز المسلمين، ولكنه تجاوزهم إلى كل بني هاشم[١٠٦] مسلمين وغير مسلمين عدا أبي لهب، فالأمويون الحاقدون على البيت الهاشمي أقنعوا القبائل بحصار بني هاشم لأنهم عصبية محمد وأهله، ويجب الضغط عليهم حتى يكفوا عن حمايته أو يهلكوا معه، واستمر هذا حتى نقض القرار القرشي بالمعجزة الشهيرة".

استمر علي متجاوزا تلك المرحلة لمرحلة لاحقة من الصراع، حين هاجر المسلمون وبعدهم النبي إلى يثرب، ولو كان الصراع أيديولوجيا في الأساس لهدأت حدته بابتعادهم عن مكة، لكن التهديد الاقتصادي أرق قريشا أكثر وأكثر، فوجود قوة متنامية على طريق تجارتهم مع سوريا القديمة كان أكثر مما تحتمله أعصابهم، وقد أمنوا تجارتهم في الماضي بعهود مع يهود يثرب، فكيف يمكنهم معاهدة المسلمين اليوم وقد قتلوا منهم من قتلوا وعذبوا من عذبوا؟ وهنا يبرز اسم ودور **أبي سفيان** من جديد، إذ كان كبير البرجوازيين الأمويين يقود قافلة مكية عائدا من تجارة في الشام، وكان لكل رجل من قريش مال في

---

[١٠٦] (٨-٢٣)

القافلة قل أو كثر، وعندما توقف للراحة عند بئر بدر قرب المدينة، وجد نوى بلح في فضلات لإبل حول البئر، فاستنتج وجود سرية من المسلمين تحوم حول القافلة لأن أهل يثرب كانوا يستخدمون البلح الرديء كعلف للإبل، فانتهز الفرصة لإلهاب حمية قريش بعد إحجام دام عاما ونصف العام، لم تطاوعه خلالها بطون قريش على الخروج لقتال المسلمين وقد رحلوا عنهم، فالغزوة حدثت في مارس ٦٢٤م، بينها وبين الهجرة في ٢٠ سبتمبر ٦٢٢م ثمانية عشر شهراً. أرسل أبو سفيان لقريش لنجدته وهو واثق من فزع القوم على أموالهم، بينما وصل هو بالقافلة لمكة سالماً موفوراً، ببساطة لأن أحداً لم يهاجمه، فلم يسبقهم إلى البئر إلا سرية استطلاع عددها أقل من أصابع كف واحدة.

وصل جند قريش لبئر بدر وحدثت المواجهة العسكرية الأولى بين دولة النبوة وبينهم، فانتصر المسلمون وقتل العديد من كبار قريش وفيهم أصهار أبي سفيان، فجعلت الهزيمة قريشاً أشد ذعرا، لأن تهديد طريق القوافل لم يعد احتمالا بل حقيقة واقعة، ونصر المسلمين لابد سيجعلهم أجرأ على مال قريش لو طالته سيوفهم، لهذا لم يمر العام حتى كان أبو سفيان قد استنفر قريش وكون جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل، فيهم ثلاثمائة

دارع ومائتي فارس، وهذه قوة ضخمة بمقاييس الزمان والمكان، ثم مضى بهم لأحد في مارس عام ٦٢٥م، فهزم أولاً وتراجع جيشه، لكن خالدا بن الوليد كرَّ بالتفافه الذكية، فانتصر المكيون على المسلمين، ومن بين كل قريش وقف أبو سفيان يفاخر سعيدا ويقول "يوم بيوم بدر"، بينما كانت زوجته **هند بنت عتبة** تقف في مؤخرة الجيش مع النساء لتحمس الجنود بإلقاء الشعر قائلة "نحن بنات طارق، نمشي على النمارق، الدر في المخانق، والمسك في المفارق، إن تقبلوا نعانق، أو تدبروا نفارق، فراق غير وامق" وكانت سيدة قريش الأولى هذه قد اكترت عبدا ماهرا في الرمي بالحربة ليرشق بها حمزة بن عبد المطلب، لأنه بارز أباها وعمها ببدر فقتلهما، وقد فعل العبد الزنيم فعلته الغادرة، فما كان من هند بعد قتله إلا أن أخرجت كبده وعضت عليها بأسنانها فمضغت منها قضمة.

لاحظ علي امتعاضا على وجه البروفيسور ماجنوم مشرف رسالته الاسكتلندي الأصول حين وصف تلك الفعلة الشنعاء، فابتسم ثم علق قائلاً "عذرا على المعلومة المثيرة للامتعاض، لم أتمكن من إغفالها لورود العديد من الإشارات في وثائق الرسالة تشير لهند هذه فتقول آكلة الأكباد، وفي كل الأحوال، نراها مفارقة طريفة أن تكون قاتلة عم الرسول أماً لخامس الخلفاء

وحدة لسادسهم"

عاد علي لعرضه مستخلصا أن قريشا لو كانت تهدف للثأر من بدر وحسب لوقفت عند هذا الحد، لكن نصر القرشيين في أحد لم يحقق هدفهم، فالدين الذي يهدد التركيبة اليمينية المتطرفة للاقتصاد العربي في الجاهلية مازال قائما طالما بقي الرسول حيا، كان صخر بن حرب الشهير بأبي سفيان يرى في محمد بن عبد الله بن عبد المطلب مقابله الموضوعي في صراع الأجداد القديم، ونجاة الرسول كانت تعني عنده استمرار الخطر الهاشمي على التجارة الأموية للشام، لهذا أخذ يعد لضربة تكون القاضية، فراسل **حيي بن أخطب** من يهود المدينة، ثم أجرى محادثات مع قادة غطفان وسليم، وهي عشائر كانت ظروفها ومصادر ثروتها مشابهة لحال بني أمية، فكون من هذا التكتل محورا متكاملا، وتحرك من مكة على رأس أربعة آلاف مقاتل، ولقيته غطفان وسليم عند المدينة بستة آلاف فاكتملت عشراً، ثم حدثت الوقائع التي لا خلاف عليها تاريخيا، وفشلت الحملة التي أعدها وعاد لمكة، وكان واضحا من الزيادة المطردة لأعداد المسلمين أن هذا الخطر وجد ليستمر! ومر عام دون أن يدبر أبو سفيان معركة جديدة، وأنى له أن يوفر قوة كالتي كانت معه في غزوة الأحزاب؟

هنا كان الوقت قد حان ليأخذ المسلمون بزمام المبادرة في الصراع، فقرر الرسول العمرة، واتجه لمكة فنزل بألف وخمسمائة من المسلمين عند الحديبية، ثم انتدب عثمان بن عفان ليفاوض المكيين على السماح للمسلمين بالعمرة، ونحسب أن قرابة عثمان لأبي سفيان زعيم قريش كانت ضمن أسباب ندبه، فحدثت التداعيات المعروفة من صلح ثم نقض للصلح من قبل حلفاء قريش، وما أعقبه من فتح مكة عام ٦٢٩م، وقد أسلم أبو سفيان عشية الفتح، ثم أسلمت زوجته وابناه وابن عمه أبو أسد وعبد الله بن سعد بن أبي سرح[١٠٧] وغيرهم من بني أمية بعد الفتح، في تغير مفاجيء للمواقف، وهؤلاء هم من عرفوا في التاريخ الإسلامي باسم طلقاء الفتح. لا يحق لأحد أن يحكم على عقيدة هؤلاء بالطبع، غير أن المؤرخ ينبغي ألا يغفل أثر الإسلام عليهم، فقد أفقدهم أبهة الأرستقراطية وفرص الربح السهل، وهو بعد هذا شرف حازه خصومهم التاريخيون، لذلك كان انتقالهم لمعسكر الإسلام في اللحظة الأخيرة، ومع انهيار المعسكر المضاد تماما، ولذلك أيضا ليس مستغربا أن نجد في سيرة ابن هشام[١٠٨] إشارات لجنوحهم لمجتمعهم الأول،

---

[١٠٧] (٦٧)

[١٠٨] (١)

فيقول واصفا غزوة حنين "فلما انهزم الناس، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته" وهو خبر متواتر في العديد من مصادر التاريخ الإسلامي فضلا عن سيرة ابن هشام[١٠٩]، ونلاحظ أن المسلمين في حنين تمتعوا للمرة الأولى بتفوق عددي، لكنهم قاتلوا لأول مرة كذلك بجيش غير متجانس العقيدة والصلابة، وكانت النتيجة تضعضعا خطرا وخسائر كبيرة رغم تحقق النصر في النهاية. وفي معركة اليرموك، روى **عبد الله بن الزبير** فقال "كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان بن حرب ومشيخة قريش من مسلمي الفتح، رأوني حدثا فلم يتقوني، فجعلوا والله إذا مالت المسلمون وركبتهم الروم يقولون: إيه بني الأصفر، فإذا مالت الروم وركبتهم المسلمون قالوا: ويح بني الأصفر، فلما هزم الله الروم أخبرت أبي، فضحك وقال: قاتلهم الله أبوا إلا ضغنا، لنحن خير لهم من الروم"[١١٠]، واليرموك وقعت عام ٦٣٦م بعد أربعة أعوام من وفاة الرسول، فلم يكن

---

[١٠٩] (٨-١٩- ٦٨)

[١١٠] (٦-٨-١٩-١٠٦)

الرجل حديث عهد بالإسلام حينها بكل تأكيد، ولعل من الطريف أن يظهر لاحقا في العصر الأموي كتبة يدعون أن أبا سفيان كان مجاهدا فذا وقاتل في حنين حتى فقد إحدى عينيه، ثم قاتل في اليرموك ففقد الأخرى، صدفة عجيبة أن يفقد مقاتل عينيه في غزوتين متتاليتين، وواقع الأمر أن واضع الخبر أراد أن ينفي الخبرين السابقين عن حنين واليرموك، واستغل أن أبا سفيان كف بصره في أواخر أيامه بحكم الشيخوخة كما نعرف من المصادر الأخرى، فألف هذه الأسطورة البطولية عنه تقربا وتزلفا للخلفاء من أحفاده.

بذكر اليرموك كان طالب الدكتوراة قد دخل إلى الفصل الثالث من رسالته، حول مرحلة الراشدين أبي بكر ثم عمر، و فد استهل "أبا سفيان" عهد الراشدين استهلالا جانبه التوفيق فيه، فقد لاحظ الداهية غياب الإمام علي عن بيعة الصديق، فزاره في بيته وكان عمه العباس عنده، فقال لهما "إيه بني هاشم! غلبكم على هذا الأمر أهون بيت في قريش؟ يا ابن عمي، أبسط يدك أبايعك، فوالله لأملأنها عليهم خيلا ورجالا"[111]، فما كان من علي غير الرفض قائلا "والله ما

[111] (١٩)

أردت بهذا خيرا". فما كانت رغبته إلا اشعال التناحر على السلطة بين بني هاشم والسابقين من الصحابة مثل الصديق والفاروق ليفيد من ذلك الأمويون في نهاية المطاف، لكنه اختار الشخص الخطأ، فليس علي من يمكن إقناعه بتأليب فتنة بين المسلمين أو بمعاداة الشيخين، لم يكن من أهل الدنيا ليبكي عليها. لكن ولده معاوية على كل حال، حقق على المدى البعيد ما لم يحققه أبوه، متخذا لنفسه منهجا ذكيا، حرص فيه على تجنب العداوات وائتلاف الرجال، وكان أحفظ للسانه من أبيه، فضلا عن مهاراته الإدارية والقيادية التي مكنته من إمارة الشام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان، حتى قام بوثبته الذكية على السلطة في أحداث الفتنة الكبرى، فحقق السيادة والسلطة وأعاد المجتمع الطبقي الذي يعتلي الأمويون سنم الثروة والسطوة فيه.

(١٥)

أرضان بينهما بحر

حين وصلت أفكار علي في جلسته بالشرفة لخلافة الراشدين، تذكر أمرا، وتعجب من نفسه، كيف فاته ذلك؟ كيف لم يفكر في هذا من قبل؟ أخذت الصور تتدافع أمام عينيه بسرعة جعلته يضع رأسه بين كفيه، هناك تفصيلة بغاية الأهمية لم ينتبه لها قبل الآن، كانت هناك نقطة معينة خلال بحثه للدكتوراة بدأت بعدها الأحلام، بدأت بحلم رآه مرة واحدة، نسيه بعدها لأنه لم يتكرر، حاول أن يتذكر التفاصيل، فشعر بحاجة ملحة لفنجان قهوة مع سيجارة، أف لعادة التدخين الغبية، كم يكرهها ويكره تشوش أفكاره عند التوقف عنها. بصفة عامة كانت مشكلته دائما هي ذاته، هذه الذات المتمكنة منه تماما، لكن من قال أن قوة الإرادة تبرز في تحكمنا في ذاتنا أولا؟ لقد عرف نفسه دوما قوي الإرادة في معترك الحياة، يستفزه التحدي فتنطلق طاقاته لدرجة يتعجب هو منها أحيانا، لكنه على النقيض تماما مع ذاته كثيرة الطلبات ومتكررة الشكاوى، لا يتحمل الألم أو أية أعراض مرضية ولو للحظات، لهذا يستهلك تلالا من المسكنات، ويدخن بلا انقطاع ثم يستهلك أنهارا من طوارد المخاط ليخلص صدره من عادم

الدخان الذي يتراكم فوقه، كل هذا فضلا عن مضادات الحموضة، فهي ضرورية لتهدئة معدته المحتجة على صب كل ما سبق فوق رأسها! قد يقتله كل هذا بفشل كلوي أو كبدي يوما، يدرك هذا تماما، لكنه حين يمنع عن ذاته الهلوكة ما يريحها تمنع عنه رحيقها، تمنع عنه أي طيف لإبداع أو لحظة من جلاء الفكر، يدخن خمسين سيجارة يوميا، وحين يحاول تقليل التدخين المميت تعتل دماغه وتناوره ذاته، فلا يكتب سطرا واحدا يرضى عنه، ذات حرون عنيدة. لكن المرأة عنيدة كذلك، لماذا تحاول المرأة دوما أن تفرض حمايتها على الرجل؟ لماذا تتوهم كل امرأة تدخل حياة رجل أن حياته كومة أنقاض؟ وأن العناية الإلهية بعثتها لإعادة انشائه من جديد؟ فتتصرف ولسان حالها يقول: سيكون الكون جنة لو أن هؤلاء الحمقى من الرجال فعلوا ما نريد. لماذا تفرض عليه ماري ترشيد التدخين من خمسين سيجارة يوميا لخمسة فقط؟ لقد استغلت الحبيبة الماكرة وعكته الطارئة لتثأر من تدخينه الشره، هي ذاتها تدخن ولكنها لا تتجاوز سيجارتين أو ثلاثة يوميا، وقد تنقطع أياما فلا تدخن أبداً. قالت له مرة وهما في يوركشاير "شيئان يبدآن بحرف (S) سيقتلانك يوما".

كانت تشير للتدخين والحلوى (Smoking and Sweets)

فأجابها ممازحا "دعيني أتم معلومتك، ثلاثة أشياء تبدأ بحرف (S) أرحب بأن تقتلني، التدخين والحلوى و.. وحمي أنت الثالثة".

شعر بشوق لرؤيتها، فقام ودخل إلى الصالة ووقف بجوار مائدة السفرة، يتأمل المستشرقة الإنجليزية وهي تتراقص كفراشة في المطبخ مع أوانيها والمغرفة بيدها، بينما تستمع للموسيقى من سماعات على أذنيها، جميلة ورشيقة كحلم من أحلام الربيع، كانت تقطع جبلا من شرائح الخيار والطماطم، لا يحب عادة سلطة الخضروات، غير أن لسلاطة ماري مذاق آخر، حاولت عزة تقليدها وأخذت من ماري قائمة الإضافات، ثم صنعتها له فلم يستسغها، يومها علقت عزة قائلة "السر ليس في السلطة والخضرة يا ابن أمي، لكنه في الوجه الحسن".

والحق ما قالته، فهي ماري الفريدة بين النساء ونسيج وحدها بين البشر، خفة ظل بغير تفاهة، ثقافة بغير حذلقة، دلال بغير ابتذال، جمال بغير تيه، رقة بغير اصطناع، وقامة فارهة كالنخيل، هكذا فكر علي قبل أن تقفز لرأسه أبيات نزار قباني "من يا ترى اخترع القصيدة والنبيذ وخصر مايا؟ مايا لها نهدان شيطانان همهما مخالفة الوصايا، الشمس تشرق دائما من ظهر مايا" فهل من مجنون عميق وصريح غير نزار يكتب قصيدة

في امرأة تحت الدش؟

هكذا فكر علي، وحين شعر بجموح أفكاره استدار عائدا للشرفة قبل أن تشطح الأفكار وتسوء العواقب، هنا جاءه صوت ماري من خلفه وفيه رنة ضاحكة "الحمد لله أن التلصص انتهى قبل أن يقبل عزازيل فيصدق فينا حديث الخلوة". الماكرة الإنجليزية كانت تراقب وقفته بحدسها الأنثوي وهي توليه ظهرها، استدار واتجه نحوها وهو يقول "التلصص يكون على الحمامات أو غرف النوم وليس على المطابخ".

"ليس بالضرورة، قرأت ذات مرة عن جاذبية المرأة في المطبخ، لأن الرجل لا ينسى أحلام مراهقته التي كانت الخادمة هي بطلتها في أغلب الأحوال"

"لم يكن في بيتنا خادمات، بل مربية من قريتنا، وعلى كل حال أنا مريض بالقلب، ويمكن تصنيفي تحت بند غير ذوي الإربة في النساء"

"كف عن هذا الكلام أرجوك، قلبك بخير وكل ما تحتاجه هو تعديل نمط حياتك"

"على ذكر نمط الحياة، هلا شاركتني تمشية سريعة على البحر؟" قالها بمكر طفولي فأجابته "علي إتمام الطعام، وحذائي الرياضي ليس معي، فلتذهب أنت، المشي سيفيد دورتك

الدموية"

"لن أتأخر إذا، ساعة على الأكثر". وخزه ضميره وهو يستدير متجها لغرفة نومه ليبدل ملابسه، فهو يكذب ويترك المرأة الرائعة التي أتت لترعاه حتى يدخن ويفكر بحرية، فاعتذارها كان ما خطط له في اللحظات الماضية، يعلم أنها لا تحب شمس الظهيرة ولا تحب ترك عمل قبل أن تتمه، ولم يكن أمامه غير تلك الكذبة التي يحب أن يراها بيضاء ليتابع الفكرة التي خطرت له، يؤنبه ضميره لأنها وافقت بهذه البراءة العذبة، ولولا أنه يحتاج بالفعل لهذه الدقائق بدون قيود لتراجع فورا، لماذا نشعر بالندم حين نكذب على من يصدقنا؟ حمد الله لأنها لم تطلب وعده بخصوص الدخان، كان هذا سيفوق احتماله وينهار معترفا بالمؤامرة كلها.

هكذا حدث علي نفسه أو الأنا بلغة علم النفس، فأجابته الأنا العليا[١١٢] بحدة قائلة "كف عن هذا، أنت تحاول التفكير في أن ضميرك يؤنبك كذريعة أخلاقية لكذبتك، وكأن مجرد تأنيب الضمير على الخطأ يجعلك تحتفظ باحترامك لنفسك، هذا خطأ يا عزيزي، ومن الأفضل أن تتذكر أنه خطأ ترتكبه

---

[١١٢] مفهوم في علم النفس يقترب من مفهوم الضمير لكنه أكثر شمولا

بسبب ذاتك العنيدة السخيفة، ولا شيء يعفيك من إثم الخطأ والكذب وخداع تلك الرائعة التي تركت حياتها لترعاك في مرضك" هنا عادت الأنا متغافلة عن تعليق الأنا العليا. جيدا جدا أنه ترك اللابتوب في سيارته بأسفل، كان من الصعب أن يجد طريقة ليخرج به وقد ادعى أنه يعتزم المشي على البحر، ارتدى ملابسه الرياضية ثم ألقى التحية على ماري وهو يمر أمام المطبخ نحو باب الشقة، هبط سلالم الأدوار الأربعة بهدوء نوعي احتراما لفترة نقاهة قلبه، وتمهيدا لتلقي هذا القلب المسكين جرعات من النيكوتين يقولون أنها ترهقه كثيرا، كم تتغير الحقائق عبر الزمن، في الستينات قام طبيب سويسري ببحث ادعى فيه أن النيكوتين والكافيين معا ينشطان عضلة القلب، واليوم فهمنا أنه لم يكن تنشيطا ولكنه إرهاق وتسارع مرضي في النبض.

عندما تجاوز باب البناية القديمة وعبر الشارع نحو محطة الترام، ندت منه التفاتة نحو شرفة شقته، كمراهق يتأكد أن والدته لا تراقبه من الشرفة، وعندما أقبل الترام الأزرق قفز في أول عربة أمامه، ثم تراجع حين لاحظ نظرات النسوة بالداخل والتي فهم منها فورا أنها عربة السيدات، متى سيتعلم النظر على جدار العربة الخارجي قبل الركوب ليتأكد أنها ليست عربة

سيدات؟ حين صعد إلى العربة التالية كانت هناك العديد من المقاعد الخالية، لكنه فضل الوقوف، في الماضي لم يكن غريبا أن يستقل أستاذ جامعي تراما، أما اليوم فيجد البعض هذا التصرف غريبا في زمن قسمت فيه الأفعال ليس لحلال وحرام، أو لائق وغير لائق، أو أخلاقي وغير أخلاقي، ولكن إلى ستايل وبيئة! مفهومان من مستحدثات عصر ما بعد الانفتاح لم يفهمهما أبداً، فهو علي حين يركب الترام، وهو علي حين يستقل تاكسيا وعلي حين يقود سيارته. من نافذة الترام تابع المرئيات التي ألفتها عيناه بين بيته ومحطة الرمل، فلاحظ تغييرا في محل لملابس السيدات، تغير لمحل ملابس محجبات ومنقبات، حتى اسمه تغير ليصبح: **المنتقبة**! طالع اللوحة التي تحمل الإسم الجديد بعجب وهز رأسه، يعرف صاحب المحل، مغامر مشهور بغزواته النسائية في المجتمع السكندري، حتى قيل أنه فتح محل ملابس السيدات لمزاجه الخاص، ترى هل تغير كل هذا فجأة؟ يتذكر أبياتا لشاعر يدعى شريف المنياوي، يقول فيها "**يعرف يزمر لكل اليهود، ويمسك كمنجة ويلعب بعود، ولو مصر دي يحكموها اليهود، هيصبح يهودي وممكن حاخام**".

بعد لحظات كان الترام يمر أمام محطة إبراهيم باشا التي تغير اسمها الرسمي ليصبح القائد إبراهيم، لا بأس بحذف الألقاب التي تلت أسماء باشوات كثيرين، لكن مع نابليون الشرق العظيم

كان يجب أن نضيف لألقابه لا أن ننتقص منها، خاصة في زمن ينتحل فيه أي ضباط شرطة حديث التخرج هذا اللقب، طيب الله ثراك يا قائدنا المظفر، يا فارسا دك الدرعية ومعها الوهابية في مهدها، جنات مكان إبراهيم باشا[١١٣]، ترى ما رأي الوهابيين فيه؟ لابد أن له عندهم لقباً آخر غير نابليون الشرق، ما أثقل أن يمضي الإنسان في الحياة محملا بخبرات الماضي! لماذا أدمن منذ صغره أن يبحث في أصل كل الأشياء وكل الأسماء؟ طار من الفرح يوم أهداه والده نسخة قديمة من الموسوعة البريطانية، اشتراها له مستعملة من شارع النبي دانيال هنا في الإسكندرية خلال إجازة الصيف، هكذا كان يفكر حين توقف الترام في محطة الرمل، وفي المسافة التي قطعها سيرا على قدميه من المحطة، وحتى استقر على طاولته الأثيرة في مقهى تريانون، كان سابح الذهن مع إبراهيم باشا ونمروانه الثانية. ولم تمر لحظات إلا وكان قد شرع يكتب على حاسبه مقالا لم يخطط له قبل تلك اللحظة!

"كانت الوهابية دعوة إصلاحية في مهدها، متطرفة في صباها، وصولية سلطوية في نضجها، ثم ظلامية مرفوضة من العالم في شيخوختها، أفرزتها الحاجة لتحديد العقيدة بجزيرة العرب، تلك العقيدة التي انحرفت في ذاك الوقت نتيجة للأمية المتفشية بين البدو، تحول بينهم وبين الفكر الديني في منابعه،

---

[١١٣] دعاء بالتركية العثمانلية القديمة معناه أسكنه الله جناته

فيصبحون نهبا سائغا للبدع والضلالات، حتى كادت الوثنية تبعث من جديد في مهد الإسلام، فظهرت هذه الدعوة التي كان التوحيد شغلها الشاغل، وفيه كتب مؤسسها **محمد بن عبد الوهاب** مصنفه الأول، فأسماه: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وقد بقيت دعوة مصلحة ما بقيت دعوة محلية لتأصيل التوحيد في نجد وما حولها، يأخذ منها الناس ما أرادوا ويطرحون منها ما خالف رأيهم، حتى دخلت طرفا في حلف سلطوي فانحرفت لطريق الخوارج. يوم تصور مؤسسها، بكل أسف، أن الخير كل الخير في فرض دعوته على رقاب الناس بالإكراه، وليته اتبع منهج إمام المدينة **مالك بن أنس** حين طلب منه **أبو جعفر المنصور** أن يكتب كتابا يجمع فقهه وما صح عنده من حديث رسول الله ليحمل الناس عليه، فقبل المهمة وكتب الموطأ، لكنه رفض أن يفرض مصنفه على رقاب المسلمين[١١٤]، مصرا على ثقافة التعدد التي كانت عمادا من عمد الفكر الديني القويم.

تولى **محمد بن سعود بن مقرن** إمارة الدرعية[١١٥] عام ١٧٢٧م، لكن طموحه كان أكبر من إمارة صحراوية منعزلة، فعقد حلفا مع مؤسس الوهابية بعد أن استقدمه من العيينة

---

[١١٤] (١٠٧)

[١١٥] ضاحية قريبة من الرياض لا تزال بها آثار العاصمة القديمة لآل سعود

للدرعية عام ١٧٤٤م فيما عرف باتفاق الدرعية[١١٦]، والذي نص على مناصرة محمد بن سعود للمذهب الوهابي، بما في ذلك فرضه بالقوة الجبرية على مناطق حكمه، مقابل دعم شيخ الوهابية لحكم ابن سعود للجزيرة العربية كمملكة موحدة، بتوفير الحجة الشرعية التي تؤهله لذلك، وضمان ولاء من له من أتباع ومريدين في أرجاء نجد والإحساء، والأهم من هذا كله أن يقر الشيخ لأمير الدرعية بصلاحية جمع الزكاة قسرا من كافة أرجاء جزيرة العرب، بصفته ولي الأمر الشرعي، المؤسسة شرعيته على الحكم بشرع الله، بينما بقية الحكام يخالفون الشرع، فلا سمع لهم عند الناس ولا طاعة، وهكذا توفر لابن سعود الدعم المالي والأنصار، فضلا عن الغطاء الشرعي لمشروع دولته الموحدة، فضم جيشه بعد هذا الاتفاق نجد والإحساء، وأسكر النصر السعوديين، كما راقهم دور المدافعين عن الإسلام وحماة بيضته، فانصرفت أعينهم من الجزيرة القاحلة إلى العراق الخصب، والذي عانى من فراغ السلطة في ظل الوهن العثماني، وكانت ذريعتهم لغزو العراق هي مناهضة ما أسموه بدعا شيعية، فتوجهت حملة بقيادة **عبد العزيز بن محمد بن**

---

[١١٦] عن الموقع الرسمي لإمارة الرياض عن تاريخ الدرعية:
http://www.addiriyah.org.sa/main.htm

سعود لكربلاء والنجف لتدمير العتبات المقدسة الشيعية، فهدموا الضريح الحسيني وذبحوا ألفين من شيعة كربلاء[١١٧]، وترتب على هذه المذبحة اغتيال عبد العزيز الأول هذا بيد شيعي عراقي[١١٨] ينتقم لأهله المغدورين، فخلفه ولده **سعود الثاني** في الحكم، وفي عهده امتدت سلطة السعودية الوهابية للحجاز، ونتيجة الفوبيا المرضية من الأضرحة، تجرأ الوهابيون على هدم قبر أم المؤمنين **خديجة** بمكة وهدم أضرحة حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وجميع أضرحة البقيع مثوى وجوه الصحابة والشهداء، ثم هدموا مسجد السيدة فاطمة الذي بني مكان بيتها، وحتى مسجد النبي لم يسلم من هجمتهم البربرية، فنهبوا نفائسه الروحية والتاريخية، وكان بينها تاج أنوشروان الذي غنمه المسلمون في القادسية، وسيف ذهبي أهداه هارون الرشيد للمسجد، فضلا عن كل سجاد المسجد النفيس وقناديل من ذهب كانت تضيء في سقفه، وادعى الوهابيون أنهم باعوا كل هذا وفرقوا ثمنه على فقراء المسلمين[١١٩]! وبلغ السيل منتهاه حين منعوا الحجاج المصريين والشوام من الحج عام ١٨٠٧م

---

١١٧ (٧٧-١٣٣)

١١٨ (٧٨)

١١٩ (٧٩)

بدعوى أنهم أهل شرك، لوجود أضرحة في بلادهم، وتكرر هذا عام ١٨١٠م، فاستجاب **محمد علي** والي مصر مع هذا الخطب الجسيم للدعوات المتكررة من الآستانة، والتي علمت ألا قاهر لآل سعود غير جيش مصري، فألحت تطلب هذا من والي مصر ومؤسس نهضتها الحديثة، وأرسل محمد علي ولده **طوسون** على رأس حملة تحركت من مصر عام ١٨١١م، فحققت بعض الإنجازات العسكرية، تصالح طوسون بعدها مع الوهابيين على شروط معقولة، لكنهم لم يلتزموا بها وحاولوا التدخل في شئون الحجاز مرة أخرى، فرماهم محمد علي عام ١٨١٨م بحملة جعل على رأسها أعظم قواده، ابنه الأكبر إبراهيم باشا، فكانت الفاقرة! استرد منهم نابليون الشرق الحجاز ونجد وحصرهم في الدرعية، ثم أصلاهم فيها وابل المدفعية حتى استسلم السعوديون وسلموا عاصمتهم، فأخلاها إبراهيم باشا ثم دمرها رمزا لدمار دولة التطرف، فكان يوم التاسع من سبتمبر عام ١٨١٨م هو يوم النهروان الثانية، وفي نهاية الحملة المظفرة، والتي عطلت الزحف الوهابي على العالم العربي والإسلامي لعدة عقود، أرسل إبراهيم باشا كبار الأسرى ومنهم **عبد الله بن سعود** وأعيان عائلته لأبيه في القاهرة، فأكرمهم محمد علي كما ينبغي للأسرى أن يكرموا، ثم أرسلهم للسلطان العثماني في استانبول، حيث أعدم عبد الله بن سعود بعد محاكمته في ديسمبر من نفس

العام، وبنهاية العام كانت الحجاز ونجد والإحساء تابعة للدولة المصرية[١٢٠]، فعاد القائد الجليل لمصر مظفرا بعد أن فتح الحجاز لكل الحجيج المسلم من جديد، لا فرق فيه بين سني وشيعي، أو بين مصري ونجدي.

قامت الدولة السعودية الثالثة بعد المعاهدة الأنجلو-نجدية الشهيرة عام ١٩١٥م[١٢١]، فساعدت القوات الإنجليزية أمير الرياض **عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود** على إنهاء حكم الأشراف في الحجاز، ثم وحدت المملكة تحت رايته عام ١٩٢٥م، حيث قاد الكابتن الإنجليزي **ويليام شكسبير** ثم البريجيدير **جون فيلبي**[١٢٢] قوةً إنجليزية مع بعض أفراد القبائل المسلحين، وسمي هذا الجيش مجازا بجيش ابن سعود، وهو الاسم الذي يظهر به الملك عبد العزيز آل سعود في المكاتبات البريطانية والأمريكية الخاصة بتلك الحقبة، واستمرت مصر في تقديم العون لشعب الجزيرة الذي نسب لآل سعود فأصبح اسمه الشعب السعودي، فاستمرت التكية المصرية تقدم الطعام لفقراء الحجاز على مدار العام فضلا عن الحجيج في الموسم، واستمر

---

[١٢٠] (٨٠-٨١)

[١٢١] (٨٢)

[١٢٢] (٨١-٨٣-٨٤-٨٥-٨٦)

طبيبها مصدرا وحيدا للخدمة الطبية الحديثة لأهلها، واستمر الخزان المصري في منى مصدر الماء العذب الوحيد الكافي للحجاج في الموسم، وظل المحمل المصري يحمل كسوة الكعبة كل عام لأم القرى، إذ كانت المشاركة في نسجها شرفا تتنافس فيه بنات العائلات والأميرات المصريات، والشكل الذي ألفه العالم لكسوة الكعبة بلونه الأسود والآيات المشغولة بخيوط الذهب هو تصميم مصري محض.

حين استقر الأمر لحلفائهم من آل سعود عام ١٩٢٥م، أعاد الوهابيون ما اقترفوه في نهايات القرن الثامن عشر، فهدموا قبور السيدة خديجة والسيدة آمنة أم الرسول بعد أن كان الأشراف قد أعادوا بناءها، وردموا غار حراء وسدوه بالحجارة! قاموا بهذا بغير إذن الملك عبد العزيز الذي صرح بحزنه على هذه الآثار الروحية، ووعد بإعادة بنائها، لكنه لم يفعل أبدا، لأنه مقيد بحلف أجداده مع الوهابيين من نسل محمد بن عبد الوهاب المسمون بآل الشيخ، مما جرأ الوهابيون على المضي قدما فاعتدوا على المحمل المصري عام ١٩٢٦م بإطلاق الرصاص عليه، فسارع الأمير سعود بن عبد العزيز لزيارة الملك **فؤاد** ملك مصر في القاهرة معتذرا عن هذا السفه الوهابي.[١٢٣]

---

[١٢٣] (٨٧)

واستمرت التفاعلات بين مصر والسعودية، فكان صراع الستينات حين كانت مصر مناوئة للسيطرة الأمريكية على موارد النفط العربي في الخليج، صراع مرير حاربت فيه مصر كلا من السعودية واسرائيل في ذات الوقت عام ١٩٦٧م[١٢٤]، فكانت تحارب جيش المرتزقة البلغار الذين اكتراهم **فيصل بن عبد العزيز** في ذات الوقت الذي دارت فيه المعارك مع جيش الدفاع الاسرائيلي في سيناء.

ثم جاء شهر العسل المر في السبعينات، حين أصبحت أمريكا حليفا مشتركا يملك ٩٩% من أوراق اللعبة، وقارب الحلف المخابراتي الشيطاني المسمى بنادي السفاري[١٢٥] بين مصر السادات وسعودية فيصل، فسمعنا أن أخانا فيصل[١٢٦] يستشار في أمور الدولة المصرية، وبدأ تصدير الوهابية لمصر مع طوفان عقود العمل للفئات غير المتعلمة والنصف متعلمة، ممن يسهل غسل دماغهم وإعادة شحنهم للوطن بجلباب قصير وشماغ ولحية وفكر معوج، كل هذا فضلا عن طوفان الشرائط والكتيبات المجانية التي احتلت الأرصفة ورفوف المكتبات ومازالت، وهكذا تم إجهاض المقاومة المصرية لأمركة المنطقة،

---

[١٢٤] (١٤٦)

[١٢٥] (١٤٧-١٤٨-١٤٩)

[١٢٦] الملك فيصل بن عبد العزيز كما كان الرئيس المصري أنور السادات يسميه

بتحويل الدين من طاقة نضال تحمس استقلال الوطن إلى حلقات طقسية تشغل الفرد عن جوهر الدين وجوهر الدنيا معا، بل وتم إجهاض النهضة الحديثة التي بعثتها الثورة اقتصادا وسياسة وفكرا، فإذا بنا نعيش في زمن ينكر فيه مصريون، من مريدي النفط، علاقة الاستعمار بعروش البترول، فيدافعون عن تلك العروش ويدعونها حامية للعروبة والإسلام، فليتهم يسمعون جون فيلبي ضابط المخابرات الانجليزية والعقل المخطط لقيام الدولة السعودية الحديثة وهو يقول "أصبحت مهمتي المكلف بها هنا بعد مقتل الكابتن شكسبير قائد الجيش السعودي، هي الدعم والتمويل والتنظيم والتخطيط لإنجاح ابن سعود في مهمته"[١٢٧]، وليتهم يقرأون ما كتبه **حاييم وايزمان** رئيس اسرائيل السابق في مذكراته "إنشاء كيان سعودي كان مشروع بريطانيا الأول في المنطقة"[١٢٨]، أو يعون قول **ونستون تشرشل** في مذكراته "أريد أن أرى ابن سعود سيداً على الشرق الأوسط، ومتى أمكنني التنسيق مع روزفلت لتحقيق هذا فليس هناك مستحيل حين نعمل لتحقيقه معا".[١٢٩]

ومن نافلة القول أن فصائل وجماعات الإسلام السياسي كانت عراب شهر العسل المر بين الأرضين، والحليف المخلص

---

[١٢٧] (٨٤-٨٦)
[١٢٨] (٨٩)
[١٢٩] (٨٨)

للعروش البترو-أمريكية، وكان دورها في تغيير المجتمع حيويا لتضمن قوى اليمين المتطرف عالميا ألا تخرج من مصر ثورة جديدة تجابه خططهم بمقاومة عنيدة، وتلهم الشعوب التابعة بالقاء نير التبعية من عنقها كما فعلت مصر الخمسينات والستينات. وكم تشبه الليلة البارحة؟ التطرف وملاك الحقيقة المطلقة[١٣٠] هم ذاقم في النهروان وحروراء والدرعية والرياض والزاوية الحمرا وإمبابة وجبال أفغانستان، الخوارج هم الخوارج، لكن من لنا اليوم بيقين علي بن أبي طالب أو عزم إبراهيم باشا؟ ولو حدثت المعجزة وولد بيننا القائد، فهل تتوفر له الإمكانات لمواجهة الخوارج الجدد وحلفائهم؟ في إجابة هذا السؤال تكمن مأساتنا، نحن أهل الأرض الواقعة غرب البحر، **كانت هذه يا سادة حكاية أرضين يفصل بينهما بحر!"**

بهذه العبارة أنهى مقاله الذي كتبه لفوره على اللابتوب، ثم أغلقه ليكتشف أن شايه أصبح مثلجاً، فطلب من النادلة تغييره، وانتبه لأنه أهدر قرابة الساعة في كتابة مقال من وحي مسجد إبراهيم باشا، لا يحتاج للمقال ولن يتمكن في الأغلب من نشره، فنشر المقال في أي جريدة سيوقف توزيعها في العديد

[١٣٠] تعبير ملاك الحقيقة المطلقة عنوان كتاب للدكتور مراد وهبه

من الدول العربية، والأهم أنه خرج من بيته لغير هذا، لكن هذا هو علي، رجل يركبه عقله ويحركه، ولا يستطيع لهذا الفارس القابض على لجامه إلا طاعة وخضوعا.

في هذا كان يفكر، بينما نادلة شابة تصب له الشاي الساخن في كوب زجاجي، شكرها ثم أشعل سيجارة، وعاد بأفكاره للأمر الذي دفعه للخروج، لقد بدأت الأحلام في لندن حين وصل ببحثه للمرحلة الثالثة من طرحه التاريخي، كانت أول ليلة يرى فيها الإمام علي في نومه هي الليلة التي انتهى فيها من كتابة بحثه عن السياسة الاقتصادية لأبي بكر وعمر وتوافقها مع سياسة علي في خلافته، وتوافق الثلاثة مع السياسة النبوية. في تلك الليلة رأى في نومه الإمام علي يصافح شيخا في ستينات العمر ويربت على عضده بود ظاهر وصفاء، فرسخ بوعيه أن هذا الشيخ هو أحد الخليفتين أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما، ثم غلب على ظنه أنه عمر لطول قامته، الإمام والفاروق يقفان في صحراء واسعة، ويطول بينهما الحديث، فلماذا في هذه الليلة تحديدا رأى هذا الحلم؟ لقد اعتبره وقتها نتيجة لنشاط عقله الباطن، فهو يرى أن عداء الإمام علي للشيخين فرية تاريخية، ولهذا صور عقله اللاواعي الإمام مصافحا أحدهما، لكن اليوم وبعد أن طالت الأحلام وتعددت،

أليس له أن يعيد النظر في هذا التأويل المبسط لحلمه؟ لقد ربط الحلم بالنقطة التي تناولها يومها عن السياسة الاقتصادية للشيخين، لكنه في ذات اليوم وفي معرض بحثه لذات المرحلة، تناول دور الخوارج فيها، فهل يكون الحلم تعزيزاً لهذه الرؤية؟ لماذا ترتبط أحلامه بالخوارج والأمويين تحديدا وبمعارك الإمام معهما؟ لم يحلم بمعركة الجمل مثلا[٣١]، فهل هناك رابط مباشر بين الخوارج والأمويين؟ بين المتطرف والبرجوازي بلغة زماننا؟ هل التحالف قديم لهذه الدرجة؟ كل الاحتمالات ممكنة، لكن استمرار الأحلام حول الخوارج والأمويين يدعم الربط بينهما، الشر أمه واحدة.

---

[٣١] سميت الموقعة بالجمل لأن عائشة كانت تركب هودجا من حديد فوق جمل، يلتف حوله المقاتلين من أهل المدينة والبصرة، وفيها خرج طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام مع أم المؤمنين عائشة لحرب علي تحت شعار المطالبة بدم عثمان، فانتصر علي وقتل طلحة ورجع الزبير و لم يشترك في المعركة حين ذكره علي بحديث للرسول أخبره فيه أنه سيقاتل عليا و هو له ظالم، فانتهز أحدهم منه غيلة وهو بعيد عن المعركة فقتله، ورد الإمام عائشة إلى المدينة معززة مكرمة (٢–٨–١٨)

(١٦)

خبز وكرامة

على حافة الفراش جلس الشاب الأسمر منطويا على ذاته، يدفن رأسه بين ركبتيه، خليجي في مطلع العشرينات من عمره، عارٍ إلا من بوكسر صغير مخطط بألوان العلم الأمريكي، تحتل النجوم التقليدية فيه المساحة فوق إليته اليمنى، يشي اهتزاز جسده النحيف ببكاء صامت، ويظهر خلفه زياد ممددا فوق الفراش بجذعه العاري، بينما تغطي البطانية الصوفية الرقيقة بقية جسده، صامتا يدخن سيجارا وهو غارق بعرقه، تمر دقائق قبل أن يرمق الشاب ويقول بضيق ظاهر " والآن لماذا تبكي؟"

"وهل تتوقع أن أرقص طربا لما حل بي؟" قالها الفتى بعد أن رفع رأسه قليلا وانحرف بها جهة اليسار ليسمعه زياد الذي أجابه قائلاً "أنت مرهق فقط، هذه أمور تحدث"

"لكنه اليوم الثالث، لست أنا، لم يحدث لي هذا أبداً". هكذا قال الفتى منفعلا وهو يجهش ببكاء علا صوته، ليزيد من توتر زياد وضيقه بالموقف كله، لكنه حاول أن يسيطر على نبرته، فهذا الفتى كان جيدا بما يكفي بالفعل حتى الأيام الأخيرة، وهو لا يكلفه مليما على عكس سلفه، كل ما تكلفه لأجله بعض المساعدة الدراسية، لهذا قال متكلفا الحنان وهو يلمس كتف

الفتى من الخلف "أنسيت أني طبيب؟ غدا آتيك بعلاج تنسى بعده أفكارك السوداء".

ينتفض الفتى مع لمسة يد زياد واقفا ويرد بحزم وسرعة رغم البكاء "لا غدا ولا بعد غد، سأرحل للأبد، قاتل الله شيطانك". لم يعد اصطناع الهدوء والحنان مجديا، فصارت لهجة زياد حادة قاسية وهو يقول "لا داعي لهذه النغمة السخيفة، لم أجبرك على شيء، وتذكر أنك تحدث أستاذك".

"لن تسمع النغمة السخيفة ولن تسمعني ثانية". قالها الشاب وهو يلملم ملابسه ويتجه للحمام ليرتديها قبل أن يخرج. "فلتذهب درجات العملي والشفوي والبكالوريوس نفسه للجحيم لو كان هذا هو الثمن" هكذا فكر الفتى وهو يستقل سيارته الجي إم سي الأمريكية الحمراء عائدا لشقته المؤجرة في المهندسين. حين وصل طالب الطب المغترب لبيته، وضع رأسه تحت الماء البارد فترة ليطرد أثر الخمر منها، ونوى أن يعود للانتظام في الصلاة، وأن يقوم بالعمرة فور عودته في الإجازة الصيفية حتى يمحو أثر الخطيئة التي عاشها مع أستاذه الجامعي الهلوك، فقد ارتكب ذنبا كبيرا يهتز له عرش الرحمن. فعلها قبل ذلك مرة منذ سنوات عندما خرج مع رفاقه للبر[١٣٢] ثم تاب واعتمر كما نصحه شيخه وقتها، و لم يعد إليها حتى أغواه هذا

---

[١٣٢] الخروج للصحراء بلهجة البادية

الشيطان، أغرته فكرة مضاجعة أستاذه المصري، وشعر كأنه ينتقم من المدرس المصري في المدرسة المتوسطة، والذي كان يسخر منه حين يتعتع في اللغة العربية، لم يتصور أن يكون انتقام الله منه فادحا لهذه الدرجة.

في هذا الوقت، كانت عزة الإمام في بيتها بالمنيل قد صنعت لنفسها كوبا مترعا بعصير الليمون الذي تحبه، واستلقت على أريكة الأنتريه العتيقة من طراز لويس الرابع عشر، أمامها على طاولة الأنتريه نسخة من رواية **مدن الملح**[١٣٣]، وفي يدها كتاب تقرأه للمرة الثالثة: **شرخ في محور الشر** هو كتاب نشر لأخيها عام ٢٠٠٣م بعد الغزو الأمريكي للعراق، ذبحه الألم مع أحداث الغزو فسجل صراخه في هذا الكتاب الذي نشره في لبنان حين أعجزه النشر في مصر، فقد شعرت بحاجتها لمراجعة بعض النقاط في كتاب أخيها وهي تقرأ مدن الملح، أو لعلها اشتاقت كلماته بعد أن طال غيابه في الإسكندرية، بلد المحبوب كما كانت تقول له مداعبة.

بعد أن قرأت ما أرادته من نقاط في فصل الكتاب الخامس بعنوان: **المظهر الإسلامي والجوهر الأمريكي في حياة المدن**

---

[١٣٣] رواية لعبد الرحمن منيف حول التغيرات الاجتماعية المصاحبة لعصر النفط في الجزيرة العربية

النفطية، عادت لتقرأ مقدمة الكتاب التي تكاد تسمع صوت علي ينطق بها وهو يقول "كانت طائرات الإرهاب التي ارتطمت بمركز التجارة وصفعت كبرياء البنتاجون تابعة بالفعل لمحور الشر كما قال الرئيس الأمريكي، لكن هذا المحور يبدأ من الساحل الشرقي للولايات المتحدة ذاتها، حيث تقع مؤسساتها الاقتصادية المتعملقة التي تحكم العالم، ثم يمتد المحور عبر الأطلسي ليأخذ راحة ترانزيت قصيرة في لندن، قبل أن يتجه للجزيرة العربية، ثم تتفرع منه روافد صغيرة لمصر والأردن والسودان، لتغذي جماعات الإسلام السياسي والعنف في هذه البلاد. قبل ١٩٧٩م كانت المحطة التالية للجزيرة هي إيران الشاه، أما اليوم فمحور الشر يتخذ طريقه مباشرة نحو مركز الدعم اللوجيستي في كراتشي، مدينة المال والتجارة الباكستانية، والتي طالما تعاونت على استحياء مع الحلف الذي تقوده أمريكا، ثم يصل إلى محطته الأخيرة في كابول، حيث مفرخة الإرهاب التي صنعتها أمريكا في الماضي لاصطياد السوفييت.

تطلب تكوين هذا المحور جهدا كبيرا استمر بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهايات السبعينات، حتى صار المحور كأفعى أسطورية، ثم بدأ التوتر يظهر عبر جسد الأفعى الممتد والمتعملق في الثمانينات والتسعينات، كأي تحالف يقوم على المصالح

فقط، وبغير مبدأ أو قيمة مشتركة، فقد كثرت الانقسامات الداخلية والصراعات الطرفية في محور الشر ذاك، حتى وقعت الواقعة في الحادي عشر من سبتمبر، وانقلب ذيل الحية ليلطم رأسها، فما كان من أمريكا إلا أن قصفت مفرختها الخاصة في أفغانستان، ثم استدارت تصرخ في وجه السعودية (والتي انتمى اليها أغلب مرتكبي جريمة سبتمبر) قائلة: إن الوهابية السعودية هي السبب، فدافعت السعودية عن وهابيتها، وأجابت على الأمريكان قائلة: بل جماعات الإسلام السياسي في مصر وغيرها، والتي طلبتم منا رعايتها منذ الستينات وحتى اليوم هي السبب، وخرجت تصريحات وزير الداخلية السعودي عام ٢٠٠٢م بمثابة إعلان رسمي لنهاية شهر العسل بين هذه الجماعات وبين السعودية، إذ أعلن وزير الداخلية الجالس على تلال المعلومات أن الإرهاب في الشرق الأوسط، وما سمي بالإرهاب الإسلامي في العالم، هو الافراز المباشر لتلك الجماعات"[١٣٤]

وضعت عزة الكتاب مفتوحا على الطاولة وأطرقت في وجوم طفيف، أكثر ما يضايقها أن يلصق فرد أو جماعة سلوكه بالدين ظلما وعدوانا، ربما لتجربتها الخاصة، وربما لما شهدته في

[١٣٤] تصريحات وزير الداخلية السعودي في فبراير ٢٠٠٢ في جريدتي الشرق الأوسط والسياسة الكويتية

العشر سنوات الأخيرة من تحور مرضي في المجتمع، تحول من شخصية المصري الطيب المتدين في هدوء عميق، والمتقبل للآخر الديني والآخر العرقي بكل أريحية لشخصية المصري الذي صار الدين عنده مظاهرة في ميدان عام، ظاهرة صوتية بلا مضمون أخلاقي ولا حضاري.

رفعت كوب العصير لتجرع ثمالته قبل أن تقوم لتصلي العشاء وتنام مبكرا كعادتها، عن هذا كانت تقول "أنا كمصر التي رأيتها وأنا طفلة في قرية أبي، سمر قصير بعد العشاء وبعده تنام لتقوم مع أذان الفجر، فتملأ البيت برائحة الخبز الساخن، وتغسل هموم الدنيا بصفاء الحليب، ثم تملأ أرض الحقل بالبذور . التي تطرح الخير غدا وبعد غد". وهكذا كانت بحق.

في شقته التي خصصها لمجونه في مرتفعات القطامية، استلقى زياد على ظهره في سأم وفي يده كأس الفودكا الممزوجة بعصير البرتقال، يفضلها لأنها لا تترك رائحة قوية في الفم، كان يواسي نفسه لخسارة الفتى، فلم يعد الصيد من الشوارع ولا ارتياد مقاهي الشواذ في مصر الجديدة أو المعادي مناسبا له منذ سنوات، فعليه الاعتماد على الصدفة لتلقي أمامه بمن يصلح، وهذا يعني شهور من الحرمان، ربما عام أو أكثر، فقد شارف على الخمسين ولم يعد يجد من يقبل بسهولة، سحقا لهذا الغبي

الذي ارتعد مع أول منعطف وقرر أن يتركه، سحقا لكل شيئ.

جاءت النادلة بالقهوة من بن غامق كما طلبها وصبتها في فنجان يحمل علامة المقهى السكندري العريق، أخذ علي قطرة ماء بطرف ملعقة صغيرة فأسقطها على سطح القهوة حتى يرسب حبيبات البن من سطحها بكسر التوتر السطحي، درس من دروس الفيزياء لم ينسه أبدا، كان يرى أثر هذه القطرة من الماء كأثر المصائب في حياتنا، تحل بنا فتحدث خلخلة حولنا، وهذه الخلخلة كفيلة بطرد الزائفين ممن يحيطون بنا، فلا يبقى في محيطنا القريب إلا أنقى خلق الله وأصدقهم.

بعد الرشفة الأولى عاد لأفكاره، فهناك مضمون عام اشتركت فيه سياسات أبي بكر وعمر وعلي، هو الالتزام ببناء مجتمع الكفاية والعدل كما بينه القرآن وطبقه رسول الله في حياته، فكما كان علي يوزع العطاء من بيت المال لكل رجل وفقا لعدد عياله[١٣٥]، كان الراشدَين الأولين على ذات المنهج وإن تباينت الطرق والفلسفات، كان الصديق أحرص الناس على سنة الرسول، فأبعده حرصه عن الاجتهاد وقربه من حرفية الاتباع، وكان هذا مناسبا لزمن ولايته لقرب العهد

---

[١٣٥] (٣٤)

بزمن الرسول. رفض الصديق مهادنة مانعي الزكاة وحاربهم كما حارب مدعي النبوة سواء بسواء، وقال فيهم كلمته الناصعة كالفجر "لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه"[١٣٦]، وما كان أبو بكر ليريق دماء المسلمين في حرب من أجل مال، لكن الزكاة هي الحد الأدنى الواجب على المسلم للتكافل الاجتماعي، ومانعها يناقض جوهر مجتمع الكفاية والعدل، فهو ينقض الدين في جوهره، ثم هي بعد ذلك رمز تبعية القبائل والعشائر للدولة المركزية في المدينة المنورة، من منعها خرج على الدولة. كذلك انتهج الصديق النهج النبوي حرفيا في توزيع الثروة، فساوى بين الناس فيما قسم لهم من بيت المال، فكان الحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير كلهم فيه سواء، ورد على من سأله عن مساواة السابقين للإسلام مع غيرهم فقال "**إنما عملوا لله وأجورهم على الله**"[١٣٧]، وهي وجهة نظر لها وجاهتها وإن غايرت رؤية الفاروق بعده. كذلك تصرف وفقا لنص القرآن وسنة الرسول في سهم المؤلفة قلوبهم، فمن المعروف أنه صلى الله عليه وسلم بعد غزوة حنين (أول غزوة شارك فيها الطلقاء من مسلمي

---

[١٣٦] (١٢-٣٤)

[١٣٧] (٥٥)

الفتح) خص حديثي الإسلام بقسم وافر من الغنائم، فلما سأله الأنصار في ذلك أجابهم بأنه يتألف قلب القوم بالمال، وقال حديثه المعروف[١٣٨]، وكان أبو سفيان وولده معاوية من المؤلفة قلوبهم فوصلهم الصديق من هذا السهم حتى ألغاه عمر في خلافته[١٣٩]، فقد تحرى الفاروق عمر العدل، مجتهدا وفقا لما رآه مناسبا لمقتضى الحال، ووفقا للمتغيرات الزمنية في زمن حكمه، فرأى أن سهم المؤلفة قلوبهم بطبيعته أمر مشروط بغاية وإن كان أحد مصارف الزكاة في القرآن، وقد انقضت غايته بعزة الإسلام وتحقق منعته، لهذا لم يتوقف عند حرفية النص القرآني وألغى هذا السهم، ثم كان له اجتهاده في تقسيم المال بين المسلمين، إذ قال "لي رأي في هذا المال: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه"[١٤٠]، ولرأيه هذا وجاهته أيضا وإن ناقض رأي الصديق، لهذا قسم العطاء في خلافته، فبدِّئ أهل بدر ثم أحد وهكذا حتى صار طلقاء الفتح في ذيل القائمة،

---

[١٣٨] لما أفاء الله على رسوله (ص) قسم في المؤلفة قلوبهم و لم يعط الأنصار، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال "أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، وإنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض" (١٢-٥٥)

[١٣٩] (٩١)

[١٤٠] (٥٥)

وكان يذكر من نسي منهم حقيقة إسلامهم في ضحى الدعوة بعد أن بلغ الأمر سنام المجد، ويرفض نهجهم المكيافيلي حتى لو كان ترضية له، فحين علم أن عمرو بن العاص واليه على مصر أقام حد الجلد على عبد الرحمن بن عمر في بيته تمييزا له عن رفاقه الذين ضبط معهم شاربا لخمر، كتب إليه خطابا موجعا يقرعه لأنه حابى وميز ابن الخليفة، مستهلا خطابه بقوله "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص"[١٤١]. هكذا كان الاجتهاد العمري موجعا للطموح الأموي، إذ حرمهم سهم المؤلفة قلوبهم، وصغر أعطياتهم من بيت المال لتأخر إسلامهم، فضلا عن تمييع طبقيتهم بتفضيل السابقين مثل سلمان وصهيب وبلال عليهم، وهم من كانوا ينظرون للناس باستعلاء في الجاهلية، حتى تأبى رجل كأبي سفيان على السابقين[١٤٢] بالأمس القريب بحكم العادة.

ثم تجاوز عمر مرحلة العدل إلى مرحلة الفضل، فطلب الكمال في بناء مجتمع العدالة الاجتماعية متجاوزا حد الكفاف

---

[١٤١] (١٥)

[١٤٢] مر أبو سفيان في خيلاء على سلمان وصهيب وبلال فقال بعضهم: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، سمعهم أبو بكر فوبخهم قائلاً: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها؟ ثم ذهب لرسول الله (ص) يقص عليه ما حدث، فقال سيد الخلق "يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك" فذهب الصديق إليهم واسترضاهم (٢-٥٥)

إلى حد الكفاية، وقد التفت بفطنته لتضخم ثروات بعض الأفراد في نهايات خلافته، مما أدى لزيادة قدرتهم الشرائية وبالتالي زيادة معدلات الأسعار مما أرهق الفقراء. وذلك فضلا عن تنوع البضائع المعروضة تجاريا في المدينة مع ازدهار التجارة مع الأقاليم المفتوحة، فزادت الضغوط على محدودي الدخل بسبب الارتفاع النسبي في مستوى المعيشة، لهذا عزم عمر على تصحيح الأوضاع ببرنامج اجتماعي يأخذ به من فضول مال الغني أكثر من الزكاة المفروضة، حتى يوفر الحياة الكريمة للفقراء، وقال رضي الله عنه "**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء**"[١٤٣]، كذلك هم أن يجعل لأيامى النساء ممن لا عائل لهن ضمانا اجتماعيا يغنيهن عن الناس، حتى لا تكون المرأة تحت رحمة وليها، فقال "**لئن أحياني الله لقابل لا أدع امرأة في العراق تحتاج أحداً غيري**"[١٤٤] لكن نصل **أبي لؤلؤة** الخبيث وجد طريقا لصدره بعدما صرح بهذين التصريحين بأربعة ليال فقط. فهل عجلت هذه التصريحات بشكل أو آخر بتحرك النصل المغتال؟ هل استشعر دعاة الطبقية خطرا من حديثي عمر

---

[١٤٣] (٨)

[١٤٤] (٨-١٢)

فقرروا الخلاص من الخليفة؟ سؤال لا سبيل لإجابته بنفي أو إثبات. لكننا نستطيع القول بضمير مطمئن، أن استشهاد عمر كان بداية الوبال الذي عاشه المسلمون قرونا حتى اليوم، وبه خسرت الأمة رجلا كانت شدته سيفا على نحور الطغاة، وكانت رحمته سندا لظهور الضعفاء والمهمشين، وسجل تاريخ البشرية ذكرى حاكم عاش فقيرا ومات فقيرا، حتى يضمن لكل فرد في شعبه **خبزاً وكرامة**.

(١٧)

كربلاء الثانية

تنبه علي لفنجان قهوته على وشك أن يبرد هو الآخر و لم يأخذ منه إلا رشفتين، فأفرغه في جوفه بسرعة، ثم فتح ملفا جديدا على اللابتوب وكعادته كتب عبارة أمامه ليركز أفكاره، فكانت "**الدور الأموي في تشويه الفكر الشيعي**" فعلاقة علي بالشيخين لم تكن علاقة عداء أو خصومة برغم خلاف وجهات النظر في أمر الخلافة والبيعة، فهذا الخلاف لم يمنع عليا وولديه الحسن والحسين بعده من تسمية الأبناء والأحفاد بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان إعتزازا وتيمنا[١٤٥]، فكأنهم أرادوا أن يتركوا لنا بينة على اقتصار خصومتهم على الأمويين حصريا، أما ما كان من خلاف مع الراشدين فلا ينقض رباطا وثيقا هو رباط المنهج القويم الذي جمعهم مع الإمام علي في طريق القرآن والسنة والاجتهاد لما فيه خير الأمة، فكيف تورط التراث الشيعي في التعدي على الشيخين بما لا يليق؟ ذلك هو السؤال.

---

[١٤٥] استشهد من آل البيت مع الحسين في كربلاء إخوته أبو بكر بن علي، و عمر بن علي، و عثمان بن علي، كذلك كان من أبناء الحسن من أسماهم بأسماء أبي بكر، و عمر، و طلحة، و سمى الحسين عمر بن الحسين (٨-١٤-٢٠-٣٤)

بدأ الأمر حين أمر معاوية بحملة دنيئة لتشويه ذكرى علي بعد اغتياله، فمن خطابه للمغيرة بن شعبة واليه على الكوفة قوله "لا تتحمّ عن شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم"[١٤٦]، والناس على دين ملوكهم، لذلك كثر منهم من استجاب لهذا الغي فتورط في سب علي واقهامه بكل باطل، فكان عامل معاوية على الري يكثر من سب علي على المنبر[١٤٧]، وكذلك كان زياد بن أبيه عامله على البصرة والكوفة يعذب ويشرد كل من يروى منقبة من مناقبه كرم الله وجهه[١٤٨]، وعلى الجهة المقابلة كان الإباء والترفع من نصيب بعض صحابة رسول الله، فها هو سعد بن أبي وقاص يسأله معاوية عما يمنعه من سب علي فيجيبه بما يفحمه[١٤٩]، ومثل هذا كان موقف العديد من

---

[١٤٦] تتوانى و تتحنب عن سبه (٨)

[١٤٧] (١٨)

[١٤٨] (١٨)

[١٤٩] قال سعد: أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله فلن أسبه، قد خلفه رسول الله في بعض مغازيه فقال علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فسمعت رسول الله يقول: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا لها فقال: أدعو لي عليا ودفع الراية إليه، ولما نزلت الاية "فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" دعا رسول الله عليا وفاطمة وحسنا وحسينا وقال: اللهم هؤلاء أهلي (٥٥)

الأسماء الجليلة مثل أبي أيوب الأنصاري وزيد بن الأرقم[150] وغيرهم، لكن هذه المعارضة من جانب كبار الصحابة لم تمنع بكل أسف رد الفعل السلبي من جانب شيعة علي، فكانوا إذا اجتمعوا في دار أحدهم يذكرون مناقب علي ويذمون معاوية وعمرا بن العاص ويعددون مثالبهما، ثم استفحل الأمر بظهور الخوارج من جديد في خلافة مروان بن الحكم، وعودتهم للانتشار في العراق والشام وشمال أفريقيا وجنوب الجزيرة، فقد عقدوا جلسات التكفير، يكفرون فيها عثمان وعلي وعائشة وطلحة والزبير فضلا عن معاوية ومن شايعه، ولا يقرون أحدا غير أبي بكر وعمر[151]، وهنا حدث الانزلاق الحقيقي، حين أراد بعض الشيعة إيذاءهم ردا على سب علي، فلم يجدوا غير سب الشيخين لأن الخوارج لا يجلون غيرهما، فلا يوجعهم إلا سبهما، وشاعت هذه الصرعة الضالة بين البعض، ولاقت ترحيبا من الأمويين لأنها أتاحت لخطبائهم وكتابهم ومحدثيهم تصوير الشيعة كأعداء للصحابة، ليصبح بذلك شيعة علي فريقا مضادا لأهل السنة والجماعة ممن يحبون الشيخين ويجلونهما، بينما الأولى أن يكون المسلمون كلهم شيعة للراشدين الذين

---

[150] (٥٥)

[151] (١٣٤)

ساروا على المنهج النبوي، فلا يبقى مع الأمويين الذين بدلوا وغيروا نهج النبوة إلا أصحاب المصالح، وهؤلاء ينتهون بنهاية زمانهم، لكن هذا مالم يحدث للأسف.

كانت هذه مؤامرة الماضي، إذ تعاون الخوارج بغير علم مع الأمويين، لينحرفوا بالفكر الإسلامي بشقيه، فيعيب الفكر الشيعي عداءه للشيخين ويعيب الفكر السني مساواته بين من لا يستوون من أطراف الفتنة الكبرى، وكما انحرف الأمويون بالفكر عن نسقه المنطقي انحرفوا بالدولة عن أهم مبادئها، وهو بناء مجتمع الكفاية والعدل، فأسسوا أرستقراطية حاكمة، تاركين عامة المسلمين ملتهين بتبادل الكراهية والسباب، بل استغل الأمويون الكراهية المتبادلة، فأشعلوا أوارها بصب الزيت على النار، ومن أمثلة ذلك خدعتهم التي أجهضوا بها ثورة **الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين**، وقتلوه في كربلاء الثانية كما قتلوا جده في الأولى، ففي عام ٧٤٠م خرج الإمام زيد بدعوة من شيعة الكوفة لمناهضة الظلم والطبقية الأموية، لكن الأمويين بثوا وقيعة بينه وبين شيعته، لأنه كان يعترف بخلافة كل الراشدين على عكس شيعة العراق الذين ضل فكرهم بسبب الضغط الإعلامي الأموي المضاد، فوجد الإمام نفسه في نفس موقف الحسين قبله، وواجه الجيش

الأموي بخمسمائة من أتباعه حتى استشهد في ثورته تلك على عهد هشام بن عبد الملك[١٥٢]، ليبقى الأمويون في سلطانهم، ويصدق فيهم قول عمر حين زار الشام، فقابله معاوية بموكب وحاشية، فقال الفاروق مشيرا إليه وهو بعد مجرد والٍ "**هذا كسرى العرب**"[١٥٣]، وقول رسول الله يوم قال "فسادُ أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش".[١٥٤]

نظر علي في ساعته فوجد أنه أهدر فوق الساعة التي استأذن ضيفته وراعيته فيها نصف ساعة أخرى، فاستخدم البث اللاسلكي في المقهى لإرسال مقاله الأخير للجريدة، مرفقا به تحية وشكر لصديقه إبراهيم لموافقته على النشر، وكان قد أوضح له طبيعة المقال الأخير في اليوم السابق حتى يكون على بينة من أمره، فقال له إبراهيم "أقول ما قاله هيكل للحكيم حين كتب بنك القلق وأراد نشرها في الأهرام: لو كانت عندك الجرأة لتكتب فعندي الجرأة لأنشر، أرسل مقالك على بركة الله، ولن أنشره وحسب، لكني سأسخر كل إمكانات الجريدة لإنجاح الفكرة، ليس من أجلك يا صاحبي، ولكن من أجل

---

[١٥٢] أحداث تاريخية موثقة (٩-١٣)

[١٥٣] (٦)

[١٥٤] (١٢)

بلدي". تذكر هذا الحوار وهو يدفع حسابه ويلملم حاجياته، ثم خرج من المشرب العريق للميدان ومنه لمحطة الترام عائدا لبيته، فقد تأخر بما فيه الكفاية، ألا قاتل الله التدخين وما يقودنا إليه من صغائر.

(١٨)

دماء في المحراب

صلاة الفجر في مسجد الكوفة، أسمع صوت الإمام علي يكبر للسجود فأسجد مع الساجدين، أسبح ثم أرفع مع تكبيرته، تلمح عيني صفا واحدا يفصلني عن أمير المؤمنين، أغمض عيني ثانية مع السجدة التالية، لكني أسمع في سجدتي دبيب أقدام وأشعر بحركة حولي، حركة عنيفة تدب أثناء الصلاة بين صفوف المصلين! كيف؟ أم أنه .. اليوم المشئوم؟ يقتحم أذني صوت فيه بحة، حاول صاحبه أن يجعله قويا وهو يقول "الحكم لله يا علي".

دق قلبي دقة عنيفة هبطت لها أحشائي، هو الفجر الأخير إذن. طنين في أذني يصمني فلا أسمع ما بعد تلك الجملة الفاجرة. صدمتني أحد الأقدام المهرولة في جانبي فتنبهت من الشلل الذي اعتراني للحظة، ورفعت رأسي، رحمتك بعبدك يا إلهي، ياالهوله من مشهد! الجلال والوقار مع البشاعة والشر في مشهد واحد، وجه الإمام الذي كرمه الله تغطيه الدماء، دماء طاهرة لم تبذل إلا في سبيل الله، تترف من غرة لم تسجد لغير الله. أشعر بثقل في صدري، وتتجمع العبرات في عيني فيختنق حلقي كأن يدا تعصره، أتلفت باحثا عن الآثم الذي فعلها،

فأرى ظهر الزنيم مهرولا نحو الباب، يطوح سيفه بوجه من يعترضه من المصلين، لن تفر يا أشقاها، لن تفر يا **ابن ملجم**، يا جاحد الفضل وجاهل الحق، أرى رجلا يشير لباب المسجد في الجهة المقابلة صائحاً "اثنان يفران من الباب هناك". أنظر لحيث أشار فأرى رجلا مرق كخطفة البرق من باب المسجد فغاب عن ناظري، وآخر يصارع رجلا بذراعيه بعد أن سقط منه سيفه، وعلى رأسه عصابة من حرير أسود .. آه .. قصة العاهرة **قطام**[١٥٥] حقيقية إذا. تلك الخارجية التي حرضت عبد الرحمن بن ملجم ورفاقه على قتل الإمام، وضمختهم بالمسك في تلك الليلة المشئومة وعصبت رؤوسهم بعصابة الانتقام.

هاهو ثالث الجناة يصرع الرجل الذي قاومه ويفر هاربا، إذن فهم ثلاثة، هذا يحسم الجدل التاريخي حول وجود الثالث، ثلاثة يا أولاد الأفاعي لقتل فارس أعزل يصلي؟ هاهم الناس قد تكالبوا على ابن ملجم وألقوا عليه عباءة أعاقت حركته وعطلت سيفه فقبضوا عليه، ألتفت جهة المحراب حيث الإمام الجريح، أحاول القيام لأصل إليه، فلا تحملني قدماي، أحاول وأحاول ولا فائدة، بالكاد أراه من بين الناس مسجى على

---

[١٥٥] الخارجية التي حرضت عبد الرحمن بن ملجم على قتل علي، و العديد من المراجع تتزيد في قصة علاقتها بابن ملجم بزيادات غير مقبولة في هذا المحيط الزمني والمكاني (٨-١٥-١٨)

أرض المحراب التي خضبتها الدماء، وقد استند جذعه على الأذرع الممدودة والمتكاتفة تحته، وسال الدم الطهور من جبهته فخضب لحيته كما أخبره الصادق المصدوق، أسمعه يقول "**فُزتُ وربِّ الكعبة**"[١٥٦]

إن النفس لتحزن وإن القلب ليدمى، ولكنه الفوز حقا يا أمير المؤمنين، وهل يتوج حياة كحياتك الرائعة غير شهادة بين يدي ربك؟ أرى بعض من حوله من أهل الكوفة يجهش في البكاء، فأتميز كمدا، الآن تبكون؟ هيهات، لن يسد الدمع ثغرة، أما سمعتم آخر ما خطب فيكم؟ يوم رفع المصحف بذراعيه ناظرا للسماء، ودعا ربه قائلا "**اللهم قد منعوني ما فيه فأعطني ما فيه، اللهم قد أبغضتهم وأبغضوني، ومللتهم وملوني، وحملوني على غير خلقي وطبيعتي، اللهم فأبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا مني، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء**"[١٥٧]، ألا إننا منذ دعا بدعائه هذا لم يتعاقب علينا رجلين صالحين أبداً، فأبدلنا الله شرار الناس بدلا من خيارهم.

أشعر بدوار عنيف، فأرتكز بذراعي على أرض المسجد، يسود الظلام فجأة، هل انتهى الكابوس إذن؟ أسمع كلمات الأمير بصوته في الظلام الدامس، كلمات تترى بعضها تلو

---

[١٥٦] (٧٤)

[١٥٧] مث: أذب، و يماث: يذاب (٧٤)

بعض[١٥٨] فلا أعرف لو كنت أسمعها بصوت الإمام، أم أسترجعها بعقلي مضفيا عليها صوته؟ أسمعه يقول "**الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء**". فأجدني أصرخ مجيبا فأقول "عشت في الحق يا أمير المؤمنين فاحتملت ثقله حتى استشهدت فيه وعليه، جعله الله لك مريئا في آخرتك كما كان لك في دنياك على مرارته مريئا، ولنعم أجر الصابرين"

"أشرف الغنى .. ترك المُنى"

"تركت مني الحكم وأنت أقدر الناس عليه، وتركت مني الثروة وبين يديك خزائن الأرض، عشت غنيا شريفا، ومت ثابتا شهيدا، فصرت للمتقين إماماً"

"يا دنيا غُرِّي غيري، قد طلَّقتُك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشُك قصير، وخطرك يسير، وأملَك حقير، آه من قلَّة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر وعظيم المورد"

"شهد الله يا إمام ما غرتك الدنيا طرفة عين، ولا طلبتها كما طلبها مريدوها[١٥٩]، وتمالكوا عليها كأنهم يلبثون فيها أبدا، فاهنأ سيدي بلقاء المصطفى على الحوض كريما نقيا.

---

[١٥٨] (٧٤)

[١٥٩] أرسل معاوية لعمرو بن العاص لينضم إليه في المطالبة بدم عثمان، فأجابه عمرو: إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن في النفس من ذلك ما فيها، حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكن إنما أردنا هذه الدنيا، فلا والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك، وطلب منه ولاية مصر وخراجها طعمة له طوال حياته – أي لا يسدد منها لبيت المال شيئا – فوافق معاوية (٨–٣٤)

"ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها"

"والله ما رضيت لنفسك ثمنا إلا الجنة وما وعد الله، قابلت الباطل بسيف الحق، ولو أردت الباطل ما أعياك طريقه ولا أعجزك الفوز فيه، أعاننا الله على باطل الدنيا بعدك، وما أكثر باطلها ومبطليها"

"كلام الحكماء إذا كان صوابا كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً"

"بشر رسول الله **عماراً** بشهادة على يد الفئة الباغية، فكان حديثه دواء للأمة يخرجها من الفتنة مخرج صدق، لكن طالب الدنيا زين للأمة باطله بكلمات[٦٠]، فكان مكره لعمر الحق هو الداء كل الداء"

"احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع، واحذروا نفار النعم، فما كل شارد بمردود"

"لم يتبعوا بعدك منهج الله وسنة رسوله في الكادحين، فلم يأمنوا صولات الكرام، أتى النبي برسالة الكفاية والعدل

---

[٦٠] قال رسول الله (ص): ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية، وابن سمية هو عمار بن ياسر، كان يقاتل في جيش علي في صفين وقد قارب الثالثة والتسعين، فقتل في المعركة، وتناقل جند معاوية الخبر واسترجعوا حديث الرسول فتزلزلوا، فخرج عليهم معاوية فقال: ما قتلناه، إنما قتله من أخرجه! يعني بذلك عليا لأنه أخرجه معه للقتال (٢- ٨-١٨-٣٤- ٩٢)

للجميع، فأقاموا مجتمعا طبقيا ألفوه وعاشوه في جاهليتهم، فثار عليهم الأحرار في البقاع، وتمردت حيفا والكوفة والري[١٦١]، وثار عبيد الأرض في السواد[١٦٢]، وراجت بدع **بابك وحمدان** حتى استفحلت[١٦٣]، ولو عدلوا وأقسطوا لاستمرت الأمة على المحجة البيضاء كما تركها الراشدون"

"لو كان الفقر رجلاً لقتلته"

"لم يتجسد لك الفقر رجلا لتقتله يا حيدر الكرار، لكن من أرادوا أن يثروا من قوت الفقراء جمعوا أطماعهم، فتجسدت بشرا، فقتلك"

"ردوا الحجر من حيث جاء، فالشر لا يدفعه إلا الشر"

---

[١٦١] الإشارات لتمرد الفلاحين في البقاع اللبناني ومركزه في عنجر أوائل الخلافة العباسية، وثورة الفلاحين في حيفا عام ٨٣٨م، وثورة الكوفة عام ٨٦٢م بزعامة يحيى بن عمر، وثورة الري وطبرستان عام ٨٦٤م (١٠٨-١٠٩-١١١)

[١٦٢] الإشارة لثورة الزنج التي بدأت عام ٨٦٩م وكانت من العوامل الفارقة في اضمحلال الخلافة العباسية، ثار عبيد الأرض العاملين في العراق على الظروف الغير إنسانية التي عملوا بها، وآزرهم في هذا الفقراء والكادحين من أهل العراق ضد العباسيين وأعوانهم الترك (١١١)

[١٦٣] أحيا بابك مذهبا وثنيا قديما فمزجه ببعض تعاليم الإسلام، وجذب اليه أهل وادي الرس بجعل الأرض مشاعا بينهم، وعدم دفعهم الجزية أو خراج الأرض للدولة العباسية، فكان عنصر الجذب الأول اقتصاديا، واستمر خروجه عن الدولة أكثر من عشر سنوات عاصر فيها المأمون والمعتصم، حتى قضى عليه القائد التركي حيدر بن كلوس عام ٨٣٧م، وحمدان قرمط مؤسس المذهب القرمطي، تأسست له دولة على يد أبي سعيد الجنابي في نهايات القرن التاسع الميلادي، فكان جوهرها التكافل الاقتصادي والاجتماعي، لكن شابت عقائدها شوائب تبعدها عن الدين الإسلامي بكافة مذاهبه، وقد انتشرت دعوتهم في وقت من الأوقات في البحرين وشرق العراق ومناطق من سورية (٣٤-١١٢)

"نقموا عليك سيدي أن حملتهم على الصمود وقتال من رغب عن طريق الرشاد وابتغى الملك العضود، فتذرعوا بحر الصيف وبرد الشتاء، وانتهزوا منك حلم الخلفاء، فاكتووا بعدك بنار الملوك بؤساً وذلاً وأثرة"

"في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال"

"كم تقلبت عليك الأحوال يا كريم الوجه فرأيت هجر الإخوان؟ حتى كاد الحق الذي أردته لا يترك لك صاحبا؟ عدلت في مال الله، بما شرع الله وسن نبيه، ثم دعوت من لم يرض عن العدل أن يتول كيف شاء، ووسع جور خصمك من لم يسعه عدلك، وارتضاه الناس على جوره زهدا في عدلك، فهنيئا للناس ما اختاروه!

"فقْد الأحبّة غربة"

"ما أقسى غربتك بعد الحبيب والحبيبة، فقدت المصطفى معلمك وأبيك بالروح، ومدينة العلم التي جعلك بابها، ثم فقدت الزهراء زوجتك وأم بنيك ورفيقة دربك، فالحق بالأحبة يا أمير المؤمنين راضيا مرضيا"

"كفى بالأجل حارسا"

تنجلي الظلمات عن عيني، فأرى أمير المؤمنين في بيته في

الكوفة، راقدا على فراش بسيط من صوف وقد عصبت جبهته الغراء بعصابة بيضاء ظهرت فيها بقع الدماء، إنها الأيام الثلاثة التي قضاها بعد ضربة الخارجي في بيته، ينتظر الأجل الذي اكتفى به حارسا، وقد اجتمعت حوله كوكبة من أصحابه، أميز بينهم الحسنين عن يمينه. ينظر الإمام نحو الحسن والحسين فيطيل النظر، ويقلب عينيه بينهما، ثم يجيل بصره بمن حضر من أصحابه، وتنفرج شفتاه فيقول "**يابني عبدالمطلب لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين**"[١٦٤]. يسكته الألم، أو لعله دوار من جرح رأسه، يغمض عينيه ويضع كفه على عصابة رأسه لحظات، فيتزايد القلق على وجوه من حضر المشهد العظيم، مشهد الليث الجريح يلفظ آخر أنفاسه في أمر بمعروف ونهي عن منكر، هاهو يفتح عينيه، فيستأنف قائلا "**ألا يقتلن إلا قاتلي، إن مت فاقتلوه ولاتمثلوا به، وإن عشت فالجروح قصاص**".

قالها الإمام وهو ينظر لبنيه الذين تحلقوا عن يمينه، ثم قال وهو ينظر للحسنين "أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن

---

[١٦٤] جميع الكلمات والعبارات الواردة في الفصل من مأثورات وجوامع كلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٨-٧٤)

بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها ذوى عنكما، قولا بالحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عونا"

يخفت الصوت مع ظلام يعتريني ثانية، ثم تنجلي ستائره فأراني في مسجد الكوفة، أسمع صوتا قريبا من صوت علي، لكنه صوت يمور بالشباب رغم تهدجه من الحزن، لابد أنه أحد الحسنين، أمسح الدمع السخين عن وجهي وأنا أحاول النفاذ من الجموع لأرى الخطيب، لكن الزحام شديد، أسمع بينهم من يقول إنه الحسن يرثي أباه، أقترب أكثر فتتضح الكلمات وأسمعه بغير أن أراه يقول "وكان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقيه بنفسه، وكان الرسول يعقد له الراية فيفتح الله على يديه، قبض الليلة وما خلف صفراء ولا بيضاء، إلاّ سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله"

إذن فقد نفذ السم الذي ضمخت به قطام السيف الغادر وقضي الأمر، مات إمام المتقين، وكانت آخر دعواه من الدنيا قبل الشهادتين آيتان من القرآن تمتم بهما وقد انفرجت أساريره فقال "**لمثل هذا فليعمل العاملون**"[١٦٥]، ثم قال كأنه يواسي آل بيته بالذكر الحكيم "**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم**

---

[١٦٥] الصافات: ٦١

محسنون"[١٦٦]، ومات علي بن أبي طالب، مات إمام عادل كان يدعو الله فيقول "**اللهم بارك لنا في الموت**"

الجمعة، الرابع عشر من سبتمبر

ينتبه علي من نومه في نور الشروق، ليلة قاسية عاش فيها مأساة اغتيال الإمام علي كمن شهدها، وسادته مبللة بدموعه، لا عجب، بل العجب كل العجب أنه ليس غارقا في عرقه كما يحدث مع أحلام أهون من هذا ألف مرة؟ بل إن قلبه برغم الحزن والكآبة هادئ لا يضطرب نبضه! فهل هدأت نفسه بهدوء روح الإمام التي صعدت إلى بارئها؟ لقد استشهد الإمام، فهل هذا آخر عهده بتلك الأحلام؟ ارتجف قلبه رجفة طفيفة لهذا الخاطر، لقد تعلق بهذه الأحلام، يخافها ويخشى من أثرها على صحته وعافية قلبه، لكنها أصبحت بعضا من كيانه، لعله يخافها وينتظرها كل ليلة في آن واحد، لا داعي للخوف من توقفها على أي حال، فهي لم تأت أبداً مرتبة بترتيب زمني، هكذا حدث نفسه مطمئنا وهو يقوم للحمام ليأخذ دشا باردا، كانت برودة الماء في حمامه غير متسقة مع عاداته في هذا الوقت من العام، لكنه شعر بحاجة إلى ماء بارد يغمر جسمه، ربما من أثر الحلم.

---

[١٦٦] النحل: ١٢٨

انتهى من اغتساله ومر في طريقه للمطبخ ليشرب أمام غرفة عزة التي تشغلها ماري حاليا، فرأى النور ينبعث من شراعة الباب الزجاجية. الساعة تقترب من السادسة، فهل استيقظت مبكرا؟ أو ربما نست النور مضاءً ونامت، لم يلق للأمر بالا، شرب حتى ارتوى ولكن بقيت في حلقه مرارة يشعر بها منذ فتح عينيه، عاد لغرفته فصلى الفجر واستلقى في فراشه يفكر في السؤال القديم الجديد والسر الذي لم يسبر أغواره أبدا رغم طول البحث فيه، مصرع الإمام الذي يكتنفه الغموض من كل جوانبه، كان أول ما أثار عجبه قديما هو المصادفة التعسة التي أفلح فيها عبد الرحمن بن ملجم في قتل علي بينما فشل حليفيه وصاحبيه **البرك بن عبد الله** في قتل معاوية، **وعمرو بن بكر** في قتل عمرو بن العاص، فمصادر التاريخ تجمع أن الثلاثة اتفقوا عندما التقوا في موسم الحج على قتل من يرونهم رؤوس الفتنة الثلاثة، وتواعدوا للتنفيذ في ليلة التاسع عشر من رمضان من العام التالي، وتعاهدوا ألا يتراجع أحد منهم عن الرجل الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه[١٦٧]، لكن من هاجم علياً لم يكن رجلا واحدا بل ثلاثة، إذ كان مع ابن ملجم كل من **شبيب بن بجرة ووردان بن مجالد**، فأما عبد الرحمن بن ملجم

---

[١٦٧] (٨-١٨-٢٠)

فالشائع عنه أنه خارجي، لكن من الخوارج من نفى ذلك وقال أنه لا يعرف بينهم، ويؤيد هذا أنه لم يشهد صفين ولا النهروان ولا سكن حروراء[١٦٨] معهم، فهل أُلصِق بالخوارج للتغطية على الجهة التي استخدمته؟ الخوارج هم الطائفة الأضعف تنظيرا والأخفض صوتا بين الفرق الإسلامية، فلو أراد متآمر أن ينسبه لفرقة دون أن يتعرض لنفي يذكر فليس أمثل من الخوارج لهذا، ونهاية الزنيم لا خلاف فيها، فقد ضربت عنقه في الكوفة قصاصا، وهو الوحيد من القتلة الثلاثة الذي لقي جزاء فعلته. وجاء في تحفة السالمي وصف لزيارة ابن بطوطة لعمان، وتعجبه مما يقوله الإباضية[١٦٩] في قاتل علي هذا من ثناء ومديح.

أما العضو الثاني في عصابة الاغتيال، شبيب بن بجرة، فلا ذكر له بين الخوارج، ونعرف من الأخبار أنه فر من المسجد واختفى حتى ظهر ثانية في خلافة معاوية، فدخل على معاوية في مجلسه متباهيا أمامه بأنه من قتلة علي، فأمر معاوية قوما من قبيلةالرجل، قبيلة أشجع، بإخراجه من الكوفة[١٧٠]، فقط

---

[١٦٨] (١١٣)

[١٦٩] الإباضية هم بقية الفكر الخارجي في زماننا، وينسبون تأسيس مذهبهم لعبد الله بن وهب الخارجي، والإباضية يقرون الخوارج في التحكيم والحاكمية، وفي التشدد الفقهي، لكنهم لا يشتركون معهم في تكفير الناس وسفك الدماء، ويتركزون اليوم في سلطنة عمان وبعض المناطق اليمنية (١١٤)

[١٧٠] (٩٠)

إخراجه من الكوفة بغير حبس ولا عقاب، بل إن المتواتر تاريخيا أنه عاش في الكوفة ولم يطرد بالفعل، حتى خرج برغبته إلى الطف متمردا على والي الكوفة **المغيرة بن شعبة**، والذي أرسل له قوة هزمته وقتلته[١٧١]

أما ثالث الفجرة **فهو** وردان بن مجالد الخارجي، من تيم الرباب، وقد عرفته المدعوة قطام بعبد الرحمن ليعينه على القتل، وقالت بعض المراجع أنه ابن عمها[١٧٢]، فر من المسجد ولم يأت له ذكر في التاريخ بعدها[١٧٣]، ولم يُذكر أنه طلب في قصاص ولا عوقب بعقاب، غير رواية ضعيفة وردت في أعلام الخوارج، قيل فيها أن أحد أقاربه قد قتله، بدون تحديد لهذا القريب ولا دافع القتل ولا وقته، أما قطام فهي مشكلة المشكلة، فلا نعلم عنها حتى اسمها ونسبها، بسبب التخبط الكبير في المراجع بشأنها، فهل هي قطام بنت الشحنة أم بنت سخينة؟ فلو كان الاسمان يحتملان لبسا لتقارب الحروف، فما حكاية قطام بنت علقمة وبنت الأخضر وبنت الأصبغ؟ لهذه الدرجة لم يحاول أحد بعد قتل الإمام أن يتحري حقيقتها فضلا

---

[١٧١] (٩٠)

[١٧٢] (٢٢-٤٥)

[١٧٣] (١٨-٢٢-٤٥-٩٠)

عن عقابها؟ وقد خرجت امرأة من خوارج الكوفة تدعى قطام على معاوية ضمن ما عرف بخروج أبي مريم[١٧٤]، فهل هي قطام ذاتها أم سمية لها؟

ثم نأتي للأشعث بن قيس، هل له دور حقيقي في اغتيال الإمام أم زج به في السياق؟ فقد شهد موقعة صفين مع الإمام، لكن صلة قامت بينه وبين معاوية بعد ذلك وتراسلا كثيرا[١٧٥]، وهو من استضاف عبد الرحمن بن ملجم شهرا في الكوفة قبل تنفيذ الجريمة، وحاول التأكد من موت علي في اليوم التالي للواقعة فأرسل غلامه ليرى كيف أصبح الأمير، فعاد الغلام إليه وقال "رأيت عينيه داخلتين في رأسه"، فعلق الأشعث أمام من حضر من أصحابه بقوله "عينيْ دميغ ورب الكعبة"[١٧٦]، فهل يعني ضلوعه دورا خفيا لمعاوية في الاغتيال؟ يزيد من شكوكنا حقيقة أن معاوية أطلق سراح البرك بن عبد الله[١٧٧]، الذي

---

[١٧٤] (٨، ١٥، ١٨، ٢٠، ٦٣، ١٣٥)

[١٧٥] رجل من كندة، أسلم على يد الرسول ثم ارتد بعده، وأسر بعد ذلك وأعلن توبته فعفا عنه أبو بكر، عاش في الكوفة ومات بها، وقيل أن ابن ملجم كان يناجيه ليلتها حتى اقترب الفجر فقال له الأشعث يستعجله: فضحك الصبح فقم، فسمعه رجل يدعى حجر فحاول تحذير علي منهما وفشل (١٩-٢٠)

[١٧٦] (١٥-٦٣)

[١٧٧] (٢٠)

هاجمه فجرحه بنية قتله؟ وكذلك شكوكنا في جرح الإلية الذي تحدثت عنه الأخبار وتطلب علاجه إما كي بالنار أو دواء يشرب فينقطع النسل؟ حتى اليوم لم يتوصل العلم لشراب سحري يحل محل الكي في جرح قطعي بالإلية وينقطع معه النسل، فهل كان هناك جرح ودواء أم أن الجرح والدواء كلاهما قصة مختلقة وحبكة درامية لإبعاد الشبهة عن معاوية؟ وهل توانى عمرو عن إمامة الصلاة في الليلة المشئومة وأناب عنه خارجة صاحب شرطته مصادفة؟ ألا تصبح المصادفات بهذا كثيرة في تلك الليلة؟

هكذا كان علي يفكر حين تمدد على فراشه والكرى يغالبه، حتى غلبه فنام وهو يمني نفسه بساعة من نوم هادىء بلا أحلام دامية

(١٩)

بلدي

في السادسة من صباح ذات اليوم كانت ماري مؤرقة في فراشها، نامت أول الليل ساعة ثم طار النوم من عينيها وهي تستعيد ذكرياتها مع علي منذ اللقاء الأول. تقفز بين الذكريات ذكرى أمها، فلا يزداد الصراع الداخلي الذي عانته سنينا إلا عنتا وقسوة، قامت مرتين لترى لو كان حارس العقار جلب صحف الصباح، فقد كانت تتوق لقراءة مقال علي الذي يختم به حملته الصحفية، أصر العنيد أن يتركها تشتعل انتظارا حتى الصباح، ولم يتركها تقرأ ما كتب على شاشة جهازه كعادته. قال إنه يريد رأيها في المقال مجملا، في موقعه من الصحيفة والصورة المنشورة معه وما يحيط به، كل شيء وليس مجرد كلام على شاشة، ليرى بعينيها رأي القاريء العادي فيه، في المرة الثالثة وجدت الصحف معلقة على الحلية الحديدية لباب الشقة، فأخرجت **صوت مصر** من بينها، وألقت الباقيات على أريكة الأنتريه، على الصفحة الأولى وجدت مانشيتا عريضا: **حملة بلدي**، قلبت الجريدة لترى المقال على الصفحة الخلفية، وفي صدره دائرة ذات ثلاثة ألوان، أحمر فأبيض فأسود كعلم مصر، وفوق الشريط الأبيض كتبت كلمة بلدي بخط عريض،

تبدو كشارة وطنية في محملها، يملأ الفخر كيانها وكأنها أم تفخر بابنها، لقد كتب المقال خلال الأيام الماضية وهو تحت رعايتها ورقابتها، فشعرت بالفعل كأنها أمه، استلقت على فراشها وأضاءت الأباجورة على جانبه الأيسر وأخذت تجري بعينيها فوق الأسطر وقلبها يخفق بخفقات محببة.

"أطلنا الحديث في مقالين سابقين عن جماعات الإسلام السياسي التي ترى نفسها وريثا شرعيا للسلطة، ليس لقوتها أو تميزها، ولكن لضعف وتهافت غيرها من الأحزاب الهيكلية، وليس بناء على شرعية حقيقية لها، ولكن بناء على محاولاتهم إلحاقها بشرعية الإسلام، في بلد تعيش فيه أغلبية مسلمة عميقة الإيمان، مما ساعد على رواجها، لكن هذا الرواج برأينا ظاهرة فقاعية، لن يتمخض عن فعل حقيقي أبداً، فقد كان الرواج موجودا قبل ١٩٥٢م، لكنه لم يحملهم لمواقع الحكم والسلطة كما تمنوا، ولن يحملهم في المستقبل كما يتمنون. طلبنا منهم في مقالنا الأول أن يعتذروا للأمة عن ماضيهم الدموي والتخريبي، بما أنهم يدعون في كل محفل أنه ماضٍ تجاوزوه ولا علاقة لهم به، فلم نجد لنا مجيبا، ثم طلبنا ردا في مقالنا الثاني على ما قدمناه من وقائع موثقة حول علاقاتهم بالولايات المتحدة والمملكة المتحدة والعربية السعودية، فلم يردوا إلا ببضعة مقالات

تشنجية، لم نكلف أنفسنا مشقة قراءهًا لآخرها فضلا عن الرد عليها، لوضوح تهافتها وخلوها من أي رأي أو حجة يواجهون بها الأدلة التي نشرناها، لهذا قررنا أن نعرض عنهم في مقالنا اليوم ونتجه بالحديث لجماهير وطننا الحبيب، بدعوة نراها حق لا يختلف عليه مصري مخلص، ولو ضموا صوهم لصوتي فيها لأحسنت الظن بهم، ولا أحسبهم يفعلون، فمن يشعل النار لا يطفئها.

منذ السبعينات، أشرفت مصر على حافة جرف طائفي شديد الخطورة، فحدث ما نعرف بداية من أحداث الخانكة عام ١٩٧٢م، ثم أحداث الزاوية الحمرا عام ١٩٨١م ،وما تلاها من سطو مسلح على محلات الذهب بصعيد مصر خلال فترة الإرهاب الأسود في الثمانينات، ثم أحداث الكشح عام ١٩٩٨ والكشح الثانية عام ١٩٩٩م، وأزمة قسطنطين في ٢٠٠٤م، وأحداث محرم بك في ٢٠٠٥م، وجريمة محمود صلاح الدين عام ٢٠٠٦، فمن وراء كل هذا؟ من يدس بذور الفتنة في سماء مصر قبل ترابها؟ من يرضع أولادنا سموم كراهية الآخر؟ تعالوا نتابع معا ما بثوه من سموم في الوعي الجمعي للمصريين، لنميز العدو المستتر في ثوب حبيب.

في ١٩٨٠ ينشر أحدهم مقالا حول عدم شرعية بناء أية كنائس جديدة في مصر لأنها دولة إسلامية، ثم يقول كبير جماعة منهم عام ١٩٩٧م أن على الأقباط دفع الجزية بدلا من

التحاقهم بالجيش، حتى لا ينحازوا لصف الأعداء عند محاربة دولة مسيحية، ثم ينشر بعضهم اليوم مقالا بالصحف يقول فيه أن جماعته يوم تتسلم مقاليد السلطة في مصر سوف تبدل الدستور الحالي بدستور إسلامي، يحرم بموجبه غير المسلمين من تقلد المناصب العليا في الدولة والقوات المسلحة، فهل نعجب بعد كل هذا للفتن ونسأل من بثها ومن أفسد علينا حياتنا؟ هناك اليوم هيئات مهمتها رصد الأحداث الطائفية في مصر، وقد تسرب من مجلس الأمن القومي الأمريكي حديث عن الفتنة الطائفية كبوابة للتدخل في الشأن الداخلي المصري لو احتاجت أمريكا لهذا، أفلا يكون من حقنا في ظل تلك الظروف أن نتعجب من إصرارهم على الدق فوق وتر الطائفية بمناسبة وبغير مناسبة؟ ألا يجوز لنا الشك في دوافعهم ونواياهم؟ بوضوح أكثر، في مدى التنسيق بينهم وبين اليمين الأمريكي لفتح باب التدخل في الشئون المصرية؟

غير أني اكتفيت من لعن الظلام، وآمل اليوم أن أوقد شمعة، شمعة صغيرة لا تكلفنا جهدا كبيرا، لكن إيماني بأثرها كبير، فالتطرف مهما زاد بيننا فهو بعد أقلية، لكنها أقلية تحاول أن ترفع صوتها وتضخم وجودها للإيحاء بتعاظم أمرها، مستغلين أننا نحن السواد الأعظم من المصريين ليس لنا مثل حرصهم على الظهور، وهكذا الاعتدال والوسطية دوما أقل ظهورا وأخفض صوتا من التطرف والشطط، لكن الظرف التاريخي الذي نعيشه

يلقي علينا واجبا ويحتم علينا أن نفصح عن وجودنا ونرفع أصواتنا لتعلو فوق غثائهم، وأن نفعل هذا بأسلوب حضاري يناسب تاريخنا، لهذا أقترح اليوم حملة صامتة، **حملة بلدي**، حملة حضارية للتوحد مقابل محاولات الشرذمة، ولتعميق مبدأ المواطنة مقابل دعاة الطائفية ورعاتها، حملة قوامها المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لكل دعاة التطرف والطائفية، أفرادا ومؤسسات، نقاطع من نعرف أنه منهم في حياتنا اليومية، في الشارع والمدرسة والمستشفى، مقاطعة حازمة كفيلة بهز كيانهم الاقتصادي، ومع هذه المقاطعة نتبنى كل دعاة الوحدة والتجانس، أفرادا ومؤسسات ومشروعات، ويشجع بعضنا بعضا على هذا في حملة وطنية يرمز لها علم الوطن، مضافا إليه كلمة مفعمة بالاعتزاز بهذا الوطن، بلدي، شارة نرفعها جميعا لتطغى على شارات الطائفية في مصر، نضعها على صدورنا وعلى سياراتنا وعلى الجدران وفي واجهات المحال، في المركبات العامة والخاصة وفي المقاهي والمشارب والأندية ومدرجات الجامعات، شارة يعلن من يرفعها أنه مصري يستعلي على الطائفية ودعاتها وقلبه عامر بالإيمان، ودينه ينير له الطريق في حياته بعيدا عن الطائفية السياسية وشعارات الحق التي يراد بها باطل، شارة نقول بها للأجيال القادمة أننا لم نبع مصر رخيصة مقابل بعض المكاسب الطائفية والتطلعات السياسية، ونعلن بها

أننا مصريون قبل الأديان، ومصريون بعد الأديان، ومصريون لآخر الزمان، سيتغير وجه مصر الذي تلبد وتوتر منذ السبعينات يا إخواني يوم تحل شارة بلدي محل شعارات وشارات الطائفية، فيعود وجه مصر الجميل الذي بدأت به القرن العشرين وضاع منها في ثلثه الأخير.

قد تبدو الحملة للبعض شديدة الرومانسية، لكن درس التاريخ يقول لنا غير هذا، فحملة فرنسا الحرة[١٧٨] التي رفعت رأس الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية بدأت بأقل من هذا، حرية الأوطان تبدأ من الإيمان بها، فلنبدأ بمقاطعة مؤسسات التطرف والطائفية المتأسلمة والمتنصرة جميعها، وبشارة بلدي كعلامة على طريق مصر، مصر التي تحبنا جميعا ونحبها جميعا، وقد تطوع الزميل الأستاذ إبراهيم موسى رئيس التحرير، فجعل من جريدته منسقا للحملة، وخصص لذلك من الموارد ما يلزم لإنجاحها، فلم يبق إلا صدق العزم منا، فلا تبخلوا على مصر بنبذ من أراد بها الشر والتمزق، ولا تضنوا عليها برفع

---

[١٧٨] بعد استسلام المارشال بيتان للنازي وتسليم باريس وتكوين حكومة فيشي في الحرب العالمية الثانية، رفض شارل ديجول هذا الهوان، ومن الجزيرة البريطانية انطلق صوته عبر المذياع يناشد الوطنيين الفرنسيين الثبات والمقاومة ومد يد العون لقوات الحلفاء، فكان هذا بداية مقاومة فرنسا للهزيمة (٨٨)

علمها فوق الصدور، حتى نبدأ اليوم مسيرتنا على طريق الأخوة في الوطن والإنسانية، قبل أن يأتي زمان يعمينا فيه ضباب الطائفية عن مصالح الوطن، ونرى فيه نظرات اللوم في عيون أطفال شوهتهم الحروب. اللهم ألا قد بلغت، اللهم فاشهد"

انطلقت دمعتان سخينتان من عينيها وهي تقرأ خاتمة المقال، فرفعت الصحيفة نحو ثغرها الذي أحاطته خيوط الدمع وقبلتها، ثم ضمتها بكلتا يديها لصدرها وهي ترفع عينيها لأعلى وتقول بلغتها الإنجليزية الرصينة وبصوت خفيض متهدج "يا إلهي هذا الرجل أحبه وأعذبه، ويحبني ويتعذب بي، لقد تخيلته وحلمت به منذ صباي وأنا أقرأ رومانسيات الأدب، حلمت برجل يقاتل لهدف، أي هدف خارج ثالوث المال والسلطة والشهرة الذي يقاتل من أجله الجميع، فلماذا يترل ستار حديدي بيني وبينه حين أجده؟ وأي ستار؟ إنها سابين التي أعطت كل شيء؟ لماذا يا إلهي؟ حبيبي على بعد خطوات مني وحيداً وأنا أرتعد بليلي وحيدة. فلماذا؟" انتبهت للحظة وأجفلت، تقول أحيانا "يا إلهي" بحكم العادة في حديثها، تقولها ولا تعنيها، لكن هذه المرة كانت مختلفة جداً، لقد شعرت بحق أنها تناجي الرب، وشعرت بأنه هناك يسمع مناجاتها ويرأف بحالها، لم تكن بحياتها أكثر

شعورا بالله منها في هذه اللحظات "هل نعرف الرب بعقولنا أم بقلوبنا في لحظة وجد؟" هكذا كانت تفكر، ثم خطر لها خاطر غريب، لو كان الرب موجودا، ولو آمنت هي بوجوده، تصبح وصية سابين بلا معنى، فمضمون الوصية ألا ترتبط برجل مؤمن، لأنها لن تحترم الكثير من آرائه وتصرفاته وسيقابل هو ذلك بالمثل، لكنها لو آمنت هي نفسها لاختلف كل شيء، فقد كان هدف أمها أن تحيا حياة سعيدة مع رجل تحبه وتتوافق معه. "آه يا أمي، لماذا ظننت كل من يؤمن بالله مثل أبي؟ فكنت كمن قبض على ذيل الفيل فوصف الفيل بالنحافة، ثم طلبت مني وعداً بأن أرى الفيل نحيفاً ما حييت، فهل هذا عدل يا أمي؟ أترتضين لي هذا العذاب؟ ساعدني يا إلهي". هكذا حدثت نفسها ثم استلقت على ظهرها بعرض الفراش والصحيفة مكومة بين كفيها، ودموعها تترقرق من عينيها، حتى غلبها الكرى على هذه الحال، وهي تردد في عقلها جملة واحدة "لو كان الله موجودا فأنا حرة من وعدي، يا إلهي كن هناك لأجلي، كن هناك ودلني على طريقك يا إلهي".

لا تعلم لو كانت رأت هذا في حلم نوم أم حلم يقظة، لكنها رأت لوحة للسيد المسيح، وجهه فيها باسم وقلبه مرسوم فوق صدره، يشع منه النور، أهي أيقونة أم أنه المسيح بذاته؟ لا

يمكن أن يكون الرسم حيا بهذه الدرجة، إنه ينظر إليها ويبتسم، إنه يتكلم! شعرت بصوته يملأ كيانها وهو يقول "**لقد عرفت الرب يا بنيتي بقلبك، الحب أنار لك طريق الرب، الرب إلهك هو الحب ذاته، هو نور العالم، فلا تجعلي خطواتك تبتعد ثانية، بوركت يا ابنتي وبورك قلبك المؤمن، أنا اليوم أعمد قلبك بماء الدموع، ليتبارك قلبك ويتقدس اسم الرب فيك**"

ثم سمعت ترانيم الراهبات، تذكرها منذ كان أبوها يصحبها للكنيسة في طفولتها، لكنها اليوم تحسها كما لم تحسها من قبل، كأنها تسمع غناء ملائكة الجنة، هاهي تغني معهم، بل هم يغنون معها، فهذه لا يمكن أن تكون إلا أغنيتها الخاصة جدا، فهي تقول: يا إلهي، كيف حل الأمان في قلبي محل الحزن؟ يا إلهي إنك حق، لا أعرف على أي درب أصل إليك، لكنك هناك، في الأرض كما في السماء، كما في قلبي، يا إلهي أنت في كل مكان، كم يريح النفس نورك! يا إلهي، اجعلني قرة لعينيه واجعله في عيني نورا، ألهمنا الحب نعيش به وفيه، فلا يضيع الحب من قلوبنا في هذا الزمان، زمان كالضباب، يا إلهي أنت المحبة، فأعنا لنعيش بالحب وفي الحب، لنعيش حقنا في الحياة، وحياتنا في الحق.

(٢٠)

سر من رأى

المئذنة الملتوية، أو الملوية بلهجة أبناء العراق، ذلك الصرح المتفرد، والقائم كشاهد عبر الزمان بالقرب من مرقدي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري، إنها إذا سامراء أو سر من رأى، الحاضرة التي بناها **المعتصم** عاصمة لملكه على ضفاف نهر دجلة، حتى يؤوي إليها جنوده الترك الذين استعان بهم بعد أن تعكرت علاقة العباسيين بالفرس على عهد والده الرشيد بعد الأحداث الدامية التي عرفها التاريخ بنكبة البرامكة، المعتصم .. السيف أصدق أنباء من الكتب[١٧٩]، **الجاحظ** ما بين أهل الكلام والمعتزلة[١٨٠]، **أحمد بن حنبل** وأهل الفقه، **البخاري** وأهل الحديث، **الكندي** والفلاسفة، **المتنبي** والموهبة الفذة مع المكيافلية الصارخة، **المهدي** وغيبته، وبرودة البطيخ السامرلي في قيظ الصيف! أي مدينة ملوية زاخرة بالأضداد أنت يا سامراء

---

[١٧٩] ارتبط ذكر المعتصم في تراثنا بفتحه لعمورية على إثر صيحة المرأة العربية التي تحرش بها جنود الروم عام ٨٣٨م وتجاهله لقول الكهان بأن نجمه لا يشجع على الخروج للحرب، فكتب المتنبي قصيدة منها هذا البيت

[١٨٠] المعتزلة أحد الفرق الإسلامية التي مالت للمنهج المنطقي في الاستدلال وسموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وينتسبون لواصل بن عطاء حين اعتزل مجلس الحسن البصري مؤسسا حلقة درس منفصلة

كمئذنتك الملوية؟ كم من العظماء مر بك في الزمن الغابر؟ وكم من السفهاء حاول تدمير بنيتك الفسيفسائية في الزمن الحاضر[١٨١]؟ فالسفهاء لا يحتملون الثراء ولا يطيقون التعدد، هذا ما يقوله لنا درس التاريخ، ولكن .. ماذا أردت مني يا سامراء ولدي ما يكفيني ويشجيني؟



لماذا أتيت إلي يا سامراء؟ يا خط التقاء الدم العربي بالدم الكردي، حيث زحف الدم العربي شمالا من حضرموت، والدم الكردي جنوبا من جبال زاجوراس، وفيك التقيا وامتزج العرقان، فأي سر تدخرين لي اليوم أيتها المدينة الذاخرة بأسرارها؟ أتوقع أن تبدأ أحداث حلمي الجديد، لكن صورة المئذنة الحلزونية المميزة تهتز أمام عيني، وأدخل في حالة ضبابية بين النوم واليقظة، حتى تقتحم أذني رنات المحمول الصاخبة، عندما أضبطه على وضعية النوم لا يصدر رنينا لغير المكالمات

---

[١٨١] الإشارة هنا لوقوع محاولات تخريبية بتفجير عبوات ناسفة في سامراء، في مراقد أئمة الشيعة ومئذنتها الأثرية تحديدا في عامي ٢٠٠٥ ثم ٢٠٠٧م بعد غزو العراق

الدولية أو مكالمة من ماري، وبما أنها في الحجرة المجاورة فلابد أنها مكالمة دولية، هكذا فكر علي فنهض بجذعه في الفراش، التقط المحمول وطالع الشاشة بعين مازال بها أثر النوم، الرقم على الشاشة يبدأ بأرقام ٩٦٤ .. العراق؟ مكالمة من العراق الآن وبعد هذا الحلم السامري القصير؟ بدأ الأمر يتجاوز حدود المعقول، الرقم التالي لكود العراق هو رقم واحد؟ إذن فهي بغداد، أو لعلها سامراء ذاتها، يحاول أن يتذكر لو كان لسامراء شمالي بغداد كودا مختلفا أم لا، عقدت الدهشة يديه فلم يستطع أن يفتح الخط مجيبا حتى سكت الرنين، اعتدل في فراشه جالسا ومد يده لعلبة سجائره يشعل واحدة، وعندما عاد الهاتف للرنين رد من فوره مجيبا ليأته صوت صديقه الدكتور **كاظمي عبد الأمير** المؤرخ العراقي المتخصص في التاريخ العباسي، والذي كانت فترة إقامة علي في بغداد من أروع فترات العمر بفضله، بعد تبادل التحيات الحارة سأله علي عن أحواله وحال العراق فأجاب "مازلنا أحياءً يا صاحبي في هذه الأيام الخايسة"[١٨٢] "ستمر كما مر غيرها يا أبا هادي، في مصر نقول كم دقت على الرأس طبول"

"عزا العزانا يا صديقي، الطبلة هذه المرة آلة حرب مجنونة يطلقها عميان، لكن ما لهذا خابرتك، قرأت مقالك لتوي على

---

[١٨٢] السيئة أو الفاسدة باللهجة العراقية

الإنترنت، وأراك ساطر هؤلاء المتاعيس سطرة[١٨٣] شديدة، لكنها ليست معركتك، دعك من ضرب ذيل الحية عندك وتعال نضرب رأسها هنا سويا".

"ماذا تعني بضرب رأسها؟ وهنا أين؟"

"أخابرك الآن بخصوص مخطوطات بدرجة عالية من الأهمية، مخطوطات تاريخية عالية القيمة". تنبه عند سماعه لفظ **مخطوطات** وتبددت من عينه آخر خيوط النعاس، فانقشعت عن نور النهار ينساب بحجرته من بين الستائر، قام يفتح ستائر الشباك بغرفة نومه وهو يرد مستزيدا من المعلومات حول المخطوطات، فأجابه "أشارك مع اليونسكو في ترميم آثار خربها محروقي الصفحة[١٨٤] في سامراء، بغير دخول في تفاصيل، عثرنا بمخطوطات، أو عثرت علينا مخطوطات تنتمي لعدة عصور، سافر الدكتور **ديار كاكل** ببعضها لباريس لفحصها بالكربون المشع فثبتت أصالتها، لجأت إليه حين احتجت إلى خبير أثري"

"عالم أمين ورجل شهم، ليت العراق كلها كاظمي وديار، عربي شيعي وكردي سني في فريق عمل واحد"

---

[١٨٣] ضربة

[١٨٤] سود الصحائف كناية عن أنهم من أهل النار

"لا طائفية مع المنهجية، المهم، متى يمكنك الحضور؟"

"هل الأمر يستدعي سفري؟ هل هناك مساعدة أستطيع تقديمها غير ارضاء فضولي التاريخي؟". هكذا سأله علي فأجابه كاظمي بالإيجاب، موضحا أنهم يحتاجونه لأمرين، أولهما ربط موضوعات الكشف في شكل طرح تاريخي مؤثر إعلاميا، فضلا عن موضوعيته أكاديميا، فتخصص كاظمي الزمني يكمله تخصص علي في القرنين الأول والثاني الهجريين، كذلك يحتاجون توثيقه لقراءة المخطوطات المكتوبة بالحجازية[١٨٥] القديمة الغير منقوطة وغير محركة، ولأن الكشف مازال سريا فهو يحتاج لمن يثق به كعلي ليصبح العضو الثالث في الفريق، بدأ علي يقتنع بفكرة السفر، فمخطوطات عربية قديمة كانت إغراءً يصعب مقاومته. خطر بباله أن ماري تتوق منذ زمن للمشاركة في عمل ميداني كهذا، فسأله "هل يمكنني الاستعانة بمن هو أقدر مني على قراءة المخطوطات الحجازية[١٨٦]؟

---

[١٨٥] تطور الخط العربي من الكتابة النبطية في الرأي الغالب إلى خط كوفي وخط حجازي كان هو السائد في المخطوطات الإسلامية الأولى خلال القرن الهجري الأول وحتى منتصف الثاني (١٣٧-١٣٨)

[١٨٦] الكتابة العربية بدأت بدون نقاط أو حركات (تشكيل) على الحروف، وهكذا كتبت النسخ القرآنية الأولى حتى نهايات القرن الهجري الأول (١٣٨)

الدكتورة ماري ماكسيمليان خبيرة الآرامية والنبطية والعربية القديمة"

"تخصصها عين المرام، مادمت تثق بها فهي على الرحب والسعة، ولكن عليك إطلاعها على خطورة الوضع في العراق، والتأكد من رغبتها في خوض المخاطرة"

"إذا فأنت تخشى عليها وليس علي؟" هكذا قال علي مداعبا فأجابه "الحقيقة أني أعرفك بما يكفي لأعرف أنك ستقدم على ما نعد له هنا مهما كانت المخاطر، أما هي فلا أعرفها على الإطلاق"

"هي عزيزة علي بما يكفي لأضن بها على المخاطر، لكن الخطر قدر إنساني يتكرر مع كل نفس يتردد بصدورنا، لهذا لا أرى في العراق خطرا أكثر مما هنا في الإسكندرية برغم ظروف الحرب، **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**"[187]

"هناك أمر آخر أقدر أنك مهتم به، فهو وثيق الصلة بإخوانك هؤلاء الذين أعلنت عليهم الحرب بمقالك، سأشرح لك تفاصيله حين أراك في بغداد بإذن الله". اتفق الصديقان

---

[187] آل عمران: ١٥٤

على مناقشة التفاصيل والترتيبات من خلال البريد الإلكتروني، بغير التصريح فيه بأي شيء عن الكشف وطبيعة الزيارة حرصا على السرية قدر الإمكان، وإن كانت الهواتف المحمولة ليست آمن بكثير من المكاتبات عبر الإنترنت في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وحين أغلق علي الخط تعجب من نفسه ومن جرأته على تعريض معشوقته لتجربة السفر للعراق في ظروف الحرب، لكنه كان يشعر بشيء في قلبه يدفعه لهذا دفعا، فكر كيف يفاتحها في الأمر، لكنه كان موقنا أنهما سيكونان معا هناك في العراق، ويشعر أن زيارتهما تلك ستغير مجرى حياتهما معا، كثيرا ما يملي عليه قلبه ما يفعله، وقليلا ما أضله قلبه.

قام من فراشه نشطا والأفكار تطن في رأسه، فاجتاز الطرقة القصيرة بين غرفته والحمام في خطوتين واسعتين، ووضع رأسه تحت الماء البارد ليفيق لهذا اليوم الذي بدأ بداية حافلة، ثم عاد لغرفته فجلس على حافة فراشه وفي ذهنه تساؤلات عدة، حلم بسامراء يصحو منه على كاظمي يدعوه لسامراء؟ ومادمنا نتحدث عن سامراء فالأمر متعلق بالإمامين علي الهادي أو الحسن العسكري أو أحدهما، هل لكل هذا علاقة بأحلامه حول أمير المؤمنين؟ هل للمخطوطات علاقة بالرق الذي كان الإمام علي يخطه في الحلم؟ لو كانت الأحلام مجرد خبرات من

الماضي فكيف صحى من سامراء على سامراء؟ هل هو نوع من التخاطر بينه وبين كاظمي حين قرأ صديقه مقاله على الإنترنت وفكر بإطلاعه على سره؟ هل رأى سامراء أصلا في حلم أم في خيالات يقظة؟ كان جزء من عقله يأبى دائما أن يفسر تلك الأحلام إلا كإعداد له لأمر ما، إعداد روحي، فهل تكون المخطوطات هي الأمر؟

طافت كل هذه التساؤلات برأسه، لكن السؤال الأهم كان: لماذا هو؟ لماذا علي الإمام تحديدا؟ وما دوره الذي ينتظره منه كاظمي؟ مهمة صياغة الطرح التاريخي بصياغة يفهمها العوام، ومهمة مراجعة المخطوطات القديمة ليسا بالسبب الكافي ليحتاج كاظمي دعما منه في وجود أثري بارز مثل ديار؟ ولماذا قبل بإشراك ماري التي لا يعرفها في بحث وصفه بالسرية؟ ماري، أين هي؟

قام متجها للصالة ليجد باب غرفتها موصدا والنور مازال يملأ حجرتها، تعجب لأنه لاحظ قبلا أنها لا تستخدم النور الكهربائي في النهار، فهل هي نائمة؟ هم بأن يقرع بابها ثم تراجع، نبتت شجرة القلق بقلبه، فقد ظن حين رأى النور بعد الفجر أنها نسته ونامت، ولكن الساعة الآن العاشرة والنصف صباحا، وعهده بها طائرا مبكرا؟ بدأت شجرة القلق تنبت أشواكها لتحزه بوخزاتها الأولى الخفيفة، لا يستطيع أن يتجاوز الباب بأي حال، فهو لا يعرف عاداتها في النوم وقد تكون

متخففة من بعض ملابسها.

اتجه للمطبخ وأعد لنفسه كوبا من الشاي، تناول مع رشفات منه قطعة بسكويت مملح وقطعة شيكولاتة، واكتفى بهذا إفطارا، سمع رنين موبايل ماري فتوقع أن يتوقف الرنين حين ترد، لكنها لم ترد وطال الرنين ثم سكت قليلا ليتكرر من جديد، هل يمكن أن تكون نائمة بهذا العمق؟ يتجه للصالة المستديرة على الطراز القديم في عمارة الخمسينات، فيجلس على أقرب الفوتيهات لباب حجرتها، وعقله يسأل في إلحاح "ماذا ألم بك يا ملاكي الحارس؟ أرجوك كوني بكل خير، لعلك لا تعلمين أن قلبا بهذه الدنيا دقاته في أعمق معانيها هي صدى دقات قلبك؟ يا رب، قد تكون الصبية لم تهتد بعد لشاطئ الإيمان والأمان، لكن قلبها بكل خير، فاحفظها يا عالما بحالها وحالي، وأرها طريق النور في قلبها لتسلكه نحوك، طريق الحقيقة يا إلهي" هكذا كان يناجي ربه في جلسته المترقبة على بابها، كم يقتلنا الأرق على من يأرق لهمومنا ويحنو علينا، نحن ببساطة نفزع عليه ونفزع من تصور حياتنا بغيره، أي أننا نقلق على أنفسنا.

مرت نصف ساعة إلتهم القلق خلالها كبده فقرر أن يقرع الباب وهم بذلك بالفعل، لكن خيل إليه أنه يسمع صوت

تنفسها حين اقترب من باب الحجرة، كان صوت تنفسها منتظما هادئا، فطمئنه ذلك قليلا، المرضى لا يكون نومهم قريرا ولا تنفسهم هادئا كهذا، ولكن منذ متى كنت يا ماري نئومة الضحى؟ خيل إليه أن أنينا خفيفا صاحب أحد زفراتها؟ فتح التلفاز ليتلهى عن قلقه، أخذ يداعب الريموت بيده لعله يجد ما يستحق الرؤية، وقليلا ما يجد ذلك على القمر العربي، لا يستقبل هنا في شقته بالإسكندرية القمر الأوروبي حيث تذاع قنواته المفضلة مثل ناشيونال جيوجرافيك وسي إن إن، متى يكون لدينا قناة مثل ناشيونال جيوجرافيك في بلاد العرب؟ هناك إرهاصات لقنوات وثائقية جيدة لكن الشوط مازال بعيدا، ومازالت السياسة الرسمية لدولة القناة تتحكم في المادة التي تبثها، توقف للحظات عند واحد من إعلانات الحملة الضخمة التي تدعمها الولايات المتحدة لخلق رأي عام داعم لاحتلال العراق في العالم العربي، وذلك بإذابة الفاصل بين ما هو إرهاب وما هو مقاومة، وهذه الحملات مجدية جدا على عكس ما يتوهم البعض منا، فهي تغير الوعي الجمعي للشعوب بتكرار الرسالة حتى لو كان منطق الرسالة غير مقبول، فتكراره يكسبه مصداقية في نفوسنا دون أن نشعر، تلك هي لعبة الدعاية الإعلانية، الإضافة الأمريكية الأكبر للتراث البشري، ويالها من إضافة!

عاد يبحث في القنوات من جديد، ليتوقف عند كليب خليع تبثه واحدة من قنوات الموسيقى، في أمريكا تذاع المواد الخليعة مساءً وبعد التنويه عن طبيعتها بحكم القانون، لكننا هنا نسميها فيديو كليب لتذاع بكل وقت وبدون تنبيه فيراها الجميع. حاول ثانية فلم يجد ما يستحق الرؤية فأغلق التلفاز وهو يردد في نفسه ألا خير يرجى من هذا الشيء أبداً، مد يده لحزمة الجرائد بجوار الباب، لم يجد بينها صوت مصر، فاستنتج على الفور أنها تستقر بالداخل بجوار فراش ماري، أهذا ما طرد النوم من عيني حبيبته العنيدة؟

فتح الصحيفة القومية الكبرى ليجد المانشيت الرئيسي حول العلاوة السنوية، هيهات،لن تسد العلاوات والأساليب التحميلية ثغرة، فالفجوة بين الدخول ومتطلبات الحياة الاستهلاكية فائقة، لو أردت القضاء على شعب فارفع تطلعاته وقلل قدراته. في صحف المعارضة كانت بعض العناوين تتناول مسألة انتقال السلطة، واحتمالات تكرر التجربة السورية في مصر، فتداعت لذهنه أحداث شورى الستة الشهيرة في تاريخ الإسلام، ربما لمناقضة حاضرنا لحال عمر يوم رفض أن يكون ولده بين مرشحي الخلافة، إذ أراد المغيرة بن شعبة أن يزين للفاروق وهو في فراش الموت أن يستخلف **عبد الله بن عمر**

(هو ذاته من زين لمعاوية استخلاف ولده يزيد، ولا سواء بين الوالدين أو الولدين) فأجابه الفاروق بما أحرجه وأسكته[188]، وقال في ذلك قولته البلقاء "**إن كان خيرا فقد أصبنا منه، وإن كان شرا فحسب آل الخطاب أن يسأل منهم رجل واحد عن أمة محمد**"[189]

حدث هذا حين طعن الفاروق بطعنة الغدر، وفكر في أمر الخلافة، فكان بين أمرين، أن يستخلف كما استخلفه أبو بكر أو يترك الأمر شورى كما تركه الرسول؟ ويبدو أن رأيه استقر على الاستخلاف، ربما لظروف اغتياله واحتمالية مؤامرة فارسية اشترك فيها أبو لؤلؤة مع الهرمزان[190] وجفينة[191]، لكنه أحب مع ذلك أن يترك للشورى مجالا ولا يفرض على الناس رجلا بعينه، فحدد ستة من السابقين ممن يعرف أن الرسول مات راضيا عنهم، وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، ليتشاوروا خلال ثلاثة أيام

---

[188] قال له الفاروق: قاتلك الله. والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي (٥٥)

[189] (٥٥)

[190] حاكم إقليم تستر الفارسي سابقا، وكان قد أسر ثم أسلم، وقتله عبيد الله بن عمر حين قال عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رآه هو وجفينة يتآمران قبل الاغتيال بليلة مع فيروز ومعهم الخنجر (٨-٩٢)

[191] مولى من الحيرة طعنه عبيد الله بن عمر بعد الاغتيال [illegible] (٨)

فيسموا منهم خليفة، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري، فأمره أن يعد حرسا مسلحا لهذا المجلس المصغر، فلو اتفقت غالبية الستة على خليفة وعارض بعضهم وأصر على المعارضة يضرب عنقه تجنبا للفتنة، فلو انقسموا فريقان متساويان على رجلين، ترجح كفة الفريق الذي فيه ابن عوف كصوت ترجيحي[١٩٢]، ثم حدث أن فوض طلحة صوته لعثمان، وفوض الزبير صوته لعلي، وفوض سعد صوته لعبد الرحمن، وعندما تساوى علي وعثمان وعبد الرحمن لكل منهم صوتان، اقترح عبد الرحمن أن يعزل نفسه من الترشيح ويختار هو بين الرجلين، فوافقه المرشحان، فأمضى يوما في مشاورات مع ذوي الرأي والفطنة من المهاجرين والأنصار، ثم اجتمع بالناس في اليوم الثالث في المسجد، فدعا علياً فقال له :أتبايعني على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين من قبلك؟" فرفض علي في لحظة فارقة في تاريخ الفكر الإسلامي أن يلتزم بما لم يلزمه به الله وقال "**بل على كتاب الله وسنة النبي، وأجتهد رأيي**"، وكان منطق الإمام هنا جليا كالشمس، فكل بشر بعد النبي يؤخذ منه ويرد، وهذا المنطق العلوي هو الحجة البالغة على مبدأ التقليد المحض الذي سنه ابن تيمية رحمه الله، والذي قدس ما قاله الأولون، ومنع

---

[١٩٢] (٨-١٨)

المتأخرين من الاختلاف عنهم بالرأي[193]، فأفرز بهذا نحلة التطرف الوهابية وغيرها من صنوف الفكر المرتهن للماضي، لهذا كان الحق كل الحق مع علي وفقا لفهمه وفقهه أن يرفض التقيد بسيرة الشيخين من قبله، دون أن ينتقص هذا من تقديره لهما في كثير أو قليل، إنما هو رفض لمبدأ تقديس غير المقدس، لكن ابن عوف انصرف عنه، فدعا المرشح التالي وهو عثمان وعرض عليه ما عرضه على علي، فبايعه عثمان على ذلك، والمفارقة التاريخية هنا أن عليا رغم رفضه كان أقرب لسيرة الشيخين في خطوطها العامة حين حكم من عثمان رغم قبوله، بل كانت مخالفة عثمان لنص بيعته هذه واحدة من حجج الخارجين عليه، لأنهم رأوه قد بدل سيرة الشيخين اللذين بايعه الناس على الالتزام بسيرتهما، فسقطت بيعته من أعناقهم، وفي كل حال، كانت بيعة عثمان رضي الله عنه بداية عهد جديد تمر به الدولة الناشئة، لتشهد تراجعا في اتجاهين محوريين، الخط الاشتراكي أولا، وخط المساواة الاجتماعية ثانيا، تشدها الردة الأموية لعصر البرجوازية والعصبيات القبلية، ولا ريب أن التراجع عن هذين الخطين الفاعلين في حياة الناس كان المحراث الذي هيأ الأرض للثورة على الخليفة الراشد بسبب بني أبيه من

---

[193] (٩٤)

الأمويين، فكأن هذه البيعة كانت وقت الأصيل لدولة الإسلام التي انتهجت منهج السماء، والفجر لدول وامبراطوريات **عادت لها أرضيتها.**

(٢١)

الله محبة

تنبه لصوت باب الغرفة المضاءة يفتح وتطل منه حبيبته في منامتها القطنية وهي تداعب مؤخرة رأسها بيدها، ثم تبتسم ناظرة له وتقول "بدلنا الأدوار اليوم، صحا ساهر الليل قبل الطائر المبكر، صباح الخير". تنفس الصعداء بعد أن تأكد من إطلالتها أنها بخير، ثم رد التحية وأتبعها بقوله "أرعبني النور المضاء على غير عادتك، فكرت أن أقتحم الغرفة لأطمئن"

"ولماذا لم تفعل؟" قالتها مداعبة بدلال وقد أولته ظهرها متجهة للحمام، ثم استدارت فنظرت له من فوق كتفها نظرة زينتها بابتسامة ساحرة، ابتسامة شعر فيها بشيء جديد تماما، شيء يشبه دلالا مثيرا لم يره منها قبل اليوم، حتى غلب على ظنه أن الكاريزما الأكاديمية طردت منها دلال الأنثى، ولم تبقِ إلا على دلال طفولي مرح، كم تمنى أن يرى هذا الجانب منها؟ أن يقترب من ماري الأنثى "ترى ماذا غير نظرتك يا ماري؟ هل أوحت لك الخلوة بما لم تفكري فيه قبلاً؟ لو كان الأمر كذلك فلا ريب أن أمامي تجربة كتجربة المسيح في البرية، اختبار مشكلته أن الرسوب فيه أحب من النجاح وأشهى" هكذا فكر علي، فربما لا يأبه لألف امرأة في خلوة، ولكن هي،

ماري التي انتظرها بظمأ السنين وأرادها بشوق العمر، لا يعتقد أن مقاومته لو نوت أمراً ستكون كما ينبغي، هذا لو كانت هناك مقاومة على الإطلاق، دار بخلده ذاك الدعاء من إنجيل لوقا "وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ"[١٩٤]، لكنه لا يظن أنه بحاجة لشر الشيطان، فنفسه الأمارة كفيلة به جدا. مسح وجهه بيده ليطرد ما تردد برأسه من أفكار، وحاول أن يقنع نفسه أن ماري مستيقظة لتوها وحسب، ولهذا تتصرف بعفوية أنثوية لن تلبث أن تفيق منها مع الماء البارد وتعود لطبيعتها، الصديقة الجادة لطيفة المعشر.

شعر بحاجة لشراب ساخن، رفع صوته يسألها لو كانت تحب أن تشرب شيئا، أجابت بأنها تريد شايا بالحليب، قام للمطبخ ليعد لها الشاي ولنفسه قهوة فرنسية سوداء بقليل من السكر، فقط ما يكفي لقتل مرارتها دون أن يطغى على نكهتها، شغل غلاية الماء الكهربائية ثم تلهى بوضع الشاي والقهوة الجافة والسكر في الأكواب حتى غلت المياه، سمع صوت خطواتها خلفه وهو يصب الماء الساخن، كاد يلتفت ليراها، حين وجد كفين باردتين من أثر الماء تطوقان وجهه وتغطيان عينيه، لا .. هناك شيء ما، ليست ماري التي عرفها

---

[١٩٤] لوقا: ١١-٤

طوال هذه السنوات! هكذا فكر بينما دقات قلبه تتسارع في ترقب لذيذ، عندما تكون سرعة ضربات القلب بهذا الجمال فهل من العدل أن نحسبها عرضا مرضيا؟ تزايدت سرعة قلبه وزاد اندفاع الدماء في وجهه وفروة رأسه حين تحركت يداها لتحيط جذعه بذراعيها من الخلف، ثم وضعت رأسها على ظهره متناومة كقطة رقيقة، انتابت جسده قشعريرة محببة، لقد ثبتت الرؤية ودخل في عمق التجربة ولا يرى له منها نجاة. تسللت قطرتان من عرق بارد من جبهته نحو أذنيه، ومع وصولهما لشحمة أذنه وصله صوتها الهامس وهي تقول "كم تستغرق اجراءات زواج الأجانب هنا؟"

"نعم". هكذا أجابها لا شعوريا وهو يشعر بقلبه ينخلع من صدره طربا ولهفة وشوقاً، فأعادت عليه ما قالته تواً، هتف باسمها وهو يستدير ليواجهها، وعلامات فرح كمن بُشِّرَ بملك الدنيا ترتسم على وجهه، نظرت في عينيه نظرة أسكرته، يا الله، أي جنة أبقيتني خارجها دهرا يا حوائي الحبيبة؟ هكذا فكر قبل أن يسألها سؤالا ساذجا لدرجة العبط قائلا "تعنين أنا وأنت؟" لم تجب بكلمات ولكنها هزت رأسها موافقة وهي تعض على شفتها السفلى في خفر محبب، فما كان منه إلا أن أمسك بوجهها بين كفيه، وهو لا يكاد يملك زمام نفسه من الجذل، وما أن نظر في عينيها لحظة حتى رأي العينان النافذتان تهبطان برقة على وجهه، لتستقرا عند شفتيه، في هذه اللحظة

تبخر الكون فلم ير غير شفتيها، اقترب من ثمار الجنة فوقهما بثغره ورجفة تعصف بكيانه، ثم اندفع يقبلها بظمأ السنوات، سنوات الحب والحرمان وأحلام اليقظة، قبلة طالت فذاب فيها الحبيبان ذوبان السكر في ماء ساخن، هل أتت الموسيقى لحظتها من مكان قريب؟ أم ترددت بجوفه فوصلت لأذنيه؟ أم كشفت عنه الحجب فاستمع لموسيقى السماء؟ أي أجسام نورانية تتراءى لعينيه المغمضتين؟ كأنها ملائكة الحب ترقص حولهما على عزف الحور، لم يصمت عقله لسنوات حتى في نومه إلا بهذه اللحظة، لحظة التقاء الشفاه بظمأ العمر، فبهذه اللحظة أختصر كيانه كله في شفتين.

"هذه ليلتي و حلم حياتي، بين ماض من الزمان وآت، الهوى أنت كله والأماني، فاملأ الكأس بالغرام وهات"

هكذا انبعث صوت كوكب الشرق في غرفة المكتب، وقد حلت أضواء الشموع الوسنانة محل النور الكهربائي، وعلى الفوتيه الضخم بزاوية الحجرة جلس علي وماري على ساقيه وقد واجهته تلعب في خصلات شعره، أو ما عفا عنه الزمن من هذه الخصلات، وليس الزمن بصاحب عفو كبير! منذ عانقته وقالت ما قالته، خطر لعلي ألف مرة أن كل هذا قد يكون حلما من أحلامه، فدعا الله في قلبه مناجيا لو كان حلما أنعم عليه به، أن يتم نعمته فيقضبه إليه من فوره، فمن الأحلام من

يشعر المرء لو صحا منها وكأنه سقط من الجنة في نار السعير، لكن الحلم يطول ومع كل لحظة جديدة يزداد يقينا بحقيقته، لهذا قرر أن يعيشا معا كل لحظة في تلك الحقيقة الرائعة للحد الأقصى كما تخيلها لسنوات، نظرت في عينيه باسمة وقالت بدلال وحنان "هل اكتملت الطقوس السحرية؟"

"بل اكتمل الحلم، فقد حلمت بهذه اللحظة دهرا، بكل التفاصيل، هذه ليلتي، ضوء الشموع، نسيم البحر يهب من الشاطيء البعيد، وأنت وأنا والسحر من عينيك يلون الكون حولي بلون الحنين، فقولي الآن ما طاب لك أيتها الأميرة"

"رسالة وصلتني من السماء"

"لتقبلي الزواج؟"

"رأيت يسوع في حلمي، أو ربما كانت أيقونة له، لكنه حدثني، أو هكذا خيل إلي". ابتسم علي وهو يقول "أدركتك عدوى الأحلام إذا؟". ضحكت بدلال رائق كعسل مصفى وهي تقول "محتوى حلمي كان واضحا جليا، عبارة من كلمتين، الله محبة، أعقبها صوت الراهبات يترنم بنشيد الأنشاد "**إنْ كُنتِ لا تَعرفينَ أيَّتها الجميلةُ بَينَ النِّساء، فاتْبَعي آثارَ الغنَم، وارَعَي جداءَكِ هُناكَ عِندَ مَساكِنِ الرُّعاة**"[١٩٥]

---

[١٩٥] نشيد الأنشاد: ١

يغمض عينيه ليتذكر بقية النشيد فيتمه قائلا "**كفرَس أنت يا حبيبتي في مَركبات فِرعَون، ما أجملَ خدَّيك بالحلي وعُنقَكَ بعُقودِ الخرَزِ**"[١٩٦]

نظرت في عينيه الوالهتين وهي تقول "لم تكن السنوات أقل قسوة علي منها عليك، كنت كمن غطت عينيها بكفيها لتتخبط في الظلام، وهي عاجزة عن اتخاذ القرار برفع كفيها ورؤية النور، الحلم مجرد دعم روحي جاء في وقته، جاء من داخلي، من عقلي ووجداني الذي تمناك دهرا، فأمس، شعرت بالرب لأول مرة بقوة، بوجوده الطاغي في كل شيء حولي، كنت أبحث عنه بعقلي فلم أهتد لطريقه، لكن قلبي هداني، فعرفت الله"

"كنت واثقا، كان ما يفصلك عن الإيمان هو لحظة وجد، فيها تشعرين الله في قلبك كحال ابن عربي يوم قال: ليس بجوهر متحيز فيقدر له مكان ولا بعرض فيستحيل إليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والبصائر"[١٩٧]

اقتربت منه فوضعت خدها على خده وهمست في أذنه "انهارت مقاومتي، أمنية اقتحمتني وملكت على كياني وأنا أقرأ

---

[١٩٦] نشيد الأنشاد: ١

[١٩٧] (٩٥)

مقالك في هدأة الفجر، تمنيت أن أكون زوجتك وأما لطفلك، كل شيء كان ذا قيمة عندي رأيته يتضاءل فجأة، وتكبر أنت بقلبي على حسابه، ووعدي لأمي كان أول ما تضاءل وهان. الآن وقد أتيتك رافعة رايتي البيضاء، ما خطتك؟" ارتسم الجد على ملامحه كأنه يذيع خطة عسكرية وقال "نتصل بعزة لتستعد، وفي الصباح نتجه للقاهرة ونصحبها لنشتري خاتم الزفاف، في المساء نتم العقد الشرعي ونصبح زوجين أمام الله، الاثنين القادم نطلب إفادة بحالتك الاجتماعية من سفارتك، وحين تأت الإفادة نأخذها لوزارة العدل في لاظوغلي بقسم زواج الأجانب ونتم الزواج".

"كيف عرفت كل تلك التفاصيل عن زواج الأجانب؟"

"عرفتها لأني كنت أنتظرك". ضربت الأرض بقدميها وهي تمثل التذمر كطفلة وتقول "مازال علينا أن ننتظر أوراقا تأتي من بريطانيا لتفيد أنني لست متزوجة إذن"

"من قال أننا سننتظر؟ بعد تقديم الطلب سنعود لعشنا ونبدأ شهر العسل يا عروسي الرائعة، سنكون زوجين شرعا قبل الزواج المدني"

"أحبك". قالتها بسرعة وعفوية، قبل أن تستدرك ضاحكة فتقول "قلتها أنا قبلك، هل تصدق أنك لم تقلها لي صريحة

قبلا؟ ربما كان تفسيرك للحرفين بعد اسمي منذ قليل أصرح ما قلت لي، لكنك أبدا لم تقل لي **أحبك** بملأ فمك!

"أحبك، بل أوحّدك، وأعظم الحب التوحيد، ربي واحد في السماء، وأنت واحدة في النساء"

قالها وهو ينظر بعينيها، قبل أن تقترب منه فتقبل وجنته ويقبل جبينها ثم يتم خطته قائلا "سنقضي يومين في الاسكندرية، ثم نطير إلى دمشق فنكمل أسبوعا من عسل مصفى، بعدها نطير من دمشق لآربيل ومن آربيل لبغداد"

"نعم؟" قالتها بعفوية تملأها الدهشة وقد قطبت حاجبيها فجأة، فشرع يحكي لها عن مكالمته مع كاظمي وكيف خطط لاصطحابها معه قبل أن يعرف بقرارها الزواج منه، فهو يعرف كم تتمنى المشاركة في عمل كشفي كهذا، قبلته في سرور طاغ وهي تقول "الاشتراك في عمل كهذا هو هدية زواجي الحقيقية، لهذا سأتغاضى عن عدم خوفك على عروسك من قضاء شهر عسل في أسخن بقعة في العالم". نظر لعينيها نظرة عميقة، ثم قال وشبح ابتسامة يفيض غموضا على شفتيه "ستكونين بألف خير، لولا يقيني من هذا ما طلبت أن أصطحبك معي، أما قلت لك قبلا .. حدثتني عنك الكروم؟ حدثتني عنك النجوم؟ وزهر الفل وهبات النسيم؟ ستكونين بكل خير، وستكون تلك

الرحلة نقطة فارقة في حياتنا، هكذا حدثني قلبي، وأنا أصدق كل ما قال قلبي"

"تتغلب روحك على منطقك كثيرا يا مؤرخي الحبيب، لكنني أحب ذلك أيضا"

"المنطق اخترعته أرواحنا لتخلق مبررا لما تهفو إليه، ولهذا تبقى الروح مهيمنة على المنطق في كل حال، ما تهفو إليه القلوب هو الحق يا مريمي"

السبت، الخامس عشر من سبتمبر

أمام أحد المشارب الصغيرة في ميدان السوق القديم أو **جروت ماركت** في بروكسل، وقف الأمريكي يتناول قهوته السوداء، ويطالع على الناحية الأخرى من الشارع ذلك التمثال البرونزي الذي يتخذه البلجيكيون رمزا لعاصمتهم، تمثال لطفل يلبي نداء الطبيعة، تقول الأسطورة أنه وارث لقب الدوق **جودفري الثالث** دوق ليوفين، وقد وقف على فرع شجرة ليعين حامية الدوق على أعدائها بالتبول عليهم، وببركة البول الملكي حلت اللعنة بالأعداء فهزموا هزيمة منكرة، جميلة ومسلية هي الأساطير القديمة بشرط أن ندرك أنها أساطير ولا نعود لادعاء واقعيتها كل حين، وألا يوجب أحد علينا الإيمان بها لنصبح رجالا طيبين!

اليوم يوم مهرجان، ومهرجانات بروكسل كثيرة، هاهم

الشباب والصبايا يملئون أكوابهم الورقية بالبيرة الباردة التي تندفع من تمثال الطفل الملبي لنداء الطبيعة بدلا من الماء في بعض أمسيات السبت. ابتسم الأمريكي ولوح لرجل ذو وجه أحمر وشعر بني كثيف يعبر الطريق نحوه، كهل في الخمسين من العمر تبدو على عينيه آثار صداقة وطيدة مع المشروبات القوية كعادة الكثير من البلجيكيين، استدار الأمريكي فابتاع لصاحبه مشروبا قبل أن يصل إليه، لابد أنهما على ود قديم حتى عرف الأمريكي كيف يفضل الآخر قهوته.

عبر البلجيكي الطريق ومد يده مصافحا وهو يقول "مساء الخير أيها الكاوبوي المزعج في عطلة نهاية الأسبوع"

"ليس في عملنا عطلات أيها السكير الكسول". هكذا أجابه الأمريكي وهو يصافحه بود مبتسما، ثم استأنف وهو يمد يده بكوب من ورق مقوى يتصاعد منه بخار القهوة "ستفيدك في التغلب على صداع الخمر"

"لم أشرب منذ عامين، مازلت ترفض تصديق هذا؟"

"لن أصدق حتى أقضي معك أسبوعا في دبي وأتأكد بنفسي من فراغ بارك المترلي وعدم ترددك على حانات الدرجة الثانية ومعاكسة فتيات الليل، المهم، دعنا نتحدث في العمل حتى تعود لكلارا سريعا وألحق أنا بطائرتي، فلنتمشى قليلا ونتحدث".

قالها الأمريكي وهو يسحب البلجيكي أحمر الشعر من ذراعه ويتجه نحو بوابة السوق الأثرية سائرا فوق الرصيف العريض.
بدأ البلجيكي حديث العمل قائلا "أخبار قليلة لكنها هامة"

"لست أنا من يسعر الأخبار ومدى قيمتها، فهات ما عندك دون تضخيم لأهميته أيها الاستغلالي العجوز"

"مصدر باريس قال أن الكربون المشع أثبت أن المخطوطات يرجع بعضها بالفعل للنصف الأول من القرن السابع، الأثري الكردي ثرثر مع واحدة من حسناوات المعهد بأن المخطوطات قد تغير خريطة الشرق الأوسط بحسم خلافات عقائدية بين السنة والشيعة"

"هراء، لا يوجد مخطوط يوحد الكاثوليك مع البروتستانت حتى لو كان مكتوبا بيد يسوع نفسه، الملالي والمراجع والمشايخ لن يعترفوا بهذا أبداً، حتى لو كان محمد نفسه هو من وقعه، علمنا التاريخ أن الأديان والمذاهب لا تزداد مع الزمن إلا تباعدا"

"فلم الاهتمام الزائد بالأمر من قبلكم؟"

"المخطوطات قد تشغل الناس في بلد له تركيبة العراق الدينية، وهذا بحد ذاته سيقلل الاحتكاك بين السنة والشيعة هناك"

"لست فتاتك السوداء يا راعي البقر، لفق سببا يحترم ذكائي أو قل الحقيقة"

"حسنا، قد تزيد المخطوطات من قبول حزب الله وشعبيته في المنطقة، وهذا غير مرغوب فيه، هذا كل شيء، فلا تبالغ في أحلامك عن مكافآت سخية على المعلومات". قالها مداعبا في سخرية صاحبتها الاستهانة بعض الشيئ، لم يعجب هذا البلجيكي لكنه استمر قائلاً "هذا تلفيق يحترم ذكائي، لكنه ليس الحقيقة، هل للموضوع علاقة **بالعالم الجديد**؟ توحي أسماء الكوادر التي تلعب في خلفية المشهد بهذا". عبس الأمريكي قليلا وقال بلهجة خلت من الود تماما "هل لديك المزيد من المعلومات؟"

أدرك البلجيكي فورا أنه لمس الوتر المطلوب، إنه تنظيم العالم الجديد، أو ما عرف بهذا الاسم عند العامة، هو من يحرك عرائس الماريونيت هذه المرة، تعجب لانشغال التنظيم بمخطوطات أثرية، فهل ترك اليمينيون ألعاب السيرك السياسي والمخابرات ليصبحوا مهتمين بالتراث الإنساني في العراق؟ هكذا فكر البلجيكي لكنه احترم رغبة الأمريكي في تغيير مجرى الحديث والعودة للعمل الذي يتقاضى عليه أتعابا، فأجابه "أخبار من بغداد، مصدر اليونسكو يقول أن رئيس الفريق قد

يستعين بعنصر جديد، بروفيسور مصري لم يعرف اسمه، لكنه يقول أنه متخصص في تاريخ القرون الهجرية الأولى وينحدر من نسل محمد النبي نفسه". قالها البلجيكي قبل أن يشعل سيجارا صغيرا ثم يقول "لا أعرف كيف يتسنى إثبات النسب بعد كل هذه القرون".

يغطي وجوم لحظي وجه الأمريكي وتتبخر السخرية من لهجته وهو يقول "هذا يستدعي تحركا فوريا من قبلنا، أيا كان من قرر ضمه للبحث فهو حاد الذكاء، يريد أن يعطي لفريق العمل العلمي ثقلا روحيا بين العراقيين، قد لا تكون فكرته جيدة في بروكسل أو نيويورك، لكن في مجتمع كالعراق، تؤمن أغلبيته الشيعية بشرف النسب، فالأمر يختلف تماماً، لن نجد صعوبة في تحديد اسمه والمعلومات الأولية عنه، فليس هناك ألف متخصص مصري في التاريخ ينتسب لمحمد، أليس كذلك؟"

"لا يمكنني الجزم بهذا، سمعت يوما أن شهادة النسب كانت تباع بما يعادل خمسين دولارا"

"قد تباع الشهادات وتزيف الأنساب في البلاد الغير مهتمة بالنسب كمصر، لكن ليس في العراق، أعتقد أن رئيس الفريق العراقي تحقق من نسبه بالفعل قبل أن يخاطر باستقدامه، فنسب مزيف سيلقي بالظلال على الموضوع كله، والعكس لو أنه حقيقي، سيضاعف من قيمة الكشف عند العامة والإعلام. ما

عندك استحق عناء الطيران من بيروت لهنا في كل الأحوال، هل ستكون في العراق قريبا؟"

"الأسبوع المقبل في دبي، سأكون هناك يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي"

"أراك هناك، سندبر هذا بالطريقة المعتادة". افترق الرجلان فمضى الأمريكي نحو الاتجاه الآخر للشارع واستقل حافلة لفندقه ليحزم حقيبته الصغيرة قبل أن يقلع لبيروت بعد ثلاث ساعات، بينما واصل البلجيكي السير نحو بيته القريب من الميدان، لقد كلفه هذا البيت وسيارته الفارهة ثروة كبيرة ما كانت وظيفته في دبي لتوفرها لولا نشاطه الإضافي الذي يقتضي منه الخروج في نهاية الأسبوع، الحياة كفاح مستمر، هكذا كان يقول دائماً، قبل أن يصف نفسه بمواطن بلجيكي مسكين يفني عمره في محاولة مواكبة الأسعار التي جنت مع تفعيل الاتحاد الأوروبي.

في القاهرة، وفي وقت متأخر من مساء ذات اليوم، جلس رجلان في غرفة صالون مبالغ في أثاثها ورياشها، الأول مرتديا حلة رسمية أنيقة ورابطة عنق مناسبة، يوحي مظهره في مجمله بثري يحرص على إظهار ثرائه، حليق الوجه وعلى ملامحه سمت الرياسة والتسود، أما الآخر فيرتدي جلبابا خليجيا من حرير

أبيض مع عباءة حريرية سوداء مقصبة الأطراف، وتلمع في يده ساعة ذهبية صارخة البريق، حليق الشارب مطلق اللحية، وعلى وجهه ترتسم تعبيرات التبعية والتزلف، وهو ينظر للأول جالسا على طرف مقعده، ومتجها نحوه بكليته بينما يتخذ جذعه وضعا أقرب للانحناء، قال لسيده وهو يصطنع ابتسامة باهتة "بلغ السيل الذبى منه ومن ذلك الصحفي العلماني الذي يساعده، لم يجرأ علينا أحد لهذا الحد أبدا".

ابتسم الأول بسمة الواثق الهادىء، وحرك مسبحته الفضية حركة لولبية رتيبة وهو يقول "دعه يكتب، كم فرد سيفهم ما كتب؟ لدينا الأهم، أمثاله لا يفهمون أن المعركة تدور في الأوراق المالية لا في أوراق الكتب، ومن الأفضل لنا أن يبقوا هكذا، على العموم لا تقلق، فأمامه رحلة طويلة في العراق، تابع أنت من يراجعون كتبه ليوصوا للمجلس بالمصادرة، فيعود ليجد القرار نافذا"

"وهل سيعود؟ لماذا نرسله للعراق إذن؟"

"لا تشطح بخيالك، لا علاقة لنا بسفره، لقد وصلتني المعلومة من صديق في الخارج وحسب"

"وكيف نفوت هذه الفرصة، كيف يذهب بقدميه للنار ونتركه يخرج منها سالما؟ في العراق إخوان غيورون على

دينهم، وفيهم كل البركة". نظر له الرجل الأول نظرة ثاقبة كمن يحاول أن يرى ماذا بقلبه، حيره اهتمامه بهذا الأمر، لم يكن عادة يهتم بالأمور الثقافية والمناظرات والكتب، فلماذا يلح بشأن علي هذا؟ هكذا كانت نفس الرجل الأكبر تحدثه بينما اعتقد يزيد أن صمته يعني مبادىء اقتناع، فقال وعلى وجهه علامات الحماس والإقبال على أمر هام "لو اتصلنا بأخينا سعود في العراق و.."قاطعه الأول وهو ينتصب واقفا من جلسته إيذانا بنهاية الحديث والمقابلة وقال "إنس الموضوع، وإياك والتحرك بغير علمي". قالها وهو ينظر نحوه بنظرة تمتزج فيها الحدة بالاستعلاء والتهديد، فأجابه يزيد بسرعة وهو يعقد يديه كمن يعتذر عن تطاول أفلت منه "عفوا لو كنت قد أثقلت على سيادتكم، أنا دوما طوع أمرك وإذنك"

"سنرى". قالها الرجل بلهجة سيادية وهو يتجه لباب غرفة الصالون فيفتحه ليخرج الضيف الذي بدت على وجهه علامات الندم على تجاوز حدود تعلمها من طول معاشرته للرجل الكبير، رجل الأعمال البارز وصاحب الحقيبة الوزارية مؤخرا، والذي ينفي عن نفسه ليل نهار أية علاقة تربطه بجماعات الإسلام السياسي، رغم شغله موقعا يقترب من القمة في أهمها، بل لعله يفوق هذه القمة فعليا بما له من مال ونفوذ، **فالمال الوافر في بلادنا لا يقهر حين يعرف صاحبه أين يرمي بفُتاته.**

(٢٢)

وكان القمر بدرا

الاثنين، السابع عشر من سبتمبر

توجه العروسان للإسكندرية عبر الطريق الصحراوي بعد تقديم الطلب في سفارة بريطانيا، فوصلا قبل المساء. قاد علي بعروسه حتى شقتها في زيزينيا لتعد بعض أشيائها في حقيبة، واتفقا أن يمر عليها بعد ثلاث ساعات، فقام خلال الساعات الثلاث ببعض المشتروات ليتم اللمسات الأخيرة لمفاجأته التي أعدها، ثم توجه لشقته فارتدى التوكسيدو السوداء التي اشتراها لهذا اليوم من بريطانيا منذ سنوات، عقد البابيون الأنيق وشد الحزام الحريري الأسود حول خاصرته، ثم جال في الشقة ليتأكد من وضع كل شيء في مكانه، ومر على الغرف يعطرها بمعطر الياسمين، ألقى نظرة أخيرة على حامل اللوحات المغطى بملاءة بيضاء في الصالة، ثم خرج. في التاسعة مساء كان أمام العمارة الحديثة نسبيا التي تسكن ماري الدور السادس منها، هاتفها على المحمول فطلبت منه الصعود، وعند باب شقتها لاقته إحدى صديقاتها، لم يرها من قبل، أوروبية شقراء هادئة الملامح، دعته للدخول لانتظار عروسه باسمة، ومرت لحظات كان فيها مستوى الأدرينالين في دمه يكاد أن يرتفع للسماء

السابعة، ثم خرجت ماري للصالة في فستان زفاف من الحرير الأبيض، آية في بساطته ورقته، مشغول عند الصدر بتطريز خفيف بنفس لونه، متوسط الطول ينتهي فوق الأرض بشبرين تقريبا، ويجسم عودها الفارع برقة وبغير التصاق، وقد جمعت شعرها الحالك اللامع في ضفيرة كبيرة عقدتها مع شريط دانتيل أبيض ومررتها أمام كتفها لترقد على صدرها الريان وتصل لمستوى منتصف ذراعها تقريبا، فوق رأسها وضعت تاجا صغيرا أنيقا يناسب هيئتها الملكية وغطت كتفيها وأعلى ذراعيها بشال أبيض من صوف رقيق له وبرة غنية، مكياجها الخفيف أعطى وجهها شكلا أسطوريا لأن عينيه لم تتعود على رؤية أحمر الشفاه فوق شفتيها ولا رؤية عينيها المرسومتين، تصور للحظة أن هناك هالة من النور تحيطها.

"هل يمكن أن يكون الحور أكثر جمالا يا معشوقتي؟" هكذا فكر وهو يقف لاستقبال أميرته منبهراً، فسبحت عيناه تحاولان الإلمام بكل التفاصيل، خرجت وراءها صديقة ثانية فلم يتبين ملامحها، رآها كطيف لأن ماري كانت تحتل كل قدرته على تمييز المرئيات، إذا فهي أيضا أعدت له مفاجأة؟ عندما سألها في القاهرة لو كانت تحب أن يشتري لها فستان زفاف أجابته بأنها لا تحب فساتين الزفاف ولا تنوي أن ترتدي واحداً، كان يحلم بالمشهد الرومانسي وذيل فستانها الأبيض يرقص على قدميه

وهو يرتدي التوكسيدو السوداء كما غنت نجاة الصغيرة[١٩٨]، لكنه احترم رغبتها ولم يناقشها فيها، فعلت هذا لتفاجأ عينيه بهذا المشهد الأسطوري لثوب لم يره إلا في هذه اللحظة وبهيئة تخالف ماري التي زاملها وصادقها ثم عشقها، ما أروع المرأة حين تحب وحين تريد بصدق أن تثير الدهشة في عيني حبيبها؟ دهشة ضرورية حتى يعيش الحب في قلب الرجل، لا تقل ضرورة عن فخر المرأة بشيء أو اثنين في حبيبها، كانت تنظر في عينيه مبتسمة، أحبت نظرة الرضا التي يراودها الانبهار في عينيه، لا توجد امرأة لا يسعدها انبهار رجلها بجمالها، أو بجمال شيء صنعته يداها من أجله، تقدم نحوها مادا ذراعيه أمامه وباسطا كفيه فاستقبلتهما بكفيها، قبل وجنتيها ثم رفع كفيها فلثمهما، سمع صوت تصفيق صديقتيها فانتبه لوجودهما واستدار لهما شاكرا، سألته ماري ووجهها مشرق بالسعادة لأنها ترى إجابة سؤالها مقدما في عينيه "إذا فجهود الفتاتين قد أثمرت، وتمكنتا من تحويل الباحثة الشمطاء إلى عروس؟"

"أسطورية". هكذا همس لها قبل أن يستمر قائلاً "تمكنتا من تحويل العبقرية الفاتنة إلى عروس أسطورية، كدت أقسم أني أرى هالة من نور تحيط بوجهك". شكر العروسان الصديقتين

---

[١٩٨] الإشارة لأغنية أيظن من كلمات نزار قباني والتي تقول فيها "حتى فساتيني التي أهملتها فرحت به رقصت على قدميه"

ثم خرجا، في الشارع فتح لها باب سيارته لتجلس، فوجدت دواسة السيارة تحت قدميها مغطاة بأوراق الياسمين اليانعة، يعرف أنها تحب رائحة وملمس الياسمين، مالت العروس للأمام فأمسكت قليلا منه بقبضة يدها واستنشقت رائحته الطازجة المنعشة، ثم مالت على علي الذي احتل كرسي السائق إلى يسارها فمنحته قبلة ممتنة على عنقه، انطلق العاشق بالسيارة السوداء يتعجل اللحظات ليصلا للبيت، فحين يقترب الفرح ينفذ صبرنا بعدما انتظرناه مليا وهو بعيد عنا، كان يذوب لهفة ليرى أثر المفاجأة عليها، يتمنى أن يسعدها كما أسعدته، لا يدري كيف مر الطريق، فهو لا يذكر أنه رأى أو سمع شيئا خلال العشرون دقيقة التي استغرقها الطريق من بيتها لبيته.

صعدا في المصعد الكهربائي عتيق الطراز، وعند باب الشقة مد يده بالمفتاح وطلب منها أن تتفضل بافتتاح العش المؤقت بعد التعديلات، سألته عما يعنيه بالتعديلات فأجاب بأن عليها أن تفتح لترى، أدارت المفتاح متطلعة وعلى شفتيها بسمة لم تلبث أن اتسعت حين دلفت للصالة، لقد تغير كل شيء تقريبا، أعيد طلاء الجدران بلون أبيض بهيج، ولمع خشب الأبواب والأرضيات بلمعة أنيقة أظهرت جماله، وتألق في جنبات الصالة آنتريه من الآرابيسك دقيق الصنع، تناثرت حوله

طنافس ومساند جلدية فوق كليم من الصوف، كان يعرف أنها تعشق الآرابيسك والديكور الإسلامي، صرخت سرورا بعد أن استوعب عقلها المفاجأة الجميلة وقالت "لكن، متى؟ وكيف وقد كنا سويا طوال الوقت؟"

أجابها وهو يحيط كتفها بذراعه "تماما كفستانك يا مولاتي، الأصدقاء ذخيرة حياتنا، طلبت من صديق مهندس إصلاح ما أفسده الدهر في العش القديم، وطلبت منه الاستعانة بجيش من العمال ليتم العمل في غضون يومين، أما الآنتريه فاشتريته بنفسي ساعة تركتك مع عزة في محل المصوغات في خان الخليلي"

لاحظت حامل اللوحات المغطى، فأشارت إليه وهي تقول وقد اتخذت خطوة نحوه "مفاجأة ثانية؟" تقدم فوقف بجوار الحامل كاشفا الغطاء عن اللوحة، فاتسعت عيناها وغطت فمها بكفيها وهي تنظر لوجهها الذي يحتل منتصف اللوحة، وخلفه ظلام دامس إلا من بدر في السماء، وقد قارب الفنان الذي رسمها بين لون وإضاءة وجهها وبين نور البدر لدرجة لا تخطئها العين، كأنه يعكس البدر على وجهها أو العكس، رأت توقيعا أسفل اللوحة باسم **أحمد فتحي**، فأشارت نحو التوقيع، وقبل أن تسأل أجابها "تخيلتها دوما، وتمنيت لو رسمتها بنفسي، لكن

قدراتي في الرسم دون هذا بكثير، رسمها صديق فنان بعد عودتي من بريطانيا منذ سنوات، أعطيته صورتك ووصفت له ما أريد، فرآها العبقري بعين خيالي ورسمها كما تصورتها وحلمت بها، أودعتها هنا في الإسكندرية لتكون ونيسي في ليالي الوحدة".

"لهذه الدرجة؟ كل هذا الحب؟ ما أحمقني". هكذا علقت وهي تضمه إليها ضمة حميمة، فقال "يبقى جزء أخير من المفاجأة، القطعة المتممة لأنتريه الآرابيسك التي اخترتها معه". قالها وهو يجذبها من يدها نحو الغرفة الداخلية، فتح باب الغرفة ووقف مستندا للباب المفتوح ثم انحنى بحركة مسرحية مشيرا لها بذراعه لتدخل مقلدا الخدم الإنجليزي الأرستقراطي، انبعثت رائحة الياسمين التي استخدمها لتعطير الجو والأثاث منذ ساعتين، كانت غرفة النوم بأكملها من الآرابيسك كذلك، وزادتها ستائرها الحريرية شرقية الطراز روعة بلونها الذهبي الهادىء، وحين خطت العروس خطوتها الأولى، سمعت صوت كصوت أوراق شجر جافة تحت قدميها، نظرت لترى الأرض كلها مغطاة بأوراق ورود جافة، وحين رفعت عينيها تتأمل الغرفة، فغرت فاها من فرط الدهشة، لم تكن الأرض فقط، بل غطت الورود كل سطح في الغرفة، التسريحة، خزانة الأحذية، الكومود، وعلى الفراش كتبت بأوراق الورود عبارة من

كلمتين: **الله محبة**.

تعلقت بذراعيها في عنقه وقبلت شفتيه قبلة طويلة مفعمة بالإثارة هذه المرة، ثم أفلتت ضاحكة وتقدمت نحو خزانة الملابس وهي تنزع الدبابيس التي تثبت تاجها وتقول "لم تترك لي خيارا، فلتستعد لردي على مفاجأتك بمفاجأة لم تحلم بها يوما". ابتسم لها وهو يلتقط جهاز تحكم صغير من فوق التسريحة ويضغط أحد أزراره، لتنبعث موسيقى **شهرزاد** لكورساكوف، يعرف أنها تحبها لأنها أول ما دفعها للاهتمام بالشرق في صباها، أطفأ نور الحجرة الرئيسي مكتفيا بالأباجورة الصغيرة بجوار الفراش وضوء القمر المتسلل من النافذة التي تركها مفتوحة ليتسلل منها نهر النور الفضي الساحر، تقدم نحوها وكانت قد تخلصت من حذائها وتاجها وفكت ضفيرتها، ليحيط شعرها الأبنوسي بوجهها العاجي البشرة، رقصا معاً في ضوء القمر، وكان القمر بدراً.

الخميس، العشرون من سبتمبر

ودع العروسان عزة أمام صالة المغادرة في مطار القاهرة الدولي، وفي غضون الساعة كانت طائرة مصر للطيران تقلع بهما باتجاه دمشق، أسندت ماري رأسها لكتفه وأخذت تتصفح إحدى الجرائد الإنجليزية الصادرة في مصر والتي وزعت على متن البوينج ٧٦٧، لفت نظرها مقال عن الرئيس

الراحل **محمد نجيب** تتوسطه صورة له بالزي العسكري، وصورة أخرى بملابسه المنزلية وقد تقدمت به السن، قرأت شيئا من المقال ثم قالت وهي تلتفت لزوجها "ظُلِم الرجل كثيرا".

نظر علي لحيث تشير ليرى صورة الرئيس السابق فيرد بقوله "إلى حد كبير". فتساءلت "لماذا فعل ناصر هذا؟"

"كان الرئيس نجيب رجلا صالحا، وضابطا منضبطا وقائدا عسكريا من طراز ممتاز، نظيف اليد وحسن السمعة وله قبول اجتماعي كبير، لكن بكل أسف كانت تنقصه حنكة السياسي وقدرته على تمييز الأصوات من حوله، واكتشاف الغرض وراء كل صوت، فوجد بعض الساسة القدماء وقتها، فضلا عن عناصر الإسلام السياسي، في طبيعته هذه بابا خلفيا للانقضاض على الثورة وتصفيتها من الداخل، وأتاح لهم نجيب هذا بحسن نية أولا، ثم بخصومة مقصودة ضد الضباط الأحرار فيما بعد". تمهل لحظة ليرتب أفكاره، ثم أخذ يشرح لها منذ البداية، كيف عرض مجلس قيادة الثورة على قادة حزب الوفد تسليمهم السلطة بشرط واحد، وهو الالتزام بقانون للإصلاح الزراعي، وكيف رفض زعماء الوفد الشرط، وكان بينهم آنذاك العديد من الإقطاعيين، وهم المنتظر تضررهم من الإصلاح الزراعي لو طبق كما يراه الضباط الشبان، فبدأوا محاولة لإقناع نجيب باتخاذ قرارات منفردة بسلطاته الرئاسية بعيدا عن مجلس القيادة، وكان أهمها قرار بحل مجلس قيادة الثورة وعودة الضباط لثكناتهم، فانفجر الصراع بينه وبين مجلس القيادة ليصل لما

عرف بأزمة مارس التي استقال فيها نجيب ثم تراجع في استقالته، وانتهى الأمر بتحديد إقامته في بيته، لمنعه من الإتصال بالوفديين والإخوان.

بين علي بعد هذا الشرح رأيه فيما حدث، مقرا الثورة والضباط الشباب من حيث المبدأ، لكنه تحفظ على الأسلوب الذي عومل به نجيب، لما له من سابقة وطنية، ودور في نجاح الثورة على مستوى القبول الشعبي. سألته "فهو إذن قائد مخلص لكنه يفتقد للرؤية"

"بالضبط، أتذكرين يوم سألتني عن تقديري لعثمان بن عفان رضي الله عنه؟ سابقة عثمان وفضله لا ينكرهما إلا جاحد، وكذلك خلقه يربو فوق الشبهات، لكنه بدأ الولاية في عمر السبعين وتوفي عنها في الثمانين، وهذه سن لا تناسب أعباء القيادة، وزاد من خطورة هذا كونه أموي[١٩٩] النسب، وإن لم يكن أموي الخصال، لكنه كان يرى في تولية أهله مناصب الدولة برا بهم وصلة لرحمه، وكان يحسن الظن بهم، وهنا كان الخطأ، فاشتعلت الفتنة"

" هذا يعني أن لثورة الأمصار عليه منطقا، كنت أعتقد هذا دوما".

---

[١٩٩] عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٦٣)

"الثورة نعم، أما اغتياله فلا، فالثورة على الحاكم ومطالبته بالرجوع عن أي مظلمة حق للجميع، لكن الاغتيال يبقى جريمة نكراء وغير مبررة"

"فلماذا لعن ابن حزم وغيره الثوار كلهم ووصفوهم بأقذع الألفاظ[٢٠٠]؟ برغم أن منهم صحابة الرسول، وساووا في ذلك بين من قتل ومن لم يتقل؟" ضحك للملحوظة الذكية، وأجابها "سب معاصرو الدولة الأموية الثوار ولعنوهم ارضاء للخلفاء، ووصلت هذه البدعة لمن بعدهم ممن لم يعاصر الفتنة مثل الإمام ابن حزم فقالوا قولهم"

"ودفاع كتب التراث عن تولية عثمان لأقاربه بأنهم كانوا أكفأ الناس للولاية، واستدلالهم بولاية بعضهم قبل خلافة عثمان، هل كان لارضاء الخلفاء كذلك؟" أومأ برأسه وهو يجيب بقوله "تولى معاوية وحسب على دمشق في خلافة عمر، لكن مع ولاية عثمان أضيف إليه عبد الله بن عامر ابن خال الخليفة على البصرة بدلا من أبي موسى الأشعري[٢٠١]، وسعيد بن العاص ابن عم الخليفة على الكوفة بدلا من سعد بن أبي وقاص[٢٠٢]، ثم تولاها الوليد بن عقبة أخو الخليفة من والدته[٢٠٣]

---

[٢٠٠] قال ابن حزم في مصنفه: لعن الله من قتله والراضين بقتله، بل هم فساق محاربون سافكون دما حراما عمدا بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون (٩٦)

[٢٠١] من بني عبد شمس، ولاه عثمان على البصرة وعمره وقتها خمس وعشرون عاما (٨-٣٤)

[٢٠٢] أموي من أبناء عمومته (٨-٣٤)

بعد سعيد، فضلا عن ولاية عبد الله بن أبي السرح أخوه في الرضاعة على مصر بدلا من عمرو بن العاص[٢٠٤]، وتنصيب صهره مروان بن الحكم رئيسا لديوان[٢٠٥] الخلافة، وتولية يعلي بن منية[٢٠٦] ابن عمومته على صنعاء، ليصبح ولاة الشام والعراق والحجاز ومصر، وهي الولايات الرئيسية، كلهم أمويون".

سألته باسمة وهي تعبث بإصبعها في شيب فوديه "كيف تذكر كل هذه التفاصيل؟" أجابها بأن التاريخ عنده ليس مهنة وحسب، لكنه المنظار الذي يرى منه الحاضر ويشرف به على المستقبل، فالناس منشغلون في أمر الغيب بالعلم حينا وبالشعوذة أحيانا، وهو منهم قاب قوسين، بوابة المستقبل هي الماضي الذي أنجب حاضرنا وينجب بعده مستقبلنا".

قبلت وجنته فقبلها وهو يربت على كتفها، ثم توسدت ذراعه ونامت بعد دقائق. أخذ يفكر فيما حضر بذهنه عن عصر عثمان، لديها كل الحق، فوصف ثورة الأمصار بأنها تمرد مغرض من حديثي الإسلام تسطيح مخل للأمور، فقد كان فيهم

---

[٢٠٣] أموي من بني عمومته وأخوه لأمه، قيل أنه صلى بأهل الكوفة الفجر أربعة ركعات لأنه كان سكرانا ثم استدار لهم وقال: أتريدون أن أزيدكم (٢١-٣٤-٥٥-٦٣-٦٩)

[٢٠٤] (٨-٣٤)

[٢٠٥] (٨-٣٤)

[٢٠٦] حليف بني أمية وصهرهم الثري (١٨)

العديد من الصحابة، وكانت المآخذ على الولاة الأمويين في الأمصار كثيرة بالفعل، ولم تكن فرية كاذبة، ولهذا ثار عليهم رجال بحجم أبي ذر الغفاري، فارس الثورة الاشتراكية في التاريخ الإسلامي، والرجل الذي لحق برسول الله سيرا على قدميه ليجاهد معه، فقال عنه الرسول "**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده**"[٢٠٧]، وقال له ذات يوم "**يا أبا ذر، كيف أنت إذا أدركك أمراء يأكلون الفئ بعدي؟**" فأجابه الفارس الشجاع في الحق قائلا "إذا والذي بعثك بالحق لأضربن بسيفي" فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم "**أفلا أدلك على خير من ذلك؟ اصبر حتى تلقاني**"[٢٠٨]، لهذا لم يضرب الصحابي بسيفه، لكن ذلك لم يمنعه من الثورة على معاوية في الشام لبذخه مع الخاصة وأثرته على العامة، حتى شكاه معاوية للخليفة، واتهمه بتأليب أهل الشام عليه، فاستدعاه عثمان للمدينة، حيث واجه الصحابي الخليفة في عاصمته بما كان يواجه به معاوية في دمشق، معترضا على السياسة المالية للدولة ومخالفتها للمنهج النبوي، ومنهج الشيخين، فنفاه عثمان إلى الربذة، حيث مات في صحرائها

---

[٢٠٧] (١٥)

[٢٠٨] (٢-١٥)

وحيدا، وصدق فيه قول الصادق المصدوق الذي قاله قبل عشرين عاما، ومثله عارض الخليفة في سياساته المالية كل من سلمان الفارسي وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر، وإن لم ينضموا للثائرين عليه، أما من ثار واشترك في الحصار من الصحابة فكانوا مالكا الأشتر، و عبد الرحمن بن عديس وفروة بن عمرو ومحمد ابن أبي حذيفة، وجبلة بن عمر الذي عارض دفن عثمان في البقيع بعد اغتياله، وكذلك محمد بن أبي بكر وعمر بن الحمق وعبد الله بن بديل وحُكَيم بن جَبَلة[٢٠٩]، وهؤلاء ليسوا بالنفر القليل.

انتبه علي للمضيفة تسأله عما يفضل من قائمة الطعام، فلم يجد بنفسه شهية للأكل، فالرحلة أقصر مما يقتضي تناول الطعام وقد بقي من زمنها أقل من ثلاثين دقيقة، بعدها تستقبلهم دمشق الساحرة بأحضانها العربية الدافئة، ربت على رأس زوجته الناعسة فوق كتفه وهو يتطلع لغلاف مجلة انجليزية، رسم عليه كاريكاتير يصور تكالب الأثرياء على امتلاك أدوات الرفاهية، وما يؤدي إليه من تضخم بضير الفقراء في النهاية لاستنفاذ الناتج القومي في سلع وخدمات استهلاكية

---

[٢٠٩] جبلة بن عمر الساعدي شهد بدر (١٢-١٥-٩٨-٩٩)

واستفزازية لا تخصهم، المال، دائما المال، كم من حلم كبير دفنته عواصف المال التي تعصف برؤوس الناس فتقتلع ما عداها؟ لطالما كان التطلع المادي هو البذرة الأولى لانحراف كل دعوة فاضلة؟ ألم يقل الرسول يوما **"إن لكل أمة فتنه، وفتنه أمتي المال"**[210]، فما جدوى الدفاع عن قضية خاسرة؟ ومحاولة تسفيه عشرة آلاف إنسان لإبراء الخليفة من خطأ اعترف به هو نفسه؟ كان عثمان يرى أول الأمر أن المسلمين عابوا عليه ما لو فعله عمر بن الخطاب لأطاعوه، وهذه طبيعة الرجل الحيي، يحسب أن الناس تستضعف حياءه فتتجرأ عليه[211]، وكان يظن في المتظلمين الكذب على ولاتهم، ولم يكن هذا الظن بعيدا، فقد تظلم بعض أهل البصرة من أميرهم سعد بن أبي وقاص في زمن الفاروق، فلما انتدب الخليفة لجنة لتقصي الحقائق، ظهر بطلان شكواهم[212]، وأحسب أن رجلا كمروان بن الحكم كان يذكر الخليفة بهذه الواقعة وأمثالها دوما، ليسوغ له سوء

---

[210] (١٣٩)

[211] دخل عثمان المسجد وصعد المنبر فقال: ألا فقد والله عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنتُ لكم وأوطأت لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ (٨-١٨)

[212] (١٥)

الظن برعاياه[٢١٣]، ومع ذلك، وفي مرحلة تالية بعد أن كثرت القلاقل، بدأ الخليفة يقتنع بوجود انحرافات من جانب عماله، فبعث بخطاب قرأ في مساجد الأمصار يدعو الناس للقدوم بمظالمهم في موسم الحج لينظر فيها[٢١٤]، وحين بدرت بوادر الثورة، شعر الخليفة الراشد بما أخطأ فيه، وأصغى لوصية علي[٢١٥]، فصعد المنبر وأعلن رجوعه عما دفع الناس للخروج عليه[٢١٦]، فكان هذا دلالة جديدة على عظمة معدنه، فلا يرجع لخط الصواب إلا من طلب الحقيقة، ولو أنه فقط ثبت على نيته تلك، لانتهت الفتنة في مهدها، لكن مروانا استأذنه في الخروج للناس، يشتد عليهم حتى لا يظنوا بالخلافة ضعفا، فأذن له، فخرج للناس يهدد ويتوعد من يحاول نزع ملك الأمويين من

---

[٢١٣] قام مروان بن الحكم بعد انتهاء الخليفة من خطبته فقال: إن شئتم حكّمنا والله بيننا وبينكم السيف، فيرد عثمان عن قوله الذي أثار الناس وأمره عنه (٨–١٨)

[٢١٤] جاء في خطابه: وقد رفع إليّ أهل المدينة أن أقواما يُشتمون ويضربون، فمن ادعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان مني أو عمالي (٨–١٨)

[٢١٥] دخل علي على عثمان فقال له: تكلّم كلامًا يسمعه الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تمخضت عليك (٨)

[٢١٦] قال عثمان فيما قال: ولكني منتني نفسي وكذبتني وضلّ عني رشدي، ولقد سمعت رسول الله يقول: من زلّ فليتب ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة، فمن تمادى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أول من اتعظ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم (٨)

أيديهم[٢١٧]! ملك الأمويين! ابن الحكم يصف الخلافة بالملك هكذا جهارا نهارا؟ يسمع علي بهذا فيرى فيه تراجعا من الخليفة عما اتفقا عليه، فيقرر ألا ينصح له بعدها أبداً. عند هذه النقطة من أفكاره يعود علي ليوم مناقشة رسالته في شيفلد.

"كان مروان بن الحكم وحده ثلاثة أرباع الفتنة"

بهذه الجملة استهل علي الجزء الرابع من رسالته للدكتوراة، وفي يوم المناقشة، بدأ عرضه لهذا الجزء بالحديث عن الحكم بن العاص والد مروان، وهو من طلقاء الفتح كأبي سفيان، وكانت له عادة فاجرة، إذ اعتاد أن يقلد الرسول ساخرا في مجالس المنافقين، حتى رآه الرسول مرة متلبسا بهذا، كما تكرر منه افشاء ما يسمعه من ابن أخيه وصهره عثمان من مشاورات الرسول، فنفاه الرسول للطائف، وحاول الحكم العودة للمدينة خلال خلافة الشيخين فرفض كلاهما، حتى تولى عثمان فسمح له بالعودة، فكان هذا أول ما كره الناس من خليفتهم الجديد.[٢١٨]

---

[٢١٧] خرج مروان فخطب في الناس قائلا: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا (٨-١٨)

[٢١٨] (٢٢-١١٦)

ثم عرض على هيئة المناقشة عرضا سريعا لدور ابنه مروان في الفتنة، فهو من أوغر صدر عثمان ضد عبد الله بن مسعود، فأمر الخليفة بضربه حتى كسر ضلعه[٢١٩]، وهو من أوغر صدره كذلك ضد عمار بن ياسر يوم قدم له عريضة بمظالم الناس، فقال له مروان "إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلت به من ورائه"[٢٢٠]، لكن الخليفة لم يعمل بتلك المشورة السوداء، فوقاه الله من الوقوع في دم صحابي كعمار، وصفه الرسول بأن قتله يكون على يد الفئة الباغية، والأهم أن مروان هو من جرأ الناس على الخليفة بما ارتكبه باسمه من مظالم دون علمه، ومن هذا أنه أصدر خطابا ممهورا بخاتم الخليفة لبيت المال يأمر فيه بتوزيع عدد ضخم من إبل الصدقة على أبناء الحكم بن العاص، فعلم عبد الرحمن بن عوف بهذا، وأرسل من استحوذ على الإبل من بيت المال ووزعها بين الناس بالعدل[٢٢١]، فكسر هذا هيبة الخلافة بنقض أمرها، ومع

---

[٢١٩] كان ابن مسعود خازنا لبيت مال الكوفة، فأتى للخليفة يشكو الوليد بن عقبة لصلاته بالناس سكرانا، ولاقتراضه من بيت المال ما لا يرد، فقال له الخليفة ناهرا: إنما أنت خازن لنا، ثم أمر غلمانه بضربه حتى كسر ضلعه، وتذمر الناس من تصرف الخليفة هذا، فأمر بإقامة الحد على الوليد بن عقبة بجلده (٢-٨)

[٢٢٠] (١٨)

[٢٢١] (٨-١٨)

تكرار مظالم مروان والولاة الأمويين، انضم بعض أهل المدينة لثوار الأقاليم، وحاصر الجميع الخليفة في بيته، حتى أرسل لعلي يوسطه بينه وبينهم ليمهلوه ثلاثة أيام حتى يعزل من كرهوا من الولاة ويرد المظالم، ففعل علي وأمر الحسن والحسين أن يقوما على باب الخليفة فلا ينفذ إليه أمر يكرهه، ووقف معهم عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ومحمد بن طلحة يحرسون الخليفة، لكن هذا لم يمنع الشوط من بلوغ نهايته، فتسور الثوار الباب، وقتل ثالث الراشدين وسال دمه طاهرا على مصحفه، ولعل ما قاله علي في هذه الفتنة كان أفضل الأقوال وأوجزها، حين قال "**استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع**"[٢٢٢]

انتبه "علي" من غفوة أخذته للحظات على ارتطام عجلات الطائرة بأرض مطار دمشق، ففتح عينيه وضم زوجته الحبيبة بذراعه ضمة حميمة وهو ينظر إليها كمن لا يصدق أنها أصبحت زوجته في النهاية، وأنه معها الآن في دمشق كما تمنى في أحلام يقظته، فما أحلى الأحلام حين تتحقق.

---

[٢٢٢] (٧٤)

(٢٣)

يا مال الشام

خرج علي وماري من مطار دمشق الدولي فاستقلا تاكسيا إلى فندقهما، ما أن تحرك التاكسي خارجا من زحام المطار حتى بدأت أنسام دمشق المحببة تهل عليهما، "لله درك من ساحرة يا دمشق". هكذا كان "علي" يقول إذا تذكرها، فهي رغم بساطتها عريقة فتية، وقد اختلف الناس في أصل اسمها، فقيل أنها سميت دمشق لأن من بناها **دَمشَقَ** في بنائها، أي أسرع، كأن يقال ناقة دمشق أي مسرعة، وقيل بل سميت على اسم **دماشق بن قاني بن مالك بن سام بن نوح** وتلك خرافة قال بها **ابن الكلبي**[٢٢٣]، تماما كخرافة **مصرايم**، لكن **ما لا** خلاف عليه هو أنها واحدة من أقدم المدن المعمورة في عالمنا، أثبتت حفريات تل الرماد أنها سكنت قرابة عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد، وحولها دارت أساطير بلا حصر، فمن قائل أنها كانت مستقرا لنوح عليه السلام لتنافس الكوفة في هذا، لقائل أنها كانت موطناً لإبراهيم أبي الأنبياء لتنافس العراق، غير أنها أقوال مرسلة لا يستقيم عليها دليل، وتتخلل دمشق الحدائق الغناء وأشجار

---

[٢٢٣] (١١٨)

الفاكهة، مكونة غوطتين شرقية وغربية، تعرفان معا بغوطة دمشق، تلك التي وصفها الأقدمون بأنها جنة الله في أرضه، وما كذبوا في هذا ولا جاوزوا الحق، ففيها أطيب هواء وأرق منظر يمكن للعين أن تراه في الوطن العربي بأكمله، تذكر علي والسيارة تمر في طريقها بين المروج بيت شعر يقول: **سَقى اللّه أرض الغوطتين وأهلَها، فلي بجنوب الغوطتين شجون**، حاول أن يتذكر الشاعر و لم تغنه المحاولة، وفي غضون أقل من ربع الساعة وصل التاكسي بالعروسين إلى قلب دمشق القديمة، حيث تتركز روحها الدافئة الخلابة، تلك الروح العريقة التي تحسها في المدن العربية القديمة في المشرق والمغرب، على اختلاف النسق والمشاهد، روح محملة بعبق التاريخ وذاكرة الزمن وتلاطم أمواج البشر.

جاب السائق بهما بعضا من الطرقات المزدحمة الضيقة نوعا، حتى وصلوا لتل الحجارة في شارع الأمين الطويل الممتد، فتوقف السائق أمام مبنى رائع العمارة على الطراز الدمشقي، هو فندق تاليسمان حيث يترل العروسان، كان الفندق محببا لعلي لتفرده المعماري وإن لم يرق له اسمه أبداً، فالعمارة الشرقية الفريدة والرونق الدمشقي الجريء الصريح لا يناسبهما اسم غربي، خاصة لو كان معناه الطلسم، فالعمارة الدمشقية

ليست كالعمارة الهندية الموحية بجو سحري مثلا، لكن هذا لا يقلل روعة الفندق بداية من واجهته الخارجية مرورا بكل مرافقه وانتهاء بغرف النوم فيه، فكلها معا تشكل تحفة من الفن السوري الجميل، وفضلا عن هذا النسق الفريد، يمتاز الفندق بموقعه في قلب دمشق النابض الذي لم ينم منذ قرون، لهذا قرر علي وماري القيام بجولة في دمشق القديمة بعد راحة قصيرة أخذا فيها دشا منعشا، وتناولا وجبة خفيفة من مقبلات شامية في مطعم الفندق.

قصدا أولا لسوق **مدحت باشا** المسمى باسم الوالي العثماني الذي أنشأه، ثم سوق الحميدية الأسطوري الشهرة، ومنه اشترت ماري عباءة دمشقية من حرير داكن الحمرة بلون النبيذ، مطرزة بخيوط بنية متعددة الدرجات، ولها منديل للرأس وشال للأكتاف من نفس قماشها، وكذلك علبة مصدفة لتقديم الشيكولاتة، ثم قصدا قصر النعسان، الذي كان صاحبه **جرجس نعسان** كبير أسطوات الآرابيسك والموزاييك والتطعيم والمنمنمات في دمشق القرن التاسع عشر، وفي القصر شاهدا روائع المنمنمات والنسق المعماري الرفيع الذوق، فلم يكن للأثرياء من أسطوات سوريا في ذاك الزمان ما لكبار الأسطوات في زماننا من ذوق فاسد مؤسس على ألوان

السلاطة الخضراء وأحجام الديناصورات في اختيار الرياش والأثاث.

دلف العروسان لحي مئذنة الشحم، حيث مسقط رأس الشاعر العربي الأشهر **نزار قباني**، هناك حدثها علي بما خطر له وهو يراها تتهادى في مطبخ الدار ذاك اليوم، وكيف ذكره منظرها بقصيدة نزار عن مايا وهي تحت الدش، ثم ألقى عليها ما أسعفته به الذاكرة من القصيدة الطويلة، فتضاحكا سويا وهما يمشيان عاقدي الذراعين، وهو يحيطها بذراعه كمن يخشى فقدها بعد طول اشتياق. قالت باسمة وهي لا تخفي سعادتها بما تقول "أنوي البقاء إلى جوارك لآخر العمر، فلماذا تضمني بقوة وتتأملني كل حين؟ كأنك تتأكد أننا في حقيقة، أو تخشى أن أضيع منك؟"

"ربما لأنك تأخرت كثيرا، فأصابتني عقدة تجعلني أستكثر ما أنا فيه من سعادة لم يألفها القلب بعد". هكذا أجابها باسما، ثم ارتجل بيتين من الشعر من وحي اللحظة قائلا "**لا تعجبي من لهفتي، من حرص قلب كالصلاة أوجبك، حرصي عليك مريمي كحرص أب، بعد طول عقم أنجبك**". تعلقت بعنقه في ضمة والهة يحبها منها كحبه للحياة أو أكثر، ثم نظرت بعينيه وهي تقول "لا أجد ما أقوله، أشعر بالعجز، لكنك توقن كم

أحبك، أليس كذلك؟"

"لا يجب أن تقولي أي شيء، كم من الرومان صلى للربة فينوس في مجدها؟ ملايين، فهل سمعت أن فينوس ردت على صلاة أحدهم فصلت عليه؟"

"فينوس! لم أتصور أن يقال لي هذا يوما، فالشقراوات ممن يقضين عشرون ساعة من أربع وعشرين أمام المرآة هن من يشبهن بفينوس، لا باحثات اللغات الشرقية"

"لست فينوس وحدها، بل ثلاثتهن معا، فينوس الجميلة وهيرا القوية وآثينا نبع العبقرية، لابد أن الراعي المسكين الذي طلب منه أن يختار بينهن قد دعى الله أن يخلصه من حيرته فيجمعهن في واحدة، واستجاب الله بعد آلاف السنين، فولدت أنت". أجابته وهي تنظر في عينيه وعلى شفتيها يرتسم الرضا والحبور، فقالت "هل يمكن أن أكون قد مت يوم تأخرت في نومي في بيتك بالإسكندرية؟ ما أعيشه الآن لا يشبه الدنيا التي عشتها بضع وثلاثون عاما". قبل يدها فرحا وممتنا لسعادتها، ثم توجها للمسجد الأموي، وحين اقتربا من ساحته الخارجية، ظهرت علامات الدهشة على وجه ماري، فقد كان المسجد أكبر مما تخيلته كثيرا، ندت منها كلمة تدل على انبهارها وتصفه بالروعة. فعلق علي "الأروع منه تاريخه، تاريخ يحكي

كيف توارثه الأديان عبر العصور". هكذا أجابها وهما يدلفان لساحة المسجد، ثم استأنف يقول "خطأ شائع في بعض الكتابات المعاصرة يعد عمارة المسجد الأموي نموذجا للعمارة العربية الإسلامية، والحقيقة أنه مؤسس على طراز كنسي، يوم كان كنيسة **مار يوحنا**[٢٢٤]، أكبر كنائس دمشق المسيحية يوم فتحها الجيش العربي".

حدثها كيف دخل القائد **خالد بن الوليد** المدينة من جهتها الشرقية بقوة السلاح، ولما تردد الخبر فيها، توجهت مجموعة من أعيانها لأبي عبيدة بن الجراح، والذي كان على رأس الجناح الآخر من الجيش يحاصر الجهة الغربية، فعاهدوه على التسليم والصلح، اعتبر المسلمون أن دمشق فتحت نصفها عنوة ونصفها تسليما، وكان عرفهم أن يحرموا سكان المدينة من المكاسب المدنية لو فتحوها عنوة، ومن هذه المكاسب الحفاظ على دور العبادة، أما المدن التي تسلم لهم فكانوا يحافظون لأهلها على كافة دور عبادتهم، بل وأحيانا يبقون على حكامهم الإقليميين وموظفيهم، ولما كان وضع دمشق مختلفا، فقد قرروا أن يأخذوا نصف كنيستها الشرقي ويحولوه إلى

---

[٢٢٤] (١١٩)

مسجد، ويتركوا الباقي كنيسة، ويؤمنوا المسيحيين فيها على أربعة عشر كنيسة لهم في ربوعها تبقى على حالها. من هنا كانت بداية المسجد الذي سمي لاحقا بالأموي[٢٢٥]، رغم تأسيسه في عهد عمر بن الخطاب، لأن الوليد بن عبد الملك هو من وسعه وجعله مسجدا خالصا، فقبل خلافته كان المسلمون يصلون في الجزء الذي يعرف اليوم بمحراب الصحابة، فأحب الوليد أن يوسعه، وفاوض القسس أن يضيف لعهدهم كنيسة القديس توما خارج أسوار دمشق، ويأخذ بقية المسجد مقابلها، فوافق بعضهم ورفض بعض، وقال الرافضون أن من يهدم مذبح الكنيسة سيجن بسحر مرصود. سمع الوليد بهذا فعلق بقوله "أنا أول من يحب أن يجن في سبيل الله" وضرب أول ضربة في المذبح، ثم صعد إلى المنارة الغربية مع حرسه، فوجد فيها راهبا متوحدا رفض أن يغادرها، فرماه الحرس من فوقها[٢٢٦]. هدم الأمويون الكنيسة من الداخل مخالفين العهد العمري، واحتفظوا بالجدران الخارجية، والتي بقي الجزء الأكبر منها موجودا حتى اليوم، ثم أرسل الوليد إلى قيصر في روما يطلب منه مائتين من أسطوات الرخام لعمارة المسجد، وتوعده

---

[٢٢٥] (١١٩)

[٢٢٦] (١١٩-١٢٠)

لو لم يرسلهم بالهجوم على الكنائس البيزنطية القريبة من الحدود وتخريبها، فآسر قيصر السلامة وأرسل ما طلبه الأموي من صناع مهرة. أخذ علي بذراعها نحو المئذنة الشرقية التي تعرف بمذنة عيسى وهي أول مئذنة أقيمت في الإسلام في الرأي الغالب تاريخيا[٢٢٧]، ومن فوقها انطلق الأذان لأول مرة من منارة بعدما كان المؤذن يؤذن فوق سطح المسجد أو في ساحة المدينة، والبعض ينسبها لمعاوية بن أبي سفيان، ولعبد الملك بن مروان، فلكل رجاله ومريدوه، لكن الرأي الأغلب أنها شيدت بأمر الوليد بن عبد الملك وتحت إشراف أخيه سليمان. اتجه الزوجان بعدها ليدخلا المسجد، بعد أن استأجرا عباءة لماري ارتدتها فوق ملابسها، طلب علي منها أن تقوم بجولة سريعة ريثما يصلي العصر، ولما انتهى من صلاته بحث عنها بعينيه ليجدها تتأمل مسبح المعمودية الرخامي شمال شرقي المسجد، اتجه نحوها وأحاط كتفها بذراعه وهو يقول "حوض معمودية في مسجد، فأين من يتهمون الإسلام بكراهية الآخر؟"

"ألم تكن منذ لحظة تتحدث عن القاء راهب من فوق منارة ". هكذا ذكرته بما قاله منذ قليل، فأجابها مرحاً "في تاريخ كل

[٢٢٧] قيل كذلك أن أول مئذنة بناها زياد بن أبيه في البصرة، و قيل أن مئذنة مسجد عمر بن الخطاب في دومة الجندل هي الأولى، و قيل مئذنة جامع القيروان.

دين وكل دولة تجدين ما تبحثين عنه، خير وشر، سلام وحرب، كرامة وذل، لأن كل دين يعتنقه بشر، وكل دولة يحيا فيها بشر، والبشر خليط من الأضداد".

"لماذا لم يفكر أحد في إزالة الحوض بعد أن صارت الكنيسة مسجدا؟"

"الحوض مكتشف منذ أعوام معدودة خلال أعمال الترميم، وقبله اكتشفوا نفقا يصل المسجد بكنيسة قريبة، ووجدوا فيه آثارا لمذبحة قتل فيها عشرة أشخاص" هكذا أجاب وهو يأخذ بذراعها ويوجهها نحو الضريح الذهبي في المسجد، والذي أقيم فوق ما يعتقد أنه رأس **يوحنا المعمدان**، قال وهما يخطوان نحوه "افتراض أن الرأس هو رأس يوحنا مصدق لحد كبير، لدرجة أن البابا يوحنا بولس الثاني زار المسجد ليراه منذ أعوام[٢٢٨]، فبرغم عدم وجود تحقيق أثري لكون الرأس أو بقاياها ترجع للقرن الأول للميلاد، إلا أن ما يدعم الظن بهذا هو تواتر الخبر عن القديسة هيلينا التي أمرت بالتنقيب عن الرأس في حديقة قصر هيرود ووجدته، ثم وهبته لكنيسة مار يوحنا وهي في رحلة

---

[٢٢٨] عام ٢٠٠١م وكانت أول مرة في تاريخ الفاتيكان يزور فيها البابا مسجدا

العودة من فلسطين لإستانبول[٢٢٩]، وهذا فضلا عن أخبار إسلامية تدعم الظن بإنه ليحيى عليه السلام[٢٣٠]"

"كم أنا محظوظة بدليلي الخاص". قالتها وهي تنظر نحوه باعتزاز، فلاحظت أنه شرد بعينيه وهو ينظر للضريح الذهبي، سألته أين ذهب خياله المسافر دوما، فأجاب بأنها قد تكون زيارته العاشرة للضريح، ومع ذلك بقيت مشاعر متضاربة تنتابه أمام ضريح يحيى عليه السلام، فهو لا يراه مجرد نبي كغيره من الأنبياء، فهو رمز فريد، قال عنه القرآن "**يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**"[٢٣١] وفي الإنجيل "**فطلب لوحا وكتب قائلا اسمه يوحنا، فتعجب الجميع**"[٢٣٢]، وقال المسيح "**الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان**"[٢٣٣]، فلماذا أفرده الله باسمه، وقال المسيح أنه أعظم من ولدت النساء؟ هكذا تساءل علي ففكرت ماري لحظة ثم قالت "البتولية والنبوة والشهادة"

---

[٢٢٩] (١٢١)

[٢٣٠] (١١٩)

[٢٣١] سورة مريم:٠٧

[٢٣٢] لوقا:٦٣:١

[٢٣٣] متى: ١١:١١

"وأكثر، فقد واجه يوحنا كل طواغيت عصره بمفرده، واجه الطاغية هيرود حين صرخ في البرية بأن هيروديا أرملة أخيه التي قتلته لا تحل له[٢٣٤]، وتمرد على الفريسيين والطقوس اليهودية المعقدة حين خرج يكرز في البرية بمغفرة الخطايا ويعمد الناس بمعمودية التوبة في نهر الأردن، وواجه طغيان الرومان بتحريضه على الثورة قبل أن يأت ملكوت الرب، شاب بسيط في رداء من صوف خشن، طعامه الجراد وما يصادفه من عسل بري[٢٣٥]، لكنه واجه الجميع بالحق وفي الحق شامخا كجبل من كبرياء، وكانت حكمته في صباه كحكمة الشيوخ، كما قال تعالى "**يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا**"[٢٣٦]، اسمه في العبرية معناه الله رحم، فكأنه عليه السلام رحمة من الله، لأن هذا النموذج من البشر هو ميزان العالم، ولولا يوحنا ومن ينتهجون نهجه لانحدر العالم جيلا فجيل حتى وصل للحضيض، كذلك اسمه في العربية مرتبط باستمرار الحياة، لأن شهيد الحق وحده من بين البشر هو من يخلد حيا كما يخبرنا القرآن"

---

[٢٣٤] "لان يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل ان تكون لك امرأة اخيك" مرقص: ٦: ١٨

[٢٣٥] "ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد، وكان طعامه جرادا وعسلا بريا" متى: ٤:٣

[٢٣٦] سورة مريم: ١٢

"ذكرني حديثك عن النبي يوحنا بزميلة دراسة لي، كانت تقرأ قصص الأبطال الأسطوريين وترسمهم من خيالها، الملك آرثر والقديس جون وغيرهم، كانت صورها مختلفة عن تصورهم التقليدي القريب من الكمال في كل شيء، وكنت أنا المعجبة الوحيدة بفنها" تابعها بنظراته مهتما في سكتتها القصيرة، فواصلت تقول "الناس يرون البطل ملاكا عاش لغيره وحسب، والحقيقة برأيي أنه رجل حقق ذاته من خلال التضحية، فهو ليس ملاكا، لكنه بشر يختار أسلوبا نادرا لتحقيق الذات"

"تصورك وأسلوب صاحبتك لهما وجاهتهما، لكن تقديرنا للروح السامية التي تحقق ذاتها بتحقيق منظومة من القيم هو أمر طبيعي كذلك، ولهذا نضفي عليها إهاب الملائكة، وكذلك احتقارنا للروح الدنيئة التي تقتل كل شيء لتحقق ذاتها بأرخص الوسائل أمر طبيعي، فنظهر الاحتقار في بشاعة منظرها حين نصورها، لا أتخيل صورة ليهوذا لا تشي ببشاعته مثلا". هكذا علق زوجها المحب، ثم تشابكت أيديهما، ليواصلا جولتهما حول معالم المسجد، حتى وصلا لقبر **الملك الكامل**، وهناك قالت "هنا يرقد الرجل الذي لم تغره القوة بفرض نفوذه على مالا يحتاجه من أرض"

"أنت ترين هذا، لكن لآخرين رؤى مغايرة تماما، وأخشى إنني من هؤلاء الآخرين". أما وصف ماري له بالسماحة فسببه أن الملك الكامل بن العادل أخو **صلاح الدين الأيوبي** ووارث ملكه، كان صديقا للإمبراطور **فريدريك**، صاحب تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي اضمحلت وتضاءلت، وحفيد **فريدريك ذو اللحية الحمراء** الذي مات أثناء الحملة الصليبية الثانية، وقد استعان به الكامل في حربه مع أخيه الملك **الأشرف عيسى** ملك دمشق، ووعده أن يسلمه أورشليم، مدينة القبر المقدس، جزاء معاونته بالهجوم على الأشرف من البحر هجوما يتزامن مع زحفه بجيشه من البر، فركب فريدريك البحر في أسطول صغير وجيش محدود لمساعدة الملك الكامل، لكنه حين شارف ساحل عكا كان الأشرف قد مات واستولى أخيه الكامل على ملكه في الشام، ومع ذلك فقد سلمه الملك الكامل القدس، في ملابسة محيرة للمؤرخين، إذ كان جيشه وأسطوله المعروفين بالحملة الصليبية السادسة أهون من أن يخشى منهما الكامل وقد توحدت تحت يده جيوش مصر والشام، لهذا سألت ماري "ما رأيك فيما حدث بينه وبين فريدريك الثاني". فافتر ثغر علي وهو يسألها "هل أقنعك ما قاله المؤرخون من أن فريدريك استعطف الكامل حتى لا يعود لأوروبا صفر اليدين فأشفق عليه الكامل ووهبها له؟"

" لم أقتنع وإلا ما سألتك، فلا عواطف في السياسة ولا تجدي فيها التوسلات"

"رقة كلمات فريدريك في رسائله[٢٣٧] هي سبب انطباع الاستعطاف والشفقة هذا، لكن الحقيقة أن كلا منهما لم يكن بوسعه أن يحارب الآخر إلا بثمن فادح، لهذا آثرا السلامة".
شرح لها علي كيف كانت ظروف الملكين حرجة في ذلك الوقت، فأما الكامل فكان مهددا بفلول الخوارزميين التي فرت أمام غزو التتار، ثم تجمعت في أصفهان وبدأت تناوش الحدود الشامية، آملة في تعويض ما خسرته شرقا في الشام[٢٣٨]، وأما فريدريك فكان مؤيدا لبدايات الفكر العلماني الآخذة في الظهور بين ملوك أوروبا، تدفعهم للتمرد على البابا، وحين جاء للشام كان بالفعل محروما من التناول بقرار بابوي مقدس، ولهذا لم يتمكن من حشد جيش أوروبي ضخم كالحملات الصليبية السابقة، فهو محروم من بركات البابا[٢٣٩]، لكن الكامل كان يدرك تماما أن خط الدفاع الأخير لدى صديقه القديم لو لم يتسلم المدينة المقدسة سيكون إعلان الخضوع للبابا **إنوسنت**

---

[٢٣٧] (١٥٠-١٥١)
[٢٣٨] (١٥٠-١٥١)
[٢٣٩] (١٥١)

الثالث وطلب المدد والبركات منه، فيعود بجيش يجعل الكامل بين الخوارزميين برا من الشرق والصليبيين بحرا من الغرب، ولأن الكامل أراد التفرغ للخطر الخوارزمي، ولأن فريدريك لم يرد أن يحني رأسه للبابا ثانية، فقد اتفقا على ما يشبه تدويل القدس بمصطلح زماننا في معاهدة يافا عام ١٢٢٩م، فتكون للصليبيين كنيسة القيامة وبيت لحم والأماكن المسيحية المقدسة بشكل عام، وكذلك القرى الواقعة على الطريق من عكا لبيت المقدس، دون قرى القدس نفسها، ويبقى الأقصى والقدس الشرقية في يد المسلمين، وتقوم بهذا هدنة لمدة عشرة أعوام بين الطرفين[٢٤٠]، وكانت حجة الكامل في هذا أن جده صلاح الدين نفسه تنازل عما بين صور ويافا لقلب الأسد في صلح الرملة، على إثر انتكاسة طفيفة مني بها في معركة أرسُف، وكان السبب الرئيسي فيها هو إنهاك جيشه من النضال في الشام، حتى ظهر التململ على ضباطه[٢٤١]، كان هذا من حنكة صلاح الدين الذي أعطى الجيش هدنة لثلاث سنوات ليستعيد قدرته على القتال لو لزم الأمر، لكن الفارق الأساسي بين الكامل وصلاح الدين يكمن في تنازل الأول عن القدس بما لها

---

[٢٤٠] (١٥٠-١٥١)

[٢٤١] (١٥٠-١٥١)

من قيمة روحية في دينه، وحفاظ الثاني عليها وتنازله عن سواها.

مرا بعد ذلك على المقام الذي يدعى بأن فيه رأس الحسين[٢٤٢]، وكذلك قبة المال[٢٤٣]، ثم اتجها للخروج من البوابة الجنوبية حتى يمرا على قبر صلاح الدين الأيوبي الذي يقع خارج المسجد، وفي مرورهما على البوابة أشار للنقوش الحجرية فوقها وقال: نص يوناني من المزامير يقول **"ملكك أيها المسيح ملك كل الدهور وسلطانك في كل دور فدور"**[٢٤٤]، وعلي البوابة التالية لها وجدت صورة المسيح وعلى رأسه تاج الشوك، تذكارات من زمن كانت فيه الجدران تضم كنيسة مار يوحنا.

"إذن فليست أياصوفيا فقط، لقد غصبتم العديد من الممتلكات المسيحية". قالتها مبتسمة في لهجة مزاح فرد عليها قائلا "نسيت أن أخبرك، قبل الكنيسة كانت الجدران لمعبد الإله جوبيتر، و لم تدشن ككنيسة إلا في القرن الثالث الميلادي[٢٤٥]، هياصوفيا كذلك كانت معبدا قبل أن تتحول إلى كنيسة"

---

[٢٤٢] لا يوجد حسم تاريخي لكون رأس الحسين في المسجد الأموي بدمشق أم في القاهرة أو غيرها

[٢٤٣] بنيت في العصر العباسي لحفظ مال الصدقات والمال العام

[٢٤٤] مزامير ١٣، ١/١٤٥

[٢٤٥] (١٢٢)

"صراع الأديان"

"البشر وليس الأديان، حتى قبل جوبيتر الروماني كان معبدا للإله الآرامي:حدد، والذي عبده الدمشقيون منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ثم حوله الرومان معبدا لجوبيتر، وحين اعتنقوا المسيحية صار كنيسة، وجاء المسلمون فصار مسجدا لا ينسب لأحد، ثم جاء الأمويون فنسبوه لجدهم[٢٤٦]، فالأيام دول". انتبه علي فجأة وتلفت يمنة ويسرة وقطب حاجبيه وهو يقول "التبس علي الطريق، القبر يقع خارج الجهة المقابلة، علينا عبور صحن المسجد لنصل لضريح الفارس الكردي الطموح الذي وحد العرب".

اتجها يقطعان المسجد حتى خرجا من بوابته الشمالية، وانحرفا يسارا متجهين نحو فناء المقام، وهو فناء صغير مشجر، يتفاعل اللون الأخضر فيه مع لون البناء الأبيض وقبته البنية المائلة للحمرة، ليعطي تناغما لونيا أنيقا برغم البساطة الشديدة لمعمار الضريح مقارنة بالثراء المعماري للمسجد الأموي، وعندما دخلا المقام، فوجئت ماري برؤية ضريحين وليس واحداً، الأول عليه شاهد من رخام فاخر والثاني عليه شاهد

---

[٢٤٦] (١٢٢)

من خشب مشغول بسيط وأنيق، فتساءلت لو كان الضريح الثاني لزوجة السلطان صلاح الدين، فأجابها علي بأنه لا لزوجته ولا لغيرها، فضريح الرخام فارغ، ورفات صلاح الدين يرقد تحت الشاهد الخشبي، أما الرخامي فهدية من ويليام الثاني إمبراطور ألمانيا حين زار الضريح، معبرا عن إعجابه ببطولة وشهامة صاحبه، لكن السلطات السورية رغبت عن نقل الرفات احتراما لحرمة القبر، فاحتفظت بالضريح الجديد فارغا بجوار الأول.

ابتسما وابتسم معهما الحارس السوري ابتسامة فاترة تنم عن ملل مَن سمع ذات السؤال وذات الإجابة آلاف المرات، ثم خرجا من الضريح فاتجها لسوق الحميدية القريب لينفذا منه للفندق، وفي الطريق علقت ماري "العالم واسع بما يكفي ليجد كل إنسان مكانا يصلي فيه، فلماذا الاستيلاء على دور عبادة دين سابق؟ سواء قام بهذا الرومان أو المسيحيون أو المسلمون؟"

"الاستيلاء على إنجازات الغير أسهل بكثير من تحقيق إنجاز جديد، أضيفي لهذا أن عملية التحول نفسها ترمز لتسود الجديد على القديم، وهذا إحساس تحبه الجماهير، إحساس بالانتماء للفريق الأقوى والأصح والأكثر عددا ونفوذا، فمشاعر تحقيق الذات الجماعية بقهر الآخر مهمة للغاية لكل فرد يعجز عن

تحقيق ذاته الفردية"

"لكن العالم اليوم سيطر نسبيا على نزعات قهر الآخر"

"ربما على مستوى الفرد، أما على مستوى الدول، فمازالت القوة توحي برفض الطرف الأقل والأضعف حتى في العالم الأول، إنها غوغائية القوة وغطرستها، ولعل جنود المارينز في حرب الخليج وفضيحة أبو غريب أفضل دليل على هذا". سكتت للحظة كأنها ترددت في قول شيء، ثم استمرت قائلة "الإشكالية الفكرية التي حيرتني دوما في الطرح الإيماني للأديان الإبراهيمية هي قدم العالم وقدم الإنسان، عاش البشر على الأرض منذ مائتي ألف عام، فلو أن النبوات لم تنقطع من عهد آدم حتى محمد، فلماذا لم تحقق تطورا ملموسا في تحضر الإنسان والسيطرة على نزعاته لسفك الدماء والحرب والقضاء على الآخر؟ بينما نجح العلم والفكر الإنساني في تحقيق هذا في أقل من خمسين عاما بعد الحرب العالمية الثانية؟"

"لأننا احتجنا لآلاف السنين حتى ننضج روحيا ونتهيأ لاستيعاب روح الدين وفلسفة الخلق، ولتحقيق مستوى علمي وتكنولوجي يعظم الاستفادة من موارد الكوكب، فلا نتصارع على الموارد المحدودة، وكذلك للوصول لمستوى من الفقه القانوني يصلح لتأسيس مجتمعات ومؤسسات مدنية بمستوى

الاتحاد الأوروبي، بكل هذا توصل البشر لآليات تحسن توزيع الثروة، وتحقق الهدف من خلقهم وهو عمران الأرض".

عندما وصلا لغرفتهما بالفندق، قالت باسمة في دلال أنثوي بينما يرتدي علي منامته "من تتزوج مؤرخا لابد أن تتوقع شهر عسل أثري للغاية". أجاب دعابتها باسما فقال "الآثار كانت البرنامج الصباحي، أما في المساء، فالأمر يختلف"

"حقا؟ ماهو البرنامج للمساء؟" قالتها بدلال زائد فأجابها ممازحا "النوم فورا استعدادا لجولة الغد".

(٢٤)
اغتيال رؤية

الجمعة، الحادي و العشرون من سبتمبر

في الصباح، تناولا فطورا مهجنا من أصناف سورية ولبنانية، مناقيش الزعتر وجبن قشقوان بزيت الزيتون، وجبن حلومي مقلي، فضلا عن الكنافة النابلسية، كانت إذاعة المطعم الداخلية تذيع أغنية من التراث السوري تقول كلماتها "لعبوا الفرسان ع خيول الأصايل، والملعب لان لحلو الخصايل" فاستدعت كلمة الفرسان إلى ذهن علي حلم الليلة الماضية، حتى في ليالي زفافه الأولى لا يريد طيف الإمام أن يفارقه؟ وقد شهدت ليلته الماضية جوانبا من أم معارك الفتنة الكبرى، معركة صفين.

رأى الإمام علي يدعو الله وهو يلبس لأمته للحرب فيقول "اللهم إن أظهرتنا على عدونا فجنّبنا البغي وسدّدنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصم بقيتنا من الفتنة"[٢٤٧] ثم رآه وقد اصطف الجيشان وتهيأ الناس للقتال، يخرج فيقف بين الصفوف، ويدعو معاوية للمبارزة حتى لا يقتلا الناس بينهما،

---

[٢٤٧] (٧٤)

فلا يجد مجيبا[٢٤٨]، فقد ضربت لمعاوية خيمة في مؤخره جيشه، ليقي نفسه بجيشه لو جد الجد، ثم رأى الإمام وقد التقى الجمعان، ممتطيا صهوة جواد أدهم[٢٤٩] وممتشقا سيفه ذو الفقار، فكأن الشمم والإباء والشجاعة تجسدوا جميعا، فكانوا فارسا نبيلا يدافع عن الحق كما علمه، ويوغل في صفوف العدو بجرأة من اتخذ على الموت عهدا، يردد وهو يقاتل عبارة ذات صدى، كأنها تتردد في صدره قبل أن تخرج من فمه "**أقاتلكم على تأويله كما قاتلكم النبي على تنزيله**"[٢٥٠]

سألته ماري عما شرد فيه، فلم يرد أن يخبرها بحلمه حتى لا يزعج عروسه بحلمه الدامي بعد ليلة عشق من ليالي الجنة، لكنه أراد ألا يكذبها، فاختار التعبير عن حلمه رمزا، وقال "ذكرتني الأغنية عن الفارس حلو الخصال بمثل شامي يقول: الرجال عند أغراضها نسوان، مع كامل احترامي للنسوان، فالغرض حين يتمكن من الإنسان يصبح كمرض حل بعقله، يجعله يرى الحق باطلا والباطل حقا، ولطالما كان تاريخ البشر في مجمله صراع

---

[٢٤٨] (٢٢)

[٢٤٩] صفة تقال للجواد الأسود حالك السواد

[٢٥٠] قال رسول الله (ص): إن منكم من يقاتل على تأويله، كما قاتلت على تنزيله. فقال أبو بكر وعمر أنا هو؟ فقال: لا ولكن خاصف النعل، و كان قد أعطى عليا نعله ليخصفه (٢)

بين أهل الرؤية وأهل الغرض، بين رؤية التطور والنماء والحب، وأغراض المال والسلطة والنفوذ". ردت عايشة وضحكاتها الهادئة تتخلل كلماتها "مثل متوقع من عقلية عربية بتكوينها الذكوري"

"هذا تعميم مخل، فوضع المرأة هنا في سوريا اتسم دوما بالمساواة مع الرجل، حتى في زمن الاحتلال العثماني المتفنن في قهر الحريم، لم يكتسب الرجل السوري تراث قهر المرأة من الترك"

"بسبب الأصل الفينيقي، فقد اشتهرت المرأة الفينيقية في العالم القديم بقوة الشكيمة وعظمة أثرها في مجتمعها، وبيير هوبلك يقول في هذا قولا جميلا مفاده أن الرجل الفينيقي لم يكن يتزوج المرأة، بل يقترن بها"

"لكن هذا ليس محدودا في سوريا، فللسودانية والتونسية كذلك وضع اجتماعي مميز نتيجة لتراث شعبي مختلف، فليس كل التراث الشرقي مجحف للمرأة، في حالة تونس مثلا تأثر وضع المرأة إيجابا بطبيعة المجتمع الزراعي، وبتميز مكانة المرأة عند البربر، فبعض المؤرخين اعتبر البربر مجتمعات شبه

ماترياركية[٢٥١]، وتعريب تونس بالكامل لا ينفي جذورها الحضارية البربرية"

"أحبك". قالتها وهي تميل لترتكز على حافة الطاولة بذراعيها، مغيرة دفة حديث التاريخ الذي طال، فابتسم خجلا وقال "آسف للحديث عن التاريخ على مائدة الإفطار، لكني حين أحدثك أجدني مسترسلا كأني أفكر وأحادث نفسي، فقد توحدت معك .. يا أنا"

"كم تمنيت أن أكون شاعرة لأعبر عن خفقات قلبي مثلك"

"حسبي تعبير عينيك يا مريمي، وإنما أحاول أن أكسب كلامي مذاقا لعله يجاري بلاغة عينيك"

"حسن جدا". قالتها بلهجة مزاح متوعدة، وهي تقوم مرتكزة على الطاولة بينهما، وتميل بجزعها عبر الطاولة، لتمسك برأسه وتقبله قبلة خاطفة، ابتسم وهو يداعب شعرها بيديه، فقالت وهي تعود لجلستها الأولى "لو كنت تخجل من تقبيلي إياك أمام الناس فلا تتغزل ثانية أمامهم"

---

[٢٥١] مجتمع منتسب للأم ومتمحور حول الأم و الأنوثة عكس الباترياركي الذكوري

"فليذهب الناس المحجيم، الجحيم يا غاليتي هو الآخرون كما كان خالك سارتر يقول". قالها مداعبا، فسارتر أحد أعمدة الفكر الوجودي الذي كانت والدتها تعتنقه، ضحكت للدعابة بفتور، ثم ذكرت أمها فاربد وجهها سريعاً، فطن لذلك في وجهها، وقرر في نفسه أن عليه ألا يذكرها بوالدتها كثيرا حتى لا يثير بداخلها الصراع القديم، فالفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، فكر للحظة أن يغير الموضوع ليخرجها من الذكرى، لكن السنين علمته أنه شاعر أكثر منه دبلوماسي، وحين يتحدث لمجرد تصحيح ما يفلت من لسانه عفوا، غالبا يقول ما هو أسوأ. مرت لحظة قبل أن تستعيد صفاء وجهها وتسأله عن برنامجهما لذلك اليوم، فيجيبها بأنه خطط للمرور على قلعة دمشق سيرا على الأقدام ثم زيارة ضيعة يقضيان بها بقية اليوم، ولما احتجت على إهدار يوم كامل بمكان واحد في تلك الزيارة القصيرة، وعدها بأن يمد الزيارة يوما لو لم يرق لها المكان، بدا واثقا وهو يعدها بينما بدت هي غير مقتنعة بالفكرة المهدرة للوقت، وانطلقا نحو القلعة.

فريدة هي قلعة دمشق، ممتدة التاريخ من العصر الروماني قبل الميلاد وحتى اليوم في غير انقطاع، بنيت بعقلية المدينة القلعة، وقد اختار لها الرومان هذا السهل المنبسط في مستوى المدينة.

خلال زيارتها أخذهما الحديث للسلطان المملوكي ركن الدين بيبرس الذي استخدم هذه القلعة يوما، كانت ماري معجبة به، بينما كان لعلي العديد من التحفظات عليه، أهمها اعتلائه كرسي السلطنة على جثة المظفر سيف الدين قطز، كانت ماري تنتقد في علي دوما نزوعه لعواطف شبه شخصية نحو الشخصيات التاريخية، وكانت ترى في هذا عيبا خطيرا فيه كمؤرخ، أما هو فكان يرى أن المؤرخ إنسان لا يستطيع تحييد مشاعره في تقييم الحدث أو الشخصية التاريخية، فأمانته ألا يخفي أو يبرز في رواية الحدث وفقا لهواه، أما تحليل الحدث وشخوصه المحورية فمنطقي أن يعكس مجمل قناعاته الذاتية.

حين خرجا من القلعة متجهين نحو ساحة انتظار السيارات ليستقلا تاكسيا كانت تقول "أرى حكمك على بيبرس بالانتهازية غير موضوعي، فهو ابن زمنه وبيئته كما تقول أنت دائما، المماليك كانوا يقتلون بعضهم بعضا كما يتنفسون[252]، وقطز ذاته شارك في قتل الأتابك أقطاي، فعلى أي أساس نصنف قطز بطلا ونصنف بيبرس وغدا ميكيافيلّيا؟"

---

[252] (٦٥)

"كانت آفة المماليك قتل بعضهم بعضا كما يتنفسون، هذا صحيح، كان هذا شأهم قبل اللحظة الفارقة التي هددت فيها جيوش هولاكو خان مصر، فارتفع قطز لمستوى اللحظة وعفا عن المماليك المتهمين بقتل أستاذه أيبك، وعاهدهم على توحيد الجيش تحت قيادته لمواجهة الغزو، على أن يتنحى عن السلطة بعد المعركة ليختاروا من يريدون عليهم سلطانا، ثم تنازل عن جميع ممتلكاته لصالح المجهود الحربي قبل أن يطالبهم بالتبرع له، وشارك بنفسه في القتال في الصفوف الأمامية، فحقق الله على يديه النصر، وظن أن نفوسهم قد تطهرت من الصغار مثله فصاروا إخوانا، لهذا خرج معهم للصيد منفردا بغير حرس، لكن كل هذا لم يثنِ بيبرس ورفاقه عن عزمهم الغادر، فقتلوه وبايعوا بيبرس سلطانا ليوزع عليهم الإقطاعيات مكافأة على وصوله لكرسي السلطنة[253]، لهذا ينتمي قطز لأصحاب الرؤى الكبيرة في الحياة، وقد حقق ذاته بتحقيق هدف كبير هو حماية مصر والبشرية من خطر التتار، أما بيبرس فينتمي لمدرسة الغرض. وطريقه لتحقيق الذات لم يتجاوز السلطة والثروة، وقد تآمر للوصول إليهما مع من يبيعون ولاءهم بالمال، فكان وصوله للحكم بيعا لا بيعة"

---

[253] (٦٥- ٦٠)

"فكرة أهل الرؤية وأهل الغرض هذه دواليزمية[٢٥٤] جدا، الدنيا ليست خيرا وشرا، ليست أبيضا وأسود، فبينهما طيف واسع من الدرجات الرمادية"

"الرؤية والغرض أعبر بهما عن الخطوط العريضة في حياة الإنسان، لكنهما ليسا نقيضين بنقاء الخير والشر، رؤية قطز مثلا لم تعصمه من المشاركة في خطأ إغتيال أقطاي، وأغراض بيبرس لا تترع عنه شرف مواجهة التتار والجيوب الصليبية في الشام، الفارق أن رؤية قطز التي اغتالوها معه كان من شأنها تغيير مصير دولة اللماليك البحرية كلها، خصوصا فكرته في التخلي عن السلطة، وتطبيق مبدأ البيعة بالاختيار بين عدة مرشحين لكرسي السلطنة"

"مازلت غير مقتنعة"

"لماذا أشعر أنني منذ تزوجتك فقدت قدرتي على الإقناع؟"

قالها مازحا وهو يربت على كتفها قبل أن يتركها ليتفاوض مع سائق التاكسي، وحين سمعت اسم المكان الذي يتجهان إليه من حديثه مع السائق، دق قلبها بشدة وتغير رأيها في الفكرة تماما، ابتسمت بكل خلية في وجهها الجميل، فما أن انتهى

---

[٢٥٤] فكر فلسفي قديم يوجز العالم في صراع بين قوتين إلهيتين أحدهما خيرة والأخرى شريرة

زوجها من التفاوض ودعاها للركوب حتى نظرت إليه بود غامر وشكرته على المفاجأة التي اختارها، فقد كانت وجهتهما هي ضيعة معلولا، أجابها زوجها بأن خبيرة لغة آرامية تزور سوريا لابد لها من قضاء يوم في هذه الضيعة التي فرت من يد الزمن.

معلولا، ضيعة مسيحية تبعد قرابة الستين كيلومترا عن دمشق، فوق هضبة مرتفعة عليلة الهواء، وهي المكان الباقي فوق الأرض الذي يتحدث الناس فيه باللغة السريانية في حياتهم اليومية، لغة المسيح المميزة آرامية المصدر التي تميز المذهب السرياني حتى اليوم، فغير معلولا لا توجد سوى جماعات إثنية متفرقة في العراق وتركيا تتحدث السريانية، لكنها لا تكون مجتمعا كاملا كهذه الضيعة الرائعة، وحين كانت السيارة تجتاز المروج الخضر حول دمشق، ربتت ماري على ساق علي، فقبل باطن كفها بإعزاز وهو يقول "اليوم تكونين أنت دليلنا، فمعلولا تقع في نطاق تخصصك أكثر من نطاق معارفي أنا"

"القرية ضاربة في القدم، مسكونة قبل ميلاد المسيح، حين كان اسمها سركوبوليس أيام الرومان، والدير الأساسي بها هو دير تقلا البطريركي، والذي كان بدوره معبدا وثنيا كالمسجد الأموي وهيا صوفيا، وهناك تلك النقوش المميزة داخل

الكهوف، الباقي سأتذكره حين أرى المكان"

من بعيد بدت جبال قلمون وعلى قممها تستقر الثلوج البيضاء، مرت ربع ساعة أخرى على طريق جبلي قبل أن تظهر بيوت معلولا البيضاء بعمارتها المميزة من بعيد، وبعد لحظات كان العروسان يغادران السيارة نحو القرية الوادعة، فأخذا يصعدان ممرا جبليا معبدا بحجارة بيضاء، تسارعت أنفاس ماري قليلا، مقارنة بحركة صدر علي العنيفة صعودا وهبوطا، والتي جعلتها سنون التدخين متسارعة مع كل خطوة، تذكرت شيئا فانطلقت تقول "لفظة معلولا تعني مخرج النجاة، وسبب التسمية غير معروف، لكن يرجح أنه بسبب الممر الجبلي فيها، يردد الرهبان أن بركة الرب شقته في الجبل كمهرب للقديسة تقلا من مطاردة الرومان، فصار مخرجا للنجاة، وعمارة البيوت المبنية في قلب الصخور فيها تتميز بارتفاع موحد، فلا يرتفع أي بيت عما حوله أكثر من ارتفاع طابق واحد، وذلك أنهم يعدون أسطح البيوت ملكية عامة كالشارع يستخدمها الناس للتنقل بلا قيود، فتصبح بمثابة دور ثان للضيعة الجبلية يتميز بسهولة السير عليه مقارنة بالممرات الجبلية الوعرة".

أشارت بسبابتها نحو شق جبلي يبدو مظهره غريبا بالفعل، وإن كان حدوثه في الجبال طبيعيا بغير خوارق، وقالت "هذا

هو الشق الجبلي، أعتقد أن الطريق للدير من هنا". وصلا للفج الصخري الضخم الذي يشق طريقا في الجبل بين جانبين، وفيه حفرت بيوت، عاشت القديسة تقلا في واحد منها فرارا بدينها، ثم تفجر الماء من سقف البيت الصخري الذي سكنته، فظنه الناس شافيا من الأمراض ورددوا عنه المعجزات. دلفا لدير تقلا أسفل الفج الجبلي، كان تردد اللغة الآرامية حولها بين الناس يسبب لماري شعورا رائعا، فتسري بجسدها قشعريرة إثارة ودهشة، وكلما شعرت بهذا أثناء اليوم كانت تضغط على يده في امتنان، فلو كانت معلولا لكل شخص تجربة رائعة، فهي بلا شك لمتخصصة الآرامية تجربة فريدة ولحظات لا تتكرر في العمر كثيرا، تماما كدارس لتاريخ الفراعنة يجد نفسه فجأة في الأقصر عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. حين دخلا من بوابة الدير، أخذت تترجم له ما تسمعه بالسريانية حولهما، وكان معظمه دعوات من أجل الشفاء أو رد الغائب وما إلى ذلك، فقد اعتاد الناس طلب شفاعة القديسة ورفاتها المدفون بالدير لقبول الدعوات، ويبدو أن واحدة ممن يلقون الأدعية كانت تعرف العربية جيدا فقالت بلهجة سورية محببة "عجائب كثيرة تحدث هنا على يدي الطاهرة تقلا، وببركة صلوات الآباء، وعجائب أكثر تحدث في دير صيدنايا في طريقكما للشام"

"شكرا يا أماه". أجابها علي باسما في رقة وامتنان، وحين ابتعدا بخطوات قالت ماري معلقة "ظنتنا زوجين مسيحيين لهذا نصحتنا بزيارة دير صيدنايا".

"ليس بالضرورة، هنا وفي مصر يزور الناس مسلمون ومسيحيون مساجدا وكنائسا وأديرة يظنون أنها مباركة طلبا للمعجزات، يزورون الأولياء والقديسين بل والحاخامات أحيانا كأبي حصيرة لتحقيق حاجاتهم، فأصحاب الحاجات وصوليون تماما فيما يتعلق بهذه الحاجات، المهم، ألن تحكِ لي قصة القديسة تقلا"

"كانت تلميذة صديقك القديس بولس". ابتسم وهو يومىء مشجعا لها على الاسترسال، فاستأنفت حديثها قائلة "اضطهدها أهلها فجاءت هنا وعاشت حتى ماتت في التسعين من عمرها"

"ولماذا اضطهدوها؟"

"بسبب دينها الجديد، لقد كانوا وثنيين". أحاط كتفها بود بالغ وهو يقول "متخصصو اللغات يتعاملون مع سطح التاريخ لا باطنه، وثنية أهلها ليست سببا كافيا للاضطهاد، فالديانات الوثنية متعددة الآلهة لم تكن تضيق بإضافة مقدسات جديدة، واقع الأمر أنها كانت تنتمي لأسرة غنية في أيقونيا، وكانت

فضلا عن ذلك خطيبة لشاب من النبلاء، وعندما مر بولس بأيقونيا عام خمسين للميلاد بعد سماح القديس جيمس له بالتبشير للجينتيلز٢٥٥، سمعت القديسة واحدة من خطبه التبشيرية، فآمنت وعمدها بولس بنفسه، فوهبت بتوليتها للرب وأسرت لأمها برغبتها في فسخ خطبتها، لأنها وهبت عذريتها للمسيح، هنا ثار عليها أهلها وأهل خطيبها من أعيان أيقونيا، فهربت لتلحق ببولس في أنطاكية، لكنها حين وصلتها قبض عليها، وتقول الأسطورة أن حاكم أنطاكية ألقاها للأسود عارية، فسترها الله برداء من نور، ونامت الأسود عند قدميها كالنعاج! لهذا تظهر الأسود دوما في أيقوناتها، ولما رأى الحاكم كرامتها، حررها لتأت هنا وتعيش متفرغة للعبادة٢٥٦"

كانت ماري تتابعه في دهشة، وغضبها يتصاعد برغم محاولتها ألا يبدو هذا عليها، حين انتهى لم تتمالك نبرة الغضب في صوتها وهي تقول "تعاملني كطفلة وتطلب مني الشرح لترضيني؟ لا بأس، شرحك كان مفيدا، لذا سأطلب منك العودة لدورك المفضل كراو للتاريخ". هكذا قالت وهي تتأبط ذراع علي، الذي أدرك أن موضوع تركها تشرح لمجرد

---

[٢٥٥] الشعوبيون من غير اليهود في العبرية

[٢٥٦] (١٢٣)

إرضاءها هذا قد ضايقها فعلا، لكنها لم تحب أن تجعله موقفا حادا في شهر العسل، هذا ما يحبه فيها، تعرف كيف ومتى ولأي درجة تقف وقفة لتحدد ما يسرها وما يضايقها بدون تحويل الحياة لمسلسل نكد، قال علي ليمرر الموقف "هناك نبع مياه يخرج من بين الصخور هناك، فما رأيك في دش بارد؟"

أشار للطريق فتقدمته فيه حتى وصلا للكهف الصخري عدواً، فوقفا أسفل نبع المياه الصافية المنهمرة من سقف الكهف وهما يتبادلان دفع الرذاذ، ثم شربا من ماء النبع البارد، الذي يترك في النفس إحساسا عميقا بالنقاء، لا ريب أن إحساس كهذا يساعد على شفاء المريض لاعتقاده في قداسة ما شرب، هكذا فكرت ماري فقالت وهي تنظر لعلي بعد أن ارتكنت متأبطة ذراعه ثانية وهما خارجان من المغارة كالخارجين من حوض سباحة، وبعض الزوار العجائز ينظرون إليهما بشيء من الدهشة "هل تصدق موضوع الشفاء بالشرب من ماء مقدس؟ أم تراه مثلي إيحاءً"

"إيمانٌ وليس إيحاء، الإيمان تحرير طاقة داخلية جبارة في الإنسان، أما الإيحاء فهو سقوط في بئر الوهم، الإيمان نور والإيحاء ظلام". شرح لها رأيه في أن الإيحاء يحتاج لوجود الوسيط، كراسبوتين الذي كان يبيع الوهم مقابل ثمن مادي أو

سلطة أو جسد امرأة، أما الإيمان فهو تجربة فردية بحتة بين الفرد وربه، بغير وسيط، فلما عارضته بأن البعض يخضع للإيحاء بغير وسيط، أسهب موضحا أن الوسيط ليس قاصرا على البشر، بل قد تلعب الأساطير المترددة حول مكان ما أو شخص ما دور الوسيط في التمهيد والايحاء، وقد يلعب الواقعون في الوهم دور الوسيط نحو غيرهم، فأي تمهيد سابق للتعرض المباشر للمكان أو الحدث أو الشخص يعد وسيطا، ثم ضرب مثلا برواية عن محمد بن سيرين تبين الفارق بين الإيمان والشعوذة، فقد سألوه في أمر رجل إذا سمع القرآن أو قرأه يبكي حتى يغشى عليه، فقال لهم "ميعاد ما بيننا وبينه أن يجلس على حائط عال ثم يقرأ عليه القرآن، فإن وقع فهو كما قال٢٥٧"، وتكمن مهارة ابن سيرين هنا في كون أغلب المبالغين في مظاهر الإيمان واقعين بين أمرين، شعوذة مقصودة أو هستيريا، وفي الحالتين سيفيق الموهوم مع الشعور بالخطر فوق سور عالٍ.

"يذكرني الحديث عن هيمنة الوهم بقصة قنديل أم هاشم". نظر لها نظره تفيض إعجابا وعجبا وهو يقول "لو تمنيت على الله أن يخلق لي حبيبة كما أريد لما فزت بأكثر منك، لطالما

---

(١٢٤)

أعجبت بعقلية المرأة الأوروبية، لكنني كنت أرى الخلفية الحضارية المشتركة جوهرية من أجل التفاهم بين زوجين، فقسم لي الله زوجة إنجليزية تعرف قنديل أم هاشم".

هبطا بعد ذلك نحو بلدة صيدنايا، حيث تناولا غذاء سوريا تقليديا في مطعم جبلي، ثم استقلا سيارة عادت بهما لدمشق، مدينة التاريخ التي ينتمي إليها رجلان بارزان في تاريخ الأديان، بولس الرسول الذي غير دفة التاريخ المسيحي، ومعاوية بن أبي سفيان الذي انطلق منها ليغير اتجاه التاريخ الإسلامي، فما أكبر أثرك على حياة العالم الروحية يا دمشق؟

(٢٥)

دماء في جبل قاسيون

السبت، الثاني و العشرون من سبتمبر

انطلق الزوجان بعد الظهر ليبدأ برنامج اليوم، كانت ليلتهما السابقة حافلة، فقد حضرا حفلا ساهرا للفن الشعبي السوري، عزفت فيه موشحات من ألحان **صبري مدلل** وغيرها من ضروب الطرب الشامي الذي تساعده انسيابية اللهجة على النفاذ للقلوب، فلهجات بلاد الشام التاريخي على اختلافها ذات سحر خاص وموسيقى ظاهرة، ما عدا بعض مناطق شرق الأردن وطرابلس في لبنان، لهذا قامت ماري غير المعتادة على السهر للصباح من نومها على صداع عنيف احتاج لقرص من مسكن قوي حتى يرحل عن رأسها الرقيق، وبعد الفطور الشامي انطلقا بسيارة الجر الرباعي التي استأجراها نحو جبل قاسيون الشهير، والذي وصل تمدد دمشق إلى سفوحه، كانت ماري تحتفظ برخصة قيادة دولية، ففضلا إيجار سيارة تظل معهما طوال اليوم، مستعينين بخرائط المدينة التي حصلا عليها من الفندق، فحتى لو زار علي مدينة ألف مرة، فمن الصعب الوثوق بذاكرته فيما يخص الطرق والشوارع والاتجاهات، كانت تعرف هذا جيدا، في الطريق أخبرته بأن اسم الجبل هو

صيغة الجمع من لفظة قاسي في الآرامية، خلافا للعربية التي يجمع فيها بلفظة قساة، فليس في الآرامية جمع تكسير.

وصلا عند سفح قاسيون من جهته الشرقية، لتبدأ جولتهما في معالمه بمسجد الأربعين ومغارة الدم الشهيرة داخله، والتي تقول الأسطورة أن قابيلا قتل أخاه هابيل فيها، وبها حجر أحمر ترجع الأسطورة حمرته لدم ابن آدم الشهيد، ومحرابان ينسب أحدهما للخليل إبراهيم والآخر للخضر عليه السلام. كانت ماري ترتدي جينزا أزرق وفوقه قميص سماوي طويل الأكمام، وأخرجت من حقيبة يدها ايشاربا أبيض غطت به شعرها، فقد تحسبت لزيارة عدة مساجد في برنامج رحلة اليوم، وهي لا تفضل إيجار العباءات التي تنتقل من جسد إلى جسد كما فعلت في المسجد الأموي. سألته بينما يصعدان السلالم الحجرية نحو المغارة "وفقا للكتيب السياحي معي مغارة الدم هي أقدم معالم الجبل، أليس كذلك؟"

"الله أعلم"

"معقول علي لا يعرف؟ ماذا أصابك يا عراب التاريخ؟"

"علي في جبل قاسيون كأي تلميذ في الصف الأول الابتدائي، ليس متأكدا من أي شيء، فهو مزار أسطوري وليس تاريخيا، وأنا لست متخصصا في الميثولوجيا"

"لست مقتنعا بالطبع بمسرح قتل هابيل؟

"مقتنع فقط أن كرات الدم الحمراء يتحول لونها خارج الجسم للسواد بعد بضعة أيام، ومقتنع أن وجود مسرح لجريمة حدثت منذ مائتي ألف عام مستحيل". هكذا أجاب وهما يلجان إلى المغارة الأسطورية، كان أول ما بحثت عنه عيناها هو فم الجبل، والذي قيل أنه فتحه هلعا على هابيل يوم قتل وبقي مفتوحا، فقد بالغ الكتيب في وصف التكوين الصخري بأنه مطابق تشريحيا للفم واللسان والأسنان والبلعوم، كأنه من نحت فنان عبقري، لكنها ما أن رأته حتى أحبطت تماما، فقد كان نتوء صخريا يمثل اللسان، فوقه قوس صخري يمثل الفك الأعلى المفترض لفم الجبل، مشهد قد تراه في الصخور في أي مكان فلا تنتبه إليه، لهذا علقت قائلة "فعلا نحت لفنان عبقري، فقط نسي كاتب الكتيب أن يقول أنه فنان عبقري عمره ثلاث سنوات".

ضحك لتعليقها وهو يشير للحجر الذي تقول اللوحة أنه كان الأداة التي قتل بها الأخ أخاه، وعلق قائلاً "وهذا حجر ملون بأُكسيد النحاس، من المنتظر أن نصدق أنه ملون بدم هابيل". سارا جنبا لجنب يراقبان سقف المغارة ليعثرا على آثار كف جبريل ولفظ الجلالة، فالأسطورة تقول أن الجبل كاد

يتداعي يوما بينما نبي الله إلياس قد آوى للمغارة هربا من حاكم ظالم، فهبط جبريل عليه السلام ودعم السقف بكفه، وتركت أصابعه أثرها في الصخور، وقفا جنبا لجنب أسفل التكوين الطبيعي الذي يفترض أنه بصمات حجرية، وبجواره ما يقال عنه لفظ الجلالة، مرة ثانية لا هذا شكل كف ولا ذاك لفظ الجلالة، فعلق علي قائلا "كأن أي خطوط متوازية تصبح أصابعا لكف، فلو أنكرت هذا الخرف أمام البعض سيجفل منك كأنك تقولين كفرا، رغم أن هذه الأساطير هي عين الضلال وسوء الأدب مع الله"

"الضلال مفهوم، فما سوء الأدب؟"

"حين نعتقد أن المغارة كادت تقع فوق رأس نبي، فأرسل الله الروح الأمين حامل الرسالات ليسندها، فنحن نعتقد ضمنا أنها كادت تتداعى من باب الخطأ وليس بمشيئة الله، وأن كن فيكون لا تسندها وتقيمها، فاحتاجت لكف الملك، فتلك إساءة أدب مع الله، لا تناسب الإيمان بطلاقة قدرته وإحكام الكون وما يحدث فيه"

"سيدعون أن الهدف من الحدث بيان القدرة الإلهية"

"القدرة الإلهية ظاهرة في رسوخ الجبل لا في تداعيه" هكذا أجابها لتعلق قائلة "لكن الناس يحتاجون المعجزة لكسر رتابة

الحياة، واستعادة دهشة الطفولة ولو للحظات، لهذا كانت المغارة مزارا مقدسا حتى من قبل الأديان السماوية[٢٥٨]".

صعدا بعد ذلك لصحن المسجد المقام فوق المغارة لرؤية الأربعين محرابا التي تحتل جداره الأيمن وينسب المسجد إليها. تقول الأسطورة أنها محاريب للأبدال الأربعين، وهم من جاء في الأخبار أنهم من أولياء الله الصالحين وعددهم أربعون رجلا، كلما مات واحد منهم أبدل الله به غيره، وحين سألته ماري عما يراه في أمرهم، رفع كتفيه وهو يجيب "من قال لا أعلم فقد أفتى". لاحظ في تعليقها عندما كانا في المغارة أن المادية العتيدة تشتاق لدهشة الطفولة، فلم يرد أن يفسد عليها الجو المؤسطر لجبل قاسيون بمزيد من التفنيد المنطقي، وأوله أن مسجد الأربعين لا يتسع لصف من أربعين رجلا لو اصطفوا كتفا لكتف في جماعة.

اتجه الزوجان بعد ذلك لجامع ابن عربي على سفح الجبل جهة الصالحية، والذي شيد على الطراز العثماني، الابن الشرعي للعمارة المملوكية بعد زواجها من العمارة البيزنطية على ضفاف البوسفور، وأسفل المسجد توجد غرفة الأضرحة وفيها

---

[٢٥٨] (١٢٥)

ضريح شيخ الصوفية **محيي الدين بن عربي** وضريحان آخران لولديه، فضلا عن ضريح فارغ، كان للأمير عبد القادر الجزائري[٢٥٩]، قبل أن تسترد الجزائر وديعتها بعد الاستقلال، فيحمل جثمانه لوطنه عام ١٩٦٥م. كانت الزيارة الأولى لعلي لمسجد ابن عربي كما هي لزوجته، فالتصوف وأئمة الصوفية لم يحتلا مرتبة متقدمة في اهتماماته إلا في السنوات الأخيرة، أراد أن يداعب رغبتها الطارئة في سماع الأساطير، فحكى لها حكاية يرددها الناس عن خادم لابن عربي مات بعد مولاه، وحين اعتزم الناس دفنه في مكان بعيد عن ضريح ابن عربي طار نعش الخادم الوفي حاملا جثمانه ليستقر بجوار شيخه، علقت على حكايته قائلة "اليوم بحق يوم الأساطير؟"

"اليوم خمرٌ .. وغدا أمر". هكذا قال مشيرا لسفرهما غدا للعراق، حتى الآن لا تكاد ماري تستوعب فكرة السفر للعراق في هذه الظروف، وإن كان التحدي الأكاديمي قد قضى على رفضها بضربة قاضية بمجرد سماعها عن مخطوطات من القرون الهجرية الأولى، أجابته بإجابة بعيدة عن شأن سفرهما في الغد قائلة "وهل تعتبر الأساطير خمرا؟"

---

[٢٥٩] بطل المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر في القرن التاسع عشر، توفي في دمشق التي كانت منفاه الاختياري

"مؤكد، ففي كل منهما خدر لذيذ أول الأمر لكن الإفراط في أي منهما يودي بالعقل"

"وفيم تختلف الأساطير في هذا عن الغيبيات الدينية؟". شعر بغصة خفيفة، فلطالما تقبل الشك في الدين وحاور المشككين والمنكرين بصدر رحب، لكنه حين يسمع منها ما يوحي بعمق شكوكها يشعر بوخزة في قلبه، فقد اعتبرها مسيحية متشككة منذ كانا في المملكة المتحدة، ربما ليبقي على أمله في الزواج منها ككتابية، لهذا كان قلبه يخفق كلما سمع منها ما يوحي بغلبة الشك على اليقين في ضميرها، وحين أخبرته بحلمها بالمسيح وموافقتها على الزواج طار فرحا بالأمرين معا، فزيارة المسيح تلك حلت عقدة وعدها لأمها وعقدة تصنيفها دينيا، لكن عليه أن يتقبل مراودة الشك لليقين في كل حال، فهذا حال كل من أوغل في الشك يوما، ولا يعني هذا أنها منكرة، فهو يعلم أنها ترى الله في الكون بضميرها وإن لم تدركه بعقلها. تجاهل كل هذا وأجابها قائلاً "الغيب لله، والأساطير للبشر".

مالت برأسها وقطبت حاجبيها مستوضحة وهي تنتظر المزيد، فتابع حديثه وهما خارجان من المسجد شارحا أن الغيبيات تمنحنا إضاءات إيمانية، تدور حول الخلق وهدفه ومآل

الكون ونهاية الإنسان في هذا العالم، وكلها أمور خارجة تماما عن منظومة حياتنا البشرية، أما الأساطير فدنيوية جدا، وتقترن دوما بشخص أو مذهب أو فرقة، وهدفها جمع العوام حول ذلك الشخص الذي تنسب إليه الكرامات والمعجزات حيا أو ميتا، أو ضم الأتباع لهذا المذهب أو ذاك من خلال تبهير تراثه المكتوب والشفوي بفيض من المعجزات الحادثة على يدي أقطابه، لإظهار تأييد الله لهم وأنهم الفرقة الناجية، وأحيانا تخترع الأساطير لهدف اقتصادي بحت هو في الغالب جذب التبرعات والنذور، والأمثلة كثيرة، منها موضوع الأبدال الأربعين هؤلاء والأحاديث المتهافته الإسناد التي تروى حوله وتنسب للرسول (ص)، فدلالة هذه الأسطورة سياسية، وهي أن أهل الشام فيهم الأبدال، وعلى ذلك فمعاوية وجيش الشام كانوا هم الفئة الناجية في الفتنة الكبرى. هدف سياسي بحت للأسطورة.

"وبقية الميثولوجيا الصوفية كالنقباء والأوتاد والغوث[٢٦٠]، هل كانت تهدف لجذب الأتباع كذلك ؟" هكذا سألته فأجاب

---

[٢٦٠] النقباء الأربعة في المعتقد الصوفي أربعة أولياء يصرفون شئون الكون، والغوث هو أكبرهم ومكانه مكة ، والأوتاد سبعة أولياء يصرف كل منهم شأن قارة من القارات السبع وهم أدنى مرتبة من النقباء

(٩٥)

وقد ارتسم الاهتمام والجد على وجهه كأنه عاد لحديث التاريخ وليس الأساطير، فقال "الصوفية بدأت فلسفة إسلامية، واشتق اسمها نفسه من لفظ الحكمة اللاتيني **صوفي** الذي اشتق منه اسم الفلسفة، وتأثرت بأفكار فلاسفة اليونان من جهة وبالميثولوجيا الهندية من جهة ثانية، فظهرت فيها مفاهيم مثل وحدة الوجود والغيب المطلق والحقيقة المحمدية[٢٦١] وغيرها، ثم دخلها عنصر الدروشة وانتشرت تحت مظلتها الدعوات الباطنية، وأقل الأساطير هي المنسوبة لمتصوفة بحجم ابن عربي وابن الفارض والحلاج، أما أكثرها فمنسوبة لمن يسمون الأولياء، مثل الدسوقي والبدوي وغيرهما، فالولاية بمفهومها المنتشر بين العوام هي التي قامت على التجارة بمشاعر البسطاء، وليس التصوف".

عاد الزوجان للسيارة ليعودا لدمشق، وفي أثناء رحلة العودة بالسيارة، ألقى علي نظرة أخيرة على جبل قاسيون. طالت نظرته كأنها نظرة وداع وهو يقول بصوت مسموع "دمشق بلد يحبنا ونحبه".

---

[٢٦١] الحقيقة المحمدية فكرة متأثرة بوحدة الوجود الهندية، فصلها ابن عربي في الفتوحات المكية (٩٥)

(٢٦)

يوم الظلمات

الأحد، الثالث والعشرون من سبتمبر

بعد منتصف ليلة السبت، الثاني والعشرين من سبتمبر، أقلعت من مطار دمشق الدولي طائرة خطوط الزوراء العراقية من طراز يوشن-١٨ روسية الصنع، متجهة نحو كردستان العراق، حاملة على متنها خليطا متباينا من مختلف الجنسيات والأعراق، كان هناك عراقيون يتحدثون اللغة الكردية، وآخرون يتحدثون العربية بلهجة جنوب العراق، واثنان في نهاية الطائرة تسمع منهما السريانية، فضلا عن عدد من المواطنين السوريين يبدون كمجموعة واحدة في مهمة. في الصف الثالث من صفوف الطائرة متوسطة الحجم جلس علي على الكرسي الخارجي جهة الممر وإلى جواره زوجته، كلاهما ممدد ومغمض العينين في هذه الرحلة الليلية، نامت ماري وفوق ساقيها رواية بوليسية، من نوع خفيف سلس تفضله في السفر لتزجية الوقت مع عدم إرهاق العقل، وإلى يسارها جلس علي مغمض العينين، مستيقظا كما هو ظاهر من تمتمة شفتيه بغير صوت كعادته إذا اندمج مع أغنية يطرب لها، إذ كانت سماعات جهازه الصوتي مثبتة في أذنيه، وصوت أم كلثوم يتدفق بقوة في وجدانه وهي

تشدو "**بغداد يا قلعة الأسود، يا كعبة المجد والخلود، يا جبهة الشمس للوجود**" اختلجت عيناه لذكر قلعة الأسود التي يزورها اليوم محتلة، إنها زيارته الثانية للعراق تحت القتام، ومازال عقله منذ أقلعت الطائرة يسترجع كل حلقات المأساة منذ عام ١٩٩١م وحتى اليوم، إذ نجحت أمريكا في التسعينات فيما فشلت فيه في الستينات، يوم حاولت توريط العراق في غزو الكويت عام ١٩٦١م، تحت حكم عبد الكريم القاسم الداعم لسياسة الأحلاف، فطالبت العراق يومها بضم الكويت رسميا وبدأت حشود عراقية تتحرك صوب الحدود الكويتية، ونشطت معها أساطيل أمريكية في المتوسط لتكون على مقربة من الأحداث تماما كما حدث في ١٩٩١م، لكن في الستينات كان للوطن العربي قائد ذو رؤية نافذة ونفوذ قومي، فمنع الكارثة قبل وقوعها، إذ تدخل **جمال عبد الناصر** بثقل زعامته الشخصية وثقل مصر (الذي كان إقليميا) فحسم الأمر، مثنيا القاسم عن عزمه الأخرق، ثم مسقطا نظامه الموالي للإمبريالية العالمية بيد الشعب العراقي نفسه، تدخل عبد الناصر لأنه كان يرى بعين القائد كل الكوارث التي حدثت فيما بعد منذ غزو الكويت وحتى اليوم، وأولها تواجد عسكري أمريكي مباشر في حضم النفط العربي من الخليج للعراق.

هكذا حدث نفسه وهو يخرج من حقيبته السوداء الصغيرة علبة لبان النيكوتين، يتذكر تعليق ماري على هذه العلبة فينظر لوجهها الحالم المستلقي بجواره في وداعة طفلة، قالت له حين ابتاعها "لا أحب هذه العلبة، تجعلني أراك ضعيفا متلهفا على جرعة من عقار". فأجابها هو "التدخين هو الرفاهية الوحيدة التي سمحت لنفسي بها"

"ليس رفاهية بل لعنة، ثم لماذا تمنع نفسك من الرفاهية، وأين يتبخر دخلك من الجامعة ومن إرثك وعائد بيع كتبك ومقالاتك؟" نظر إليها يومها مبتسما، ثم أطرق بوجهه نحو الأرض، واضطر أن يلمح لها عن الحقيقة حتى لا تظن به الظنون، فقال بتورية ظاهرة المعنى "من ملك الله في ملك الله". فهمت ما يعنيه يومها، فربتت على كفه بحنان، كان المفكر الاشتراكي حريصا على تطبيق أفكاره على نفسه بأقل تقدير.

تذكر علي ذاك الحوار وهو يمضغ لبان النيكوتين ليهدأ الصداع برأسه، ذلك الصداع السخيف الناجم عن سحب النيكوتين من خلاياه، ثم داعب أزرار جهازه ليبدل النشيد الوطني بموسيقى هادئة تناسب الاسترخاء وتمدد في كرسيه، ومرت دقائق بطيئة سمع فيها نبض قلبه المنتظم، حتى شعر بثقل في جفنيه، فرحب بالكرى لقتل الوقت، لكن النوم لم يقتل

الوقت وحسب. فقد نقله النوم لتلك الحقبة القريبة البعيدة!

أرى عسكرا فيه الراكب والراجل، يتقدمه فارس فوق جواده وفي وجهه شبه كبير من مالك الأشتر، أكاد أقسم أنه **إبراهيم بن مالك** دون غيره، فعدا وجه أبيه وبسطة بنيانه، ورث الولد من والده هيبة تجلله في غير كبر. أرى بجواره راجلا يأخذ بعقود فرسه ويجد السعي بخطوات حثيثات، توحي ملابسه بتقشف زاهد، لكن اتقاد عينيه يوحي بذكاء السياسي، يمر بي الركب فأسير قرب الرجلين، وأسمع الفارس يدعو الراجل لركوب فرس أو العودة، فيجيبه الراجل بعبارة مميزة "أحب أن تغبر قدماي ساعة في نصرة آل محمّد"[٢٦٢]. إذن فالراكب هو بحق إبراهيم بن مالك والراجل بجواره هو **المختار بن أبي عبيد**[٢٦٣]، الثائر الذي أنصف آل بيت النبي مضطلعا بثأرهم، هكذا تخيلتك دائما يا مختار، هكذا رأيتك بعين خيالي كلما قرأت عنك، ليث حزين، كانت حركتك ثورة للحق والحقيقة، وغضبة على الجور والبهتان، فكافأتك الأقلام المؤلفة جيوبها بالنكران حينا وبالتشويه أحيانا. زعموا أنك ادعيت النبوة ودعوك بالكذاب، وزعموا أنك قمت طمعا في حكم الكوفة، وافتروا عليك أنك من السبئية، والله عليم بالقلوب رغم ما

---

[٢٦٢] (١٤٠)

[٢٦٣] المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، كان والده من المجاهدين في فتح العراق على عهد عمر بن الخطاب واستشهد في الفتح فأقامت به أمه في الكوفة (١٢٦)

يفترون، ويذكر الزمان لو نسوا يوم فجع المسلمون بقتل سبط النبي وآله في الطف، وكنت أنت يا ربيب حجر علي بن أبي طالب سجينا في الكوفة، سجنك عبيد الله بن زياد مع من سجن من الموالين للحسين ليمنعهم من الخروج لنصرته، وأتاك في سجنك نعي الحسين، فزلزل النبأ المشئوم قلبك، وقهرك الغبن حتى النخاع، ويذكر الدهر لو نسي البشر قسمك ألا تهنأ بعيش حتى تنهض بثأر السبط المغدور، وتخرج من محبسك بوساطة صهرك عبد الله بن عمر، فتقيم في مدينة النبي ترتقب الفرصة لتبر بالقسم، لكن قدر الله كان أعجل على يزيد بن معاوية من ثأرك، فمات ورفض ابنه **معاوية الثاني** ولاية عهده واعتلاء كرسي خلافة جاءه ملوثا بدم آل البيت[٢٦٤]، فاستقل عبد الله بن الزبير بالحجاز والعراق، وولى على الكوفة عبد الله بن مطيع، فخرجت يا مختار إلى أصحابك وثقاتك فيها، ووافقك في ذلك إبراهيم بن مالك، طالب ثأر لا طالب حكم، عزمت على القيام لثأر الحسين بعد أن أخفقت ثورة التوابين[٢٦٥] في النهوض به، وفي تلك الليلة الحالكة من عام ٦٨٧م، صحت الكوفة من نومها على الثوار يحملون المشاعل ويجرون في شوارعها يدعون الناس بدعوة الحق، هادرين بشعار ثورة

---

[٢٦٤] حقيقة سبق التنويه عن مصادرها

[٢٦٥] ثوار من أنصار الحسين قاموا من الكوفة والبصرة وغيرها بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ولاقوا جيش عبيد الله بن زياد من قتلة الحسين في موقعة عين الوردة، فهزموا (٤٥)

المختار الذي رحبت به القلوب "**يالثارات الحسين .. يالثارات الحسين**". تمكن الثوار من الكوفة وغلبوا حاميتها، وقامت دولتك يا مختار فيها. أنصفت الموالي من من الفرس والترك وغيرهم من الجور الأموي الذي ميز العربي على الأعجمي بنعرة قومية، فاتبعك الموالي من العجم والمهمشون من العرب، وخرجت من قاعدة الكوفة لتبر بالقسم الكريم، فقتلت **شمر بن ذي الجوشن** الذي ضرب عنق سيد الشهداء، وقتلت **أبجر بن كعب** الذي كشف ستر السيدة زينب في كربلاء وشرم أذنها ليسلب قرطها، وكذلك ذبحت **إسحاق بن حوية** الذي سلب قميص الحسين بعد موته، وهأنذا أراك وإبراهيم على رأس جيش جيشته للنيل من عبيد الله بن زياد فأمكنكم الله منه بفضله فأرديتموه. فلله درك من ثائر للحق لم يفتر ولم يكل.

تتغير صورة الراكب فوق الفرس، فأرى المختار معتليا جوادا وهو في زي من جلد مدبوغ غير ما كان عليه منذ قليل، لا يبدو في معركة، فليس في يده سيف ولا رمح، لكن أمامه جمهرة من الرجال كأنهم تكالبوا على رجل وسطهم، والرجل يصرخ طالبا الرحمة، ثم يندفع من وسط هذه الجمهرة والنيران تشتعل في ثيابه، يكاد قلبي ينخلع من صراخه المحموم، ثم تصل لأنفي الرائحة الخانقة لاحتراق جلد بشري، فأشعر بانقباض يعصر معدتي، وتجتاحني رغبة في القيء، لابد أنه **حرملة بن كاهل**، الرجل الذي أحرق قلب الحسين على فلذة كبده

الرضيع الذي لم يبلغ العام، فرماه بسهم وهو على ذراع أبيه في كربلاء، فأحرقه المختار ثأرا.[٢٦٦]

تهبط على عيني غشاوة سوداء، بل هو الليل قد أرخى على الصحراء سدوله، أرى على بعد خطوات مني جماعة من الرجال تحلقوا حول نار، وحين أقف على بعد خطوات منهم، أرى وسطهم وجها وضيئا أعرفه بسيماه، النبل والكرامة والجلد وقد تجسدت تمشي على الأرض، هو سبط رسول الله، وخيط دمه في الأرض، **الحسين بن علي** سيد الشهداء، فلابد أنها تلك الجلسة في صحراء كربلاء ليلة المأساة الكبرى، ليلة الطف وما جرى فيها، ويالهول ما جرى فيها! هو اجتماع السبعين رجلا من آل الحسين على ظمئهم ليلة المعركة، بعد أن منع عنهم جيش عبيد الله بن زياد الماء، أقترب فأجلس على مرمى حصاة من الجلسة المباركة، لم يسمع وقع أقدامي على الحصى أحد ولا رآني أحد، لقد اعتدت هذا على كل حال.

يصلني صوت سيد الشهداء رخيما مطمئنا، كأنه لا يوقن أن موعده مع جيش البغي هو الغد، وأنه مقتول فيه لا محالة، فأسمعه يقول "لا أعلم أصحاباً أوفى من أصحابي، ولا أهل بيتٍ

---

[٢٦٦] جميع الأحداث الواردة عن ثورة المختار بالفعل حقيقية (١٢٦)

أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، إني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل غشيكم فاتخذوه جملاً، ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني للهوا عن طلب غيري"[٢٦٧]

"و لم نفعل؟ لنبق بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً". قالها صوتٌ فيه فتوة وحزم، أنظر لصاحبه الجالس على يمين الحسين فأرى رجلا فارع القامة، جميل الوجه، يعتم بعمامة خضراء فيها ريشتان، هو قمر بني هاشم إذن، **العباس بن علي بن أبي طالب**، أخو الحسين لأبيه من زوجته أم البنين، الفارس الملقب بساقي العطاشى، من اقتحم الماء مع عشرين رجلا يوم الطف، فسقى الحسين ثم حمل قربة من ماء ليسقي آل البيت، لكن جيش البغي تكالب عليه حتى قطعوا كفيه وضربوا رأسه ضربة ألحقته بركب الشهداء. أرى الحسين يطرق قليلا ثم ينظر لنفر من الرجال أمامه ويقول "يا بني عقيل بن أبي طالب، حسبكم من القتل بمسلم بن عقيل، اذهبوا قد أذنت لكم". فيخرج من

---

[٢٦٧] الحوار بين الحسين وآله ووقائع المعركة حقيقية وفقا لما ورد في مصادرها (١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥)

بينهم صوت يقول "والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك". أي معدن من البشر أنتم يا بني هاشم؟ أي عترة مباركة يا بني عبد المطلب؟ أي نسل من أسود الشرى يا بني أبي طالب؟

هاهو الحسين يقترح خطة المواجهة المريرة فيقول "فإن شئتم فلنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فاحفروا حولنا وخيام أهلنا خندقا، فإذا كان الغد أشعلنا فيه نارا فلا يحيطوا بنا. نحن بضعة وسبعون رجلا وهم فوق الأربعة آلاف، وما أحسب خندقنا هذا يدفع عنا الموت حتى غروب الشمس غدا، لكن علينا الجد في قتال الباغين لو قاتلونا، حتى نهلك دون الحق و لم نقصر فيه". هكذا قال الإمام، صاحب أشرف ثورات الأرض، ثورة ضد البغي والظلم الذي طال، فقد خالف معاوية عهده لأخيه الحسن، وكانا قد اتفقا في عام الجماعة أن يلي معاوية الخلافة، فإذا مات عاد الأمر شورى بين المسلمين، يولوا أمرهم من أرادوا، لكن معاوية قتل الحسن بالسم لينقض عهده، ثم أخذ البيعة لولده يزيد، وأصحاب رسول الله بعد على وجه الأرض يمشون، ويتألمون من هذا الواقع الغريب الكئيب، حين يلي من كان كيزيد منصبا تولاه الراشدون ويجلس مجلسهم، وندم بعض من اعتزل الفتنة منهم وقال "ليتني نصرت عليا على

ثم أصبح يزيد خليفة، فأيقن الحسين أن الغمة الأموية التي حلت بالأمة بعنصريتها ومظالمها لن تنزاح بغير القوة، فلا عهد لهم ولا ميثاق، فكان خياره الثوري أن يستجيب لأهل الكوفة، فيخرج إليهم بأهله ثائرا، يحسب أن عرب الكوفة اليوم كعرب يثرب أمس، أنصار للعدل والحق ينصرونه كما نصر أهل مدينة النور جده المصطفى، لم يعلم أن قلوبهم معه، لكن سيوفهم مع عبيد الله بن زياد، والي يزيد المخلص الذي هددهم حين علم بخروج الحسين، فخافوا سيفه وطمعوا في خزائنه إلا نفرا قليلا، فاعتصم ببيته منهم من اعتصم، والتحق بالجند الأموي من التحق طمعا في صلة أو منصب يصيبه بسفك دم آل محمد.

ظلام للمرة الثانية، لكنه ظلام دامس ليس به شبح من ضياء هذه المرة، يتناهي إلي صوت الحسين هادئا، ينساب في أذني كماء في غدير، فأسمع سبط النبي يقول "اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعُدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، شكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، فأنت ولّي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة". ياللظلام، يالصولة البغي في

الأرض وجولته، أهكذا يفعل بالحسين؟ أهذا ما وعيناه من قول الله في كتابه العزيز "**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى**"[٢٦٨] أهذه مودتنا لآل بيت نبينا بعرضهم على السيف والتكالب عليهم في عزلتهم ووحدتهم؟

صوت الحسين يتردد ثانية، هادرا كالبحر هذه المرة كأنه يخطب في جمع، يقتحمني صوته من كل الجهات، يقول "**فانظروا، هل يصلحُ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين لرسول الله بما جاء من عند ربّه؟ أوليس حمزة سيّد الشهداء عمّي؟ أوليس جعفر الطيّار في الجنة بجناحين عمّي؟ أولم يبلغكم ما قال رسول الله لي ولأخي، هذان سيدا شباب أهل الجنّة؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟**"

لا أسمع جوابا من جيش البغي الذي صاح فيه الحسين بهذه الكلمات الموجعات صباح المعركة، كأنه يخاطب الريح التي تصفر في خلفية صوته، فلا مجيب له غيرها، ثم أسمعه يسمي قوما بأسمائهم فيقول "يا شبث بن ربعي، يا حجّار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثّمار واخضرّ

---

[٢٦٨] الشورى: ٢٣

الجناب، وإنّما تقدم على جند لك مجنّدة؟". لا جواب غير عصف الريح، لكن، ما هذا الظّلام الدامس؟ ما أسمعه هو ما ورد في الآثار على أنه خطاب الحسين في العسكر الأموي صباح كربلاء، في وضح النهار، فمابال الظلام يحيط بي بلا نهاية؟ أسمع صليل سيوف وصهيل خيل وحمحمتها وهي تملك، لكنني لا أرى قتالا، لا شيء غير الظلمة الحالكة. وأسمع صوت السبط النبوي يقول لصحبه "**يا كرام، هذه الجنة فُتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها، وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتطلعون لمقدمكم، ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيه، وذبوا عن حرم رسول الله**"

"نجعل القلوب فوق الدروع وندفع عنهن بصدورنا يا ابن بنت رسول الله". هذه الصيحة الحسينية وهذه الإجابة من أجناد الحسين كانتا عند الظهر، حين رفض جند **ابن سمية** أن يمهلوا سبط النبي للصلاة، واشتطوا في القتال، فسقط من عسكره القليل أكثره، حتى لم يبق حوله إلا خاصة أهله وولده، ما بال هذا الظلام لا ينقشع؟ أهو رحمة من ربي حتى لا أرى وقعة البغي؟ لا، الله نور السماوات والأرض، والظلمات غياب النور، فهذا ظلام القلوب التي فارق نور الله حناياها لتحتلها ظلمات الطمع والجزع، الطمع في مال يزيد وسلطانه، والجزع

من كلبه ابن زياد الذي سلطه على من خالفه.

أسمع صيحة حسينية ملتاعة تتقطع لها نياط القلوب، سبط الرسول يصرخ قائلا "**واولداه**". يختلج قلبي، لقد سقط **علي بن الحسين** إذن، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ما أعظم مصابك ومصاب **الأمة فيك** يا ابن سيد شباب الفردوس، قتل أشبه الهاشميين بجده المصطفى صلوات الله عليه! فطوبى لك أيها الشهيد بن الشهيد بن الشهيد، وتعسا لنا. هاهو صوت الحسين بين **قعقعة** السيوف كأنه مذبوح بألمه يقول "**صبراً على الموت يا بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد اليوم إن شاء الله**". نعم يا سيد الشهداء، لا هوان بعد يومكم هذا إلا لمن هان على نفسه، فقد بينتم طريق الشرف والكبرياء، ورسمتم بدماكم الزكية خطة العنفوان والإباء، حياة مع الشرف والعزة أو موت يطيب للكرماء، فلو أنكم يا عترة الهادي لم تضنوا بنفوسكم الزكية الطاهرة في سبيل الحق وعلى مذبح الحقيقة، فبأي نفوس نضن نحن بعدكم؟ سبعة عشر رجلا من رهط النبي وخيط دمه تساقطوا زهرة فزهرة، في يوم هو ربيع بني أمية، وخريف المسلمين جميعا، فأي بلاء نخاف بعدك يا كربلاء؟

يصك أذني صوت لم يغادر صباه يعصره مبرح الألم وهو يصرخ "يا عماه". إنه **القاسم بن الحسن**، سقط ابن الإمام

الذي ترك الخلافة طلبا للسلام وحقن الدماء، أهذا عهد الحسن إليكم يا بني أمية؟ أهذا ما صالحكم عليه من أمر المسلمين يعود إليهم؟ فما لبثتم أن خيرتم ولده وشقيقه بين البيعة لسيدكم أو الموت في الصحراء؟

أسمع صوت الحسين تعركه بحة شديدة يقول "**الآن انكسر ظهري يا عباس**". سقط قمر الهواشم إذن، رحمك الله يا ساقي العطاشى، يا عجبا من نجوم تسقط إذا سقطت نحو السماء، وسيوف ترتفع إذا رفعت للحضيض، يا عجبي من انتصار رهط الحسين بموتهم وهزيمتكم بحياتكم يا عبيد الدرهم والدينار، هم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنتم جيف تترمم فوق الأرض لا في بطنها، هاهو سيد الشهداء ينشد أنشودة الشهادة الكبرى "**القتل أولى من ركوب العار، والعار أولى من دخول النار، بسم الله وعلى ملة رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله**".

أراه بعين خيالي واقفا وسط القتام يزود عن حريم البيت النبوي وحيدا، والسهام تتكالب عليه من كل حدب وصوب، ولو وعت السهام ما أصابته، ولو كان لها فؤاد لكانت عليه بردا وسلاما. أراه يسقط وما في جسده مكان لضربة سيف أو رشقة سهم، فرع النبوة يسقط، نجم يعلو نحو مكانه في سماء

الحقيقة ليبقى أبد الدهر. أواه يا سيد الشهداء! يالغربة الحق والعدل بعدك بين الناس يا خيط دم النبي، قتلك البغي عطشانا في أرضنا يا حسين بن علي، فاهنأ بشربة من كأس جدك في الجنان لا تظمأ بعدها أبداً، أمكنهم منك خوف الجرذان في صدورنا، ووهن العناكب في سواعدنا، وخور المخاط في عزائمنا، نحن من قتلك بسيف البغي يا حسين يوم سكتنا عن نصرة الحق، قتلناك ألف ألف مرة في هذه الأرض، قتلناك في كل ثائر وكل مناضل وكل صارخ في برية الحق قبلك وبعدك، فتبت أيادينا، تبت أيادينا!



تنقشع الظلمات لأرى سيدة ترفل في ثوب فضفاض، إنها، إنها ماري! لماذا هنا؟ وكيف؟ وما هذا الثوب؟ ثوب من كتان أبيض وعلى رأسها طرحة بيضاء مسدلة نحو كتفيها، ما أقربك

من مريم العذراء على هذه الصورة يا ماريتي؟ أو ما أقربك من مريم المجدلية؟ أرى خلفها سماء وسحاب، كأنها تسير في السماء، من هذا الذي يقف أمامها؟ يعترض طريقها السماوي؟ كأنه رجل؟ لكني لا أميز منه شيئا غير ظلام، رجل من ظلال سوداء، تقف أمامه منتصبة القامة شامخة الرأس، ثم ترفع يدها وبها بيضة كبيرة تتوهج بنور أبيض، تضعها في وجه رجل الظلام، يقتحم نورها وجهه الظلامي كأنه يقشعه، ها هي ماريتي تنظر له نظرة حزم وبسالة أعرفها في وجهها وتقول "**في اليوم الثالث يقوم من الأموات**"

(٢٧)

دموع التاريخ

الدكتور **فريد حسني** مدير برنامج اليونسكو للحفاظ على التراث الإنساني في العراق، يجلس مطرقا على الفوتيه الجلدي في غرفة مكتبه، وعلى وجهه علامات الحيرة والانزعاج، في منتصف العقد السادس من العمر، تختلط فيه ملامح الوجه الشرقية التي ورثها عن والده المصري بصراحتها وطيبتها، بلون بشرة فاتح مشرب بحمرة وزرقة عينين صافيتين ورثهما عن والدته الإنجليزية، يجلس قبالته الدكتور كاظمي عبد الأمير بجسده الممتلىء في بدلته الزرقاء ورأسه الأصلع اللامع، ووجهه الناطق بهوية جنوب العراق، يزيد من وضوح ملامحه الحادة الخطوط شارب سميك خالطت سواده بضع شعيرات بيضاء، تعكس ملامح وجهه انفعالا واضطرابا هو الآخر وهو يقطع لحظات الصمت قائلاً "لكنها جريمة ضد الإنسانية كلها، لمصلحة من يطمس هذا التراث؟"

يبتسم فريد بمرارة المطلع على باطن أمور لا ترضيه وهو يقول "دناءات السياسة مصرة على حرمان البشرية من تاريخها الحقيقي، والأذرع الظلامية تبرز وتخفي في تراث الإنسانية كيف شاءت ووفقا لتوجهات الكبار، قد يكون الأمر جديدا

عليك، لكن صدقني يا عزيزي، حتى التاريخ الذي يدرسه الأطفال في المدارس توجهه المؤسسات المالية العملاقة خلف المحيط، تلك هي حقيقة عالمنا، لكني أظنهم هذه المرة أرادوا حرماننا من المخطوطات بسبب أمر آخر، تفهم ما أعنيه"

"تعرف كل هذا، فلماذا أعطيتهم الأصول"

"الأصول كانت معي بصفتي الوظيفية، ومن حق الإدارات العليا أن تطلبها لتحفظها في مكان آمن، خاصة في ظروف الحرب الحالية"

"لكنه تراث عراقي! والحكومة العراقية لا تسمح .." قاطعه فريد برده قائلا "كان معهم مندوب رسمي من الحكومة، وطلب مني بيانا مكتوبا بالمحتويات ليرفقه بإذن مختوم يسمح بسفر المخطوطات خارج العراق بطريقة شرعية تماما، وما أن تركوني حتى أتاني بريد الكتروني يطلب إغلاق الموضوع حتى إشعار آخر، وخبرتي تقول أنه لن يكون هناك إشعار آخر، فقد وصفوا المخطوطات في كل المكاتبات والبريد الإلكتروني بالمخطوطات الآشورية، وهذا يعني أنهم ينوون التعتيم الكامل، فلو حاولنا طرح الموضوع على الرأي العام العالمي سينكروه ويتهمونا بالجنون، ويثبتوا بهذه المكاتبات أن ما سلمناه لهم كان مجرد نصوص آشورية مكررة، قيمتها التاريخية محدودة"

"آثار آشورية يعثر عليها في سامراء؟"

"سيدعون أننا وجدناها في شمال العراق، أو في خبيئة حديثة في سامراء نقلت إليها من مكانها الأصلي، لن يعضلهم ذلك، فالكذب حرفتهم". هكذا رد فريد قبل أن يشعل سيجارة فينفث دخانها بغيظ واضح، غيظ من تعرض لهذه الأمور أكثر من مرة حتى فاض الكيل، ففي اليوم السابق، جاءته مكالمة هاتفية من أحد قيادات اليونسكو طالبة منه أن يسلم أصول المخطوطات المكتشفة إلى لجنة تصل بغداد بعد الظهر، وتزوره في مكتبه في حراسة قوات أمريكية لاستلام المخطوطات، لأن الوضع في العراق ليس آمنا للحفاظ عليها، وحين طلب فريد الانتظار حتى تضطلع عليها خبيرة الحجازية القديمة وأستاذ متخصص في تاريخ الفتنة الكبرى يصلان للعراق ظهر ذات اليوم، أجابته محدثته بأن بإمكانهما الاضطلاع على نسخة ضوئية، ثم أضافت أن الأمر أتاها من جهة أعلى وغير مطروح للنقاش، وأن مكاتبة بهذا الأمر ستصله على بريده الإلكتروني خلال لحظات، وأكدت عليه ألا يطلع كائنا من كان على أمر التسليم حتى تغادر المخطوطات العراق مع اللجنة بطائرة خاصة أعدت لذلك، عندها أيقن أن النية مبيتة لقتل الأمر تماما، وأن عينا لن تقع بعد اليوم على تلك المخطوطات، فكر في الرفض

والتمرد، لكنه عاش عمره كله رجل واجب وشرف مهني، والمخطوطات ملك الحكومة العراقية التي وافقت، واليونسكو الذي أصدر الأمر، فكيف يمنعهما؟ لهذا كان عليه القبول بالأمر الواقع وشعور بالقهر يزلزله، قهر عالم تكبله ألاعيب السياسة والنخاسة، وزاد من قهره ما كان يخطط له مع كاظمي وديار من توظيف المخطوطات لإعلان السر الذي أثقل ظهر كاظمي في الشهور الأخيرة. قبل حلول الليل، كانت طائرة خاصة تقلع من مطار بغداد وعلى متنها المخطوطات التي أنفق عاما كاملا مع كاظمي وديار للحصول عليها ثم فك طلاسمها وسبر أغوارها. كان يحتاج لمشاورتهما في الكارثة بأسرع وقت، لكنه لم يهاتفهما إلا في صباح اليوم التالي التزاما بواجبات وظيفته وحفاظا عليهم، فمن يدري ما عاقبة أن يعرف أحدهما بالأمر في الوقت الخطأ؟

طال الصمت بينه وبين كاظمي، لهذا قام الأخير يهم بالذهاب لمنزله، وخبر اغتصاب أصول كشفه التاريخي مازال على عتبة دماغه لا يريد أن يدخلها، أو لا يريد هو أن يفتح له الباب فيدخل حتى لا يموت كمدا، فهو خبر يعني تداعي الكثير مما خطط له، فقد كانت خطته هي توظيف هذا الكشف الأثري لخدمة هدف أكبر، هدف من أجل هذا البلد المنكوب

بواقعه الدامي، لهذا فهو يحتاج لشيء من الوقت والعزلة ليستوعب ويرتب البدائل، كان منظره وهو يقوم مهزوما من مقعده يوحي بأنه شاخ عشر سنوات في اللحظات الماضية، لهذا نظر له فريد نظرة فاحصة قبل أن يستوقفه بكلماته "لا تعتقد أني فعلت هذا حرصا على وظيفة، التزامي الوحيد كان واجبي الرسمي، تمويل الكشف جاء من اليونسكو، وعقدك معهم يحفظ السبق العلمي لك ولمجموعتك، والتراث الإنساني المكتشف للعراق ممثلا في حكومته، ويحفظ حق إدارة الآثار والتصرف فيها لليونسكو، وبهذا يكون حفظ الوثائق من اختصاص الحكومة ثم اليونسكو، وكلاهما طلب نقلها خارج البلاد".

هز كاظمي رأسه متفهما في تبرم وإحباط من الأمر كله، ولما هم بالتوجه نحو الباب أوقفته كلمات فريد "أرسلت استقالتي فجر اليوم، استقالة مسببة احتجاجا على غلق ملف المخطوطات والحصول عليها بنية اخفائها، وأرسلت صورة من بريد الاستقالة الإلكتروني للعديد من وكالات الأنباء العالمية ومعه صورة إلكترونية من المخطوطات، وطلبت عقد المؤتمر الصحفي الذي كنا نخطط له، من حق البشرية أن تعرف ما لدينا بأي ثمن". استدار كاظمي متجها نحوه وهو ينظر إليه بود بالغ، جلس أمامه واضعا يده على ساعده، كأنه يعتذر عن

لحظات أساء فيها الظن به، فاستمر فريد في حديثه "هناك الصور الضوئية، وهناك جزء من المخطوطات الأصلية مع ديار منذ عاد من رحلة فرنسا، وهذا يكفي لعقد المؤتمر، فالمعركة لم تنته بعد، متى يصل صديقك المصري وزوجته؟"

"اليوم، وديار ينتظرهما في مطار آربيل"

"الخطر يتزايد ومن حقهما أن يعرفا بجلية الأمر، فليحدثهما ديار بكل شيء ليشاركا لو قررا المشاركة على بينة من أمرهما، أو على الأقل يطلعهما على الاستيلاء على المخطوطات ليدركا وجود خطر ما في تلك المهمة". أشار كاظمي برأسه موافقا على ما قاله صديقه قبل أن يقوم من مقعده ثانية، ثم يشد فريد من كتفيه فيضمه لصدره ويعانقه، وانحدرت دمعة من عينيه لفرط تضارب مشاعره بين الأسى والحب والأمل وشعور بالقهر الذي تعرضا له معا، وتعرضت له حقائق الماضي في المخطوطات وحقائق الحاضر في الوثائق، كانت دموعه كأنها دموع التاريخ.

نظر فريد إلى شاشة هاتفه المحمول ليجد الرقم يشير لمكتب اليونسكو الإقليمي في بيروت، أدرك أن الاتصال لابد مرتبط باستقالته، وكما توقع، أتاه صوت مدير المكتب الإقليمي ليخبره أن بريده أشعل النار في المركز الرئيسي في باريس بسبب

حجم الكشف والطريقة البوليسية التي تم الاستيلاء بها على المخطوطات، وأن مؤشرات التحقيق توحي مبدئيا بحالة فساد بطلتها هي الشخصية التي هاتفته وأرسلت له بريدا تطلب فيه تسليم المخطوطات، فقد استغلت منصبها الكبير لتساعد جهة مجهولة في الاستيلاء على كشف حضاري بالغ الأهمية، وفهم منه أن التحقيقات مستمرة، لكن أحدا في اليونسكو لا يعرف أين ذهبت الوثائق، وظاهر الأمر أن المتآمرة لم تتوقع رد فعل فريد العنيف، بل ظنت أنه سيمرر الريح، على هذه الملحوظة علق فريد بصوت غلبته الدهشة من جرأة المرأة على ارتكاب جريمتها، فقال "غبية، لو كنت أعرف كيف أمرر الريح لكنت مكانها منذ عقد من الزمان يا صديقي"

"كلنا نعرفك يا رجل، وهذه ليست أول أزمة لعلماء اليونسكو مع عملاء السياسة والمخابرات، كن واثقا أننا جميعا معك، وافعل ما يمليه عليك ضميرك كعالم تحت مظلة اليونسكو، سيشرفنا هذا جميعا، لهذا سأعتبر أنك سحبت الاستقالة، وأعدك أنني لو لم أتمكن من الوفاء بهذا فسنستقيل معا، نحن في العراق لنحافظ على تراثه لا لنسرقه أو نطمس تاريخه، ولن أقبل غير هذا". هكذا أجابه المدير الإقليمي فشكره فريد على موقفه المنتظر من عالم مثله، لكنه اعتذر بأن ما

سيفعله يتضمن اطلاعا مكثفا للميديا العالمية على الموضوع، وأن الوقت لا يحتمل دورة الموافقات والاجراءات حتى يتم هذا تحت مظلة اليونسكو، عليه العمل بسرعة بعد ما حدث، فلو كان الموضوع مهما لدى من رتبوا المؤامرة لدرجة طائرة خاصة وعربات مدرعة تحرسها كتيبة من الجنود، فكل الاحتمالات واردة لمحاولة خنق الموضوع والتكتم عليه، سأله محدثه "هل لديك أي خيط قد يساعد لجنة التحقيق على تحديد الجهة التي استولت على المخطوطات في حال رفضت تلك المرأة الإفصاح عمن وراءها في التحقيق الجنائي؟"

"لا أتوقع أن يتم تحقيق جنائي، سيصفى الموضوع بعزلها من منصبها، ثم تمارس الجهات السياسية تهدئة للأمور حتى تمر الأزمة بسلام، الأعصاب الباردة التي ارتكبوا بها فعلتهم، وسطوتهم على الحكومة العراقية لتخرج تصريحا بنقل المخطوطات الأثرية للخارج، كل هذا يشي بالفاعلين يا صديقي، ليسوا من عصابات الشوارع في بروكلي على كل حال، سأرسل لك صورة ضوئية من الإذن الصادر من الحكومة العراقية المؤقتة، ربما تكون الحكومة العراقية هي طرف الخيط لتحديد الجهة الفاعلة، وإن كنت اظنها جهة لن يملك أحد وضعها في قفص الهام"

في هذه اللحظات كان علي يفيق من نومه فجأة على ارتطام عجلات الطائرة الشديد نسبيا بأرض المطار، نظر لزوجته بجواره فوجدها تتأمله وعلى وجهها إمارات الخوف وتقول "لم يكن حلما، حاولت إيقاظك أكثر من مرة، فأدرت وجهك نحوي مغمض العينين وابتسمت وأنت تربت على ذراعي بيدك، ثم تحركها بإشارة لأهدأ قليلا، كنت أشبه حالا بمرضى الصرع النفس-حركي، وكنت تتمتم بكلمات لم أتبينها، الموضوع مقلق يا علي وليس بسيطا أو عاديا". هكذا حدثته بالانجليزية مندفعة بسرعة شديدة كعادتها حين تتوتر، فابتسم لها بسمة من يسترخي بعد إرهاق طويل وإن لم يغادر طائف غامض من الحزن ملامحه وقال "لا تفزعي، قد يكون آخر الأحلام على كل حال". بدت غير مقتنعة بأن عليها ألا تفزع بعد ما رأته بعينيها، ما يراه زوجها ليس أحلاما ولكنها هواجس شبه واعية نتيجة حالة نشاط زائد في قشرة المخ الرمادية تأتيه في مرحلة ما بين النوم واليقظة فيحسبها أحلاما، قرأت في هذا الموضوع من قبل، وهو قد يكون عرضا باكرا لحالات .. أورام المخ.

قام معها عندما توقفت محركات الطائرة بحركة آلية، رسخ في نفسه أن في الحلم إشارة لموته هو، ولدور غامض تلعبه

ماري في وصول رسالة منه للعالم، أو إتمام رسالته بطريقة غامضة، شرد قليلا في ذكرى موت والده ووالدته التي داهمته فجأة، تذكر يوم هبط للقبر مع جثمان والده الراحل وساعد حفار القبور على وضع الجثمان مقتبلا القبلة، ثم نثر الرمال الطاهرة على الكفن رمزا للدفن، حين فتح الكفن عن وجه والده ليقبله شاعت في جسده رعدة حزينة، فقد امتص الموت سخونة الجسد وتركه باردا كقطعة من حديد في برد الشتاء، حين خرج من القبر لفح الهواء ظهره الذي تعرى من قميصه لفحة شديدة، فشعر بأن ظهره أصبح عرضة للرياح بموت أبيه، ثم تذكر قصة قبر والدته مع الريحان الأخضر، كان وأخته يجدان عيدانا من الريحان مشبوكة في باب قبرها الحديدي كلما زاراها، واستمرت الرياحين لعدة أشهر بعد الوفاة، كلما ذبلت بدلها من وضعها بأخرى خضراء، لم يكن لوالدته أقارب ولا أصدقاء أحياء في تلك المدينة التي توجد بها مدافن أسرتها، فمنذا يهتم بقبرها من بين كل القبور؟ لسبب ما تذكر كف والده الكبيرة القوية، كانت كفه الطفلة تطمئن فيها حين يسير معه على النيل بعد الفجر، ثم قذفته الذكريات لحضن أمه الدافئ أبد الدهر، وكيف كان يتسلل صبيا من فراشه في ليالي الشتاء ليرمي بنفسه في أمان حضنها، فليرحمهما الرحمن كما ربياني صغيرا وآزراني كبيرا.

هكذا فكر وهو يسير بممر الطائرة، ثم اقتحمته عبارة ماري وهي تقول "**في اليوم الثالث يقوم من بين الأموات**" إنها عبارة المجدلية التي صرخت بها في وجه قيصر بعد صلب المسيح في التراث الديني المسيحي، فمن كانت تعني ماريته؟ لم تكن تعني المسيح بكل تأكيد؟ ولماذا تحتل عقله منذ الأمس أحداث الهوان العربي وذكريات موت الأحبة؟ أهي رغبة في تعذيب الذات؟ أم شعور بدنو الأجل؟ هكذا كان يفكر حين ركبا الأتوبيس الداخلي الذي نقلهما لصالة الجوازات في مطار آربيل الدولي، وقف في الطابور الطويل يتأمل رجال الجوازات ببدلهم العسكرية النظيفة، ويراقب من بعيد إجراءات تفتيش الأمتعة الصارمة، يقوم بها شباب كردي متحمس لحماية وطن عزيز حازه بعد قهر السنين، ومآسي دامية بلون الموت الكيميائي في حلبجة، تذكر مقطعا من قصيدة لنزار قباني يقول "**مواطنون نحن فى مدائن البكاء، قهوتنا مصنوعة من دم كربلاء، حنطتنا معجونة بلحم كربلاء، طعامنا، شرابنا، عاداتنا، راياتنا، زهورنا، قبورنا، جلودنا، مختومة بختم كربلاء، لا أحد يعرفنا فى هذه الصحراء، معتقلون داخل النص الذى يكتبه حكامنا، معتقلون داخل الدين كما فسره إمامنا، معتقلون داخل الحزن، وأحلى ما بنا أحزاننا**". قشعريرة باردة سرت بجسده

مع مرور البيت الأخير بذاكرته.

كانت زوجته مازالت فزعة مما رأته واستنتجته عن حالته، لم تحتمل إمكانية أن تشي الأعراض بورم في رأس علي الحبيب، ليس بعد كل هذه السنوات من الحب والحرمان، لم تخبره بهذا، وإن قررت أن تفعل فور وصولهما لأرض الوطن ليبدأ في رحلة التشخيص والعلاج لو لزم الأمر، تمنت أن تكون مخطئة، لكن زاد من روعها وجهه الذي خيمت عليه سحابة سوداء لم ترها قبل اليوم أبدا، سألته أكثر من مرة خلال الساعة الماضية عما به، فأجاب بأنه مرهق، فمصارحتها بخاطر الموت الذي سيطر على وجدانه كانت قسوة تتجاوز قدرته، وكذلك كان كل منهما يكتوي بنفس الهم والفرق منفردا.

(٢٨)

الطريق إلى بغداد

حال خروجهما من المطار، التقى بهما الدكتور ديار خبير الآثار الإسلامية مرحبا ببسمته الودودة، فاستقلا معه سيارته، وديار عراقي كردي، حاصل على درجة الدكتوراة في علوم الحفائر من فرنسا، وقد أقام بها فترة من الزمن على إثر صدام مع نظام البعث الذي كان حرصه على طمس الهوية الكردية أكثر من حرصه على وحدة العراق، في نهاية الثلاثينات، شرقي الملامح، أنيق الطلعة، أكثر ما يميزه ابتسامة تخرج من قلب صاف فتجد موقعها في قلب من يراه، في الطريق أخبرهما بفقد أصول الكشف الأثري في حادث سطو من جهة مجهولة بالغة النفوذ والسطوة، حاول بروحه المرحة أن يخفف وقع المأساة، فالعالم الكردي الذي عركته الحياة بخبراتها، وأهمها خبرة الصدام مع البعث العراقي في عز صولته، لم تعد تهزه الملمات، ربما لهذا السبب وبفضل شخصية ديار كان وقع الخبر عليهما أقل من وقعه على كاظمي هذا الصباح، فقد طمأنهما على استمرار البحث من خلال النسخ الضوئية الدقيقة، فضلا عن ثلاثة أصول لمخطوطات من القرنين الأول والثاني كانت معه في رحلته لباريس لتأكيد أصالتها بالكربون المشع، فنجت من

السطو، استأذنه علي في الحديث بالعربية الفصحى أو الإنجليزية حتى لا تجد زوجته صعوبة في متابعة الحديث باللهجة العراقية، فاختار ديار الفصحى وعقب مازحاً "أم أنك صدقت دعايات البعث التي تتهم الأكراد بكراهية اللغة العربية ورفض الحديث بها؟ ربما كان هذا رد فعل على حظر القومية الكردية واللسان الكردي زمن البعث، لكن الموضوع ليس عنصريا، كيف نرفض العربية ولغتنا الكردية تكتب بحروفها؟ لي صديق شاعر من الموصل يكتب الشعر بالعربية والكردية بنفس الطلاقة والبلاغة".

أجابه علي الذي استطاع أن يسيطر على مشاعره المضطربة بأن الكتابة الكردية تروقه كثيرا، يراها عملية لغياب التشكيل والاستعاضة عنه بحروف ومقاطع، ميزة كبيرة خاصة في زمن الآلة الكاتبة ثم الكيبورد، حيث تصبح الحركات العربية مرهقة جدا. علق ديار بقوله "مع ذلك تبقى لانسيابية الحروف المتصلة في الخط العربي قيمتها الجمالية، فقد أتاحت طيفا من الخطوط الفنية يصعب تطبيقها في الكردية لكثرة مقاطعها"

هكذا أثنى كل منهما على حضارة الآخر بغير عناء، فعندما يتحدث الناضجون من أبناء الحضارات المختلفة، يترك كل منهم مهمة الإطراء على حضارته للآخر، فضلا عن عدم نقد

الآخر بغير حرص ولباقة.

كانت هذه أول مرة يزور فيها علي فضلا عن ماري كردستان العراق، فأخذ ديار يشرح لهما نبذة من تاريخ آربيل الذي يعود لألفي عام قبل الميلاد، منذ كانت تحمل الاسم السومري القديم آربيلوم، وقبل أن تحور لأصلها الآرامي آربيلا، أما اسمها الكردي، هاولر، والذي يكتب بالكردية **هه ولير** فمعناه معبد الشمس، نظرا لدور الشمس الرائد في العقائد الزرادشتية ثم الإيزدية التي اعتنقها الأكراد لقرون طويلة قبل انتشار الإسلام في القرن التاسع الميلادي، ومازال بكردستان أقلية إيزدية حتى اليوم، فضلا عن أقلية آليفية، والطائفتان تمارسان شعائرهما وحياقما بحرية تامة في ظل الحكم المدني الحالي، سألته ماري "هل تصنف العقيدة الآليفية كفرقة من العلوية أم كعقيدة منفصلة؟"

"الآليفية في تقديري نتجت من تزاوج الفكر الديني العلوي مع الفكر الديني الإيزدي، فمن الإيزدية أخذت الترعة الإنسانية واحترام الآخر والتطهر السلوكي وتقديس العمل كأعلى مراتب العبادة، ومن العلوية أخذت شخص الإمام علي كنموذج للسلوك القويم، وبعض روحانيات الفكر الصوفي من محيي الدين بن عربي تحديدا، لكنها لا علاقة لها بالعبادات

الإسلامية من قريب أو بعيد،فمن الصعب أن نعدها فرقة مسلمة على حالها اليوم، أما العلوية فتنويع من الشيعة الإسماعيلية في رأيي، نتج عن الطبيعة الجغرافية في سوريا والعراق، وعن امتزاج الفكر الديني الإسماعيلي بالفكر الديني النسطوري المسيحي أولا، ثم الفكر المسيحي الغربي خلال الحروب الصليبية" هكذا أجابها ديار.

"وأنت يا علي ما رأيك؟" سألت ماري وهي تتجه إليه بنظرها لتكتشف شروده، ولتلاحظ عودة السحابة القاتمة لمحياه ثانية، بدا غير متابع للحديث فاعتذر عن ذلك قائلا "عذرا، كنت أفكر في واقعة الاستيلاء على الوثائق، وعن دور الحكومة المؤقتة فيها فلم أتابعكما"

"دور المنفذ فقط، هناك قوتان يفيدهما اختفاء الوثائق، الليبراليون الجدد في أمريكا أولا والمحافظون الإيرانيون ثانيا، الليبراليون الجدد يريدون المقاومة العراقية مشغولة ومشلولة بالصراع الطائفي، والموارد العراقية مرتهنة في حرب الارهاب، أما الإيرانيون فيهمهم ثبات المذهب الإثني عشري بالشكل الذي كرسوه، فهو آليتهم للهيمنة وكبت التيارات الإصلاحية في إيران، كذلك يهمهم بقاء الوضع مهلهلا في جنوب العراق، حيث يلوون ذراع أمريكا من خلال قوتها المرتهنة هناك حتى

يفلتوا بمشروعهم النووي". هكذا أجاب ديار فعلقت ماري قائلة "هل تعتقد بحق أن هناك تراث ديني يمكنه أن يوقف حربا طائفية؟ حتى يعتقد الأمريكيون بخطورة المخطوطات على وجودهم في العراق ونفوذهم النفطي؟"

أجاب ديار بطريقة بدت غريبة على عفويته وأريحيته "لننتظر حتى يحدثكم كاظمي، فهو أقدر على شرح فكرته". لم تلح ماري ولم يجد علي في نفسه ما يكفي من الفضول للحديث بحماس في أي موضوع فاكتفيا بتعليق ديار المرجيء للحوار. استغرقت المسافة بين آربيل وبغداد قرابة الأربع ساعات بسيارة الجر الرباعي، كانت خطة سفرهم لبغداد بالطائرة قد ألغيت بسبب تعطل الطيران بين آربيل وبغداد لظروف أمنية، فكان خيارهم أن يقصدوا بغداد رأسا عن طريق البر توفيرا للوقت بدلا من قضاء الليلة في آربيل انتظارا لمواصلة الطيران غدا.

في الطريق استمر الحوار، فأدلى علي برأيه في نظرية ديار في القوى التي تفيد من اختفاء المخطوطات، فوافقه على احتمال الأمريكان كأصحاب مصلحة مباشرة، لكنه استبعد إيران لأن المخطوطات لو ضرتها مذهبيا تفيدها سياسيا، فتصاعد المقاومة العراقية وانخفاض موجة الإرهاب الطائفي يفيدها بزيادة الورطة الأمريكية في العراق، والتي تجعل حصول الإدارة الأمريكية على

موافقة الكونجرس على عمل عسكري ضد إيران شبه مستحيل، وأضاف للقائمة بدلا منها القوى الوهابية، فلو كانت هذه المخطوطات أصلية فستكون بمثابة الضربة القاصمة للفكر الوهابي. علق ديار بقوله "وأي ضربة يا صديقي، محتوى الوثائق يبرز مبدأ حرية العقيدة ومسئولية الفرد المسلم الكاملة عن أعماله، ويقنن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار بعيد جدا عما صاغته الوهابية، ويبرز فوق كل هذا دور التكافل والتضامن الإجتماعي كركيزة لبناء مجتمع مسلم"

"ضع نفسك مكانهم إذا، لقد أنفقت المليارات لخلق نفوذ إقليمي للوهابية، وبالتالي خلق استعداد لدى شعوب المنطقة للتبعية للإمبريالية العالمية من خلال تنميط الشعوب بنمط استهلاكي لهم بلا مباديء، نمط حياتي يخدم تماما مصالح الليبراليين الجدد". اعترضت ماري على طرح زوجها قائلة "ليس للقوى الوهابية القدرة التنظيمية واللوجيستية لعمل كهذا الذي سمعنا تفصيله لتونا من ديار، إنه أكبر منها فيما يبدو لي"

" لم أقصد أنهم نفذوا الجزء السابق من المؤامرة، لكنني أنتظر لهم دورا في مرحلة قادمة، تنظير ديني يكذب محتوى المخطوطات، دعم مالي لحملة علاقات عامة ودعاية عالمية لبث الشكوك حول المخطوطات والمشاركين في الكشف، وقد

يحتاج الأمر في النهاية لفتوى تهدر دمنا جميعا، وتنفذ بيد شاب متطرف لا يعي من كل هذا حرفا، كل هذه أمور لن يقوم بها الليبراليون الجدد بأنفسهم، ولكن بشوكة الوهابية السعودية"

"أعتقد أنك ضخمت الأمر كثيرا"

"من يمكنه تجنيد موظفة بحجم سيدة اليونسكو يمكنه الكثير، نحن نواجه جبل الجليد عند قاع المحيط هذه المرة يا سادة". هكذا رد علي قبل أن يمد يده فيحيط عنق ماري ويقرب رأسها من فمه ليهمس في أذنها قائلا "ومع ذلك لا تخافي يا حبيبتي، لولا يقيني أنك ستكونين بكل خير ما كنت معنا الآن". للمرة الثانية سألته عن سبب يقينه، فكر أن يحدثها عن شعوره القاهر حين دعاه كاظمي للعراق بضرورة اصطحابها معه، ثم عن حلمه الذي كان نذيرا وبشيرا معا، لكنه خشي إزعاجها أولا، وخشي كذلك نقدها لتفسير أحلامه كرسالة روحية، لم يجد جوابا يهرب به من الموقف كله، فنظر إليها وأحاطها بنظرة حنون ردد معها مقطعا من أغنية لفيروز يقول "**سنرجع خبرني العندليب غداة التقينا على منحنى، بأن البلابل لما تزل هناك تعيش بأشعارنا، ومازال بين تلال الحنين وناس الحنين مكان لنا**"

كانت ثلاث ساعات قد انقضت منذ غادروا مطار آربيل

حين سأل علي صديقه ديار "هل لسيدة اليونسكو علاقة بالعالم الجديد في تقديرك؟". ابتسم ديار بسمة لها عمقها، وقال بطريقته حين يسأل في موضوع شائك، فيدلي برأيه ملقيا الضوء على حقائق مجردة بغير تصريح "أمريكية متزوجة من رجل أعمال فرنسي كبير، لهما علاقات متشابكة في الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة وغيرها، ومن مشجعي صقور الليبرالية الجديدة في البيت الأبيض"

"هي نقطة ارتكازهم في اليونسكو إذن"

"ربما". هنا تدخلت ماري بسؤال "عم تتحدثون يا سادة؟ تبدون لي كرجال مخابرات فجأة؟"

"عن منظمة العالم الجديد يا سيدتي". هكذا علق ديار باسما وهو ينهب الطريق نهبا بسرعة مائة وعشرة كم/ساعة، فردت مستنكرة "هل تعتقدان حقا في هذه الأسطورة الحضرية؟"

"ليس بالشكل الذي تقرأينه في روايات الإثارة، فالمنظمة ليست الوريث العصري لفرسان الهيكل[269] ولا لجماعة الإليوميناتي[270]، ليست حتى منظمة عنقودية بالمعنى المفهوم،

---

[269] يدعي البعض أن تنظيما سريا يعمل على السيطرة على العالم ويسمى تنظيم العالم الجديد، ويرعاه فرسان الهيكل وسرهم الغامض في القرون الوسطى، نشرت بعض الأعمال حول الموضوع أهمها فارس الهيكل الأخير

[270] جماعة من علماء ورواد الفكر في أوروبا كانوا على اتصال في القرون الوسطى لتنسيق تمردهم على الهيمنة الكنسية للفاتيكان على الفكر والعلم.

بحيث تحكمها قواعد مكتوبة وهيراركي إداري، فتسمية منظمة مجرد تسمية مجازية لشبكة مصالح مشتركة على اتصال ببعضها البعض عالميا، وتنعقد بين أطرافها تحالفات مرحلية، تستمر طالما استمرت وحدة الأهداف وتنتهي بنهايتها، لكن خطوط الاتصال تبقى مفتوحة تحسبا للمستقبل". هكذا شرح ديار لتسأل ماري مستزيدة عن التفاصيل والحقائق التي تشير لوجود هذه الشبكة وكيف استنتجا أن لها علاقة باختفاء الوثائق، يشير ديار إلى علي ليجيب زوجته، فيبدأ علي شرحه بسؤالها "ما هي مأساة الرأسمالية في صورتها القحة؟ قبل أن تقتبس من اليسار الاشتراكي المعتدل كثيرا من مبادئه، كالضمانات الاجتماعية وغيرها؟ ما هي مشكلة الفكر الذي يزرعه الليبراليون الجدد في عالم اليوم؟" صمتت ماري تنتظر إجابته.

يشعل علي سيجارته، ثم يجيب على تساؤله بنفسه فيقول "مأساتهم أنهم يريدون توظيف الجماهير في عملية الإنتاج بتكلفة اقتصادية بهدف تعظيم الربحية وتحقيق الاقتصاد المتنامي، هذا معناه أن يظل دخل تلك الجماهير محدودا، لكنهم يريدون من نفس الجماهير أن تستهلك أكثر وأكثر من منتجاتهم لتنمية السوق، وهنا يظهر التعارض، فالحد من دخل الموظف والعالم والعامل يؤدي لتهافت قدرتهم الشرائية كعملاء، بينما تلح الدعاية الاستهلاكية على عقولهم صباح مساء ليستهلكوا المزيد ويشتروا المزيد من منتجات، ولرتق هذه الفجوة ظهرت

القروض الاستهلاكية في بلاد الاقتصاد المؤمرك، **لنصبح مدينين للمؤسسة الرأسمالية بالفرق بين أجورنا المحدودة وتكاليف استهلاكنا الغير محدود.** وبرغم هذا تبقى مشكلة، فالطبقة الوسطى المكونة من الفئات العاملة تصاب كل فترة ومع تصاعد الاستهلاك المجنون بالعجز، فتسقط أمام العربة الضخمة التي تجرها، ويؤدي هذا السقوط لعجزها عن سداد القروض فيؤثر هذا سلبا على المؤسسات البنكية الرأسمالية، وبالتالي على المؤسسات الإنتاجية التي تمولها تلك البنوك فيما يعرف بظاهرة الدومينو، وهكذا تتفاقم المشكلة ويحدث الركود التضخمي الذي مرت به الولايات المتحدة أكثر من مرة عبر تاريخها القصير"

"تحليل جذاب، لكن ما علاقة كل هذا بمنظمة العالم الحر؟"

"كيف تتوقعين أن يتقي اليمين المتطرف هذا الركود وتكرر حدوثه كل حين، أو على الأقل يقلل من احتماليته وحدته لو حدث؟"

"الحروب"

"الحروب من آلياتهم الهامة بالطبع، لكن بصورة أعم يتعين عليهم إما أن يحصلوا على الطاقة والمواد الخام ومدخلات الصناعة بتكلفة معقولة من خلال نفوذ قهري على بعض

عشوائيات العالم، ونحن على رأسها، أو فتح أسواق جبرية في هذه العشوائيات، أو الاثنين معا، ويحدث هذا من خلال احتلال، مناطق نفوذ، أو حكومات عميلة تنفذ ما يحتاجونه هم لا ما تحتاجه شعوبها، تعددت الأسباب والعولمة واحدة". هكذا علق قبل أن يسهب ذاكرا واقعة حدثت في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٢م، حين وقف رئيس جهاز مخابرات دولة خليجية صديقة للولايات المتحدة يخطب في حفل استقبال في أمريكا، ففوجيء به الجميع يقول "بعد فضيحة ووترجيت عام ١٩٧٦، كان الكونجرس يقيد حركة المخابرات المركزية الأمريكية بقيود لا تطاق، في تحريك الجواسيس حول العالم، في دفع النقود لعملائها، وفي كتابة التقارير السرية، كل شيء تقريبا، لهذا كونت الدول الحليفة للولايات المتحدة الأمريكية تحالفاً يجمع إمكانيات أجهزة مخابراتها، حتى تساعد المخابرات المركزية في الحرب ضد الشيوعية، فكونوا ما أسموه نادي السفاري، والذي شاركت فيه كل من فرنسا ومصر والسعودية والمغرب وإيران، وكان له دور رائع في الحرب الباردة وتحقق النصر الأمريكي فيها"[٢٧١]. كانت هذه الواقعة بداية طوفان من الكتابات التي تتبعت نادي السفاري وما سبقه أو تلاه من تحالفات مخابراتية بين قوى اليمين المتطرف حول العالم، فنادي السفاري لم يكن وليد لحظته، حدثت البداية الحقيقية من خلال صداقة ثنائي

---

[٢٧١] واقعة حقيقية (١٤١)

فيصل بن عبد العزيز عاهل السعودية **ومحمد رضا بهلوي** شاه إيران، وثالثهما **أنور السادات** رئيس جمهورية مصر العربية، حيث اتفق الثلاثة على تحالف بين المخابرات السعودية والمصرية والسافاك الإيراني لمواجهة المد اليساري في المنطقة، ويهدف التعاون لدعم الأنظمة الرأسمالية في الشرق الأوسط وعرقلة قيام أي أنظمة يسارية جديدة فيه، بل والعمل على إسقاط الأنظمة اليسارية القائمة بالفعل كلما أمكن، ثم انضم لهذا الحلف جهاز المخابرات العراقي بعد اتفاق صدام حسين مع كل من فيصل والسادات على ذلك، وحصولهما على موافقة الشاه[٢٧٢] برغم حساسية العلاقات الإيرانية العراقية، كان هذا في بدايات ١٩٧٤م، وحين قيد الكونجرس المخابرات الأمريكية كما نوه الأمير الخليجي، فكّر يميني فرنسي متطرف هو **آليساندر دو مونارك** في فكرة نادي السفاري، واقترح على الولايات المتحدة دعم الحلف المخابراتي لمواجهة اليسار، فتكون نادي السفاري باتفاق سري في أول سبتمبر عام ١٩٧٦م تحت رعاية المخابرات المركزية الأمريكية ودعمها الفني المباشر، وبدعم مادي جزئي من مجموعة أصحاب المصالح من ملوك المال في الولايات المتحدة والمعروفة بالمؤسسة الشرقية، يتممه دعم نفطي لا نهائي، وبعضوية كل من فرنسا ومصر والسعودية والمغرب وإيران، بهدف دعم المخابرات المركزية ضد القوى

---

[٢٧٢] (١٤٢)

اليسارية في الشرق الأوسط وأفريقيا، بينما ظلت علاقة المخابرات العراقية بهذا الحلف موسمية وغير ثابتة، ثم أعد للنادي اليميني مركزا للاتصالات بباريس، ضم قاعة اجتماعات سرية ومركز اتصال دولي أسفل مطعم فاخر من مطاعم الدرجة الأولى، حتى يكون المطعم ستارا لدخول وخروج الشخصيات الهامة[٢٧٣]. هنا سألته ماري وموقفها يتحول من الاستخفاف بالفكرة إلى الإهتمام بها "هل قاموا بعمليات مؤثرة بالفعل؟" فأجابها قائلاً "الأمثلة كثيرة، قمع تمرد إقليم كاتانجا في زائير ضد نظام موبوتو سيسيسكو، حيث أرسلت قوات مشاة مصرية ومغربية محمولة بسلاح الجو الفرنسي مع عدم التصريح بهوية القوات، إذ تم تسريب خبر مضلل للميديا يدعي أنها قوات فرنسية بلجيكية[٢٧٤]، كذلك تم تخطيط وتمويل حملة تشويه الزعيم جمال عبد الناصر على مستوى مصر والعالم العربي بتوظيف إمكانيات صحفية وإعلامية وفنية ضخمة[٢٧٥]".

لم تكن ماري قد استوعبت ما سبق حتى فاجأها علي قائلاً "لكن العملين الكبيرين كانا معاهدة كامب ديفيد والحرب الأفغانية". استأنف شارحا كيف تم الترتيب لكامب ديفيد من خلال النادي السري، ففي أكتوبر عام ١٩٧٧م، توجه

---

[٢٧٣] (١٤١)
[٢٧٤] (١٤٣)
[٢٧٥] (١٥٦)

السادات لزيارة شاه إيران ليحدثه في الأمر، وتوقعا أن أمريكا ستحب الظهور كراعية وحيدة للسلام، وكانا على حق في تصورهم هذا، لهذا اقتصرت الترتيبات على مصر وإيران والمغرب، واستبعد الفرنسيون من مناقشة الأمر، ثم بدأ التنسيق مع الطرف الإسرائيلي من خلال اتصالات الشاه بمناحم بيجن مباشرة، واتفقا على تصوير الأمر بصورة مبادرة برلمانية حتى يمكن تسويقه جيدا في الغرب، فيشير السادات في خطاب أمام مجلس الشعب لاستعداده لمناقشة السلام مع الكنيست الاسرائيلي نفسه، ويلتقط بيجن طرف الخيط من هنا، فيوجه دعوة للسادات لزيارة الكنيست، وقد كان، أعلن السادات ما طلب منه يوم ٩ نوفمبر، ووصله خطاب الدعوة لزيارة اسرائيل يوم ١٥ نوفمبر، واقترح فيه بيجن يوم ١٩ نوفمبر كتاريخ للزيارة، فرد السادات عليه في اليوم التالي بقبول الدعوة، وحدثت الزيارة المعروفة[٢٧٦]"

"لم يبد الأمر لي كذلك أبداً". هكذا علقت فأجابها "ولا بدا كذلك لأي أحد قبل تسرب حقائق السفاري من المخابرات المركزية الأمريكية ذاتها". ثم استأنف موضحا العملية الكبرى

---

[٢٧٦] (١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٧)

الثانية والتي تمت بعيدا عن كل هذا، هناك في وسط آسيا وفوق جبال أفغانستان الوعرة، وهذا الجزء من مغامرات السفاري هو ما اشتهر إلى حد بعيد بعد ١١ سبتمبر، فبتمويل سعودي وطاقات بشرية مصرية سعودية، وتسليح وتدريب أمريكي، ودعم لوجيستي باكستاني، خلقت ظاهرة العرب الأفغان بهدف حصار واستتراف السوفيت في أفغانستان، ومازال المصريون في الثلاثينات والأربعينات من العمر يذكرون اللافتات الكبيرة التي علقت بمباركة حكومية في شوارع القاهرة وعواصم الأقاليم داعية الشباب للسفر والجهاد في أفغانستان، وطرحت في الدول العربية عشرات الآلاف من الكتب والأشرطة زهيدة الثمن أو المجانية تحمل عنوانا موحيا هو **آيات الرحمن في جهاد الأفغان**، ووزعت المدارس والجامعات السعودية نسخا منها على الطلاب، قبل أن يتبين للجميع أنها كانت **آيات الرحمن في جهاد الأمريكان**، فوصم كفاح الشعب الأفغاني لتحرير بلده بالغرض، وجر البلد النامي محدود الموارد لمستنقع الإرهاب[٢٧٧] جرا فلم يخرج منه حتى اليوم، ثم انقلب السحر على الساحر، فحين انتهت الحرب الباردة، نسي الأمريكيون في نشوة النصر هؤلاء المساكين الذين تركوهم في جبال أفغانستان، رفضتهم

---

[٢٧٧] (١٤٧-١٤٨-١٤٩)

بلادهم التي شحنتهم لآتون الموت هناك، فاعتقلت بعضهم ورفضت دخول البعض الآخر، لهذا تحول كل منهم إلى عبوة ناسفة تتحرق شوقا لهدم وتدمير أمريكا والعالم المتحضر بأسره.
"أي مسرحيات أخرى قام بها فريق السفاري؟" هكذا سألت ماري وعلامات الدهشة تعلو وجهها من كل ما تسمعه، فأجابها قائلا "القائمة طويلة، محاولة انقلاب فاشلة على الرئيس أحمد سيكوتوري محرر غينيا، لأنه أمم الإقطاع الغيني وانتهج نهجا يساريا، ودعم نظام الديكتاتور اليميني سياد بري في الصومال في حركته المعروفة باسم الصومال الكبرى، والتي أراد بها توحيد الصومال وجيبوتي وأوجادون، فساعده السفاري في حرب أوجادون ضد أثيوبيا عام ١٩٧٧م، مما دعا لتدخل الاتحاد السوفيتي داعما أثيوبيا حتى لا ينجح نادي السفاري مع سياد بري في السيطرة على القرن الأفريقي، وكان سياد بري قبل الحرب قد عقد اتفاقا مع الولايات المتحدة طرد بعده الخبراء السوفيت كما فعل السادات في مصر ومزق معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي، وعلى كل حال فقد لقي عقابه المناسب حين نفاه الجنرال فارح عيديد، تماما كما حدث للشاه في إيران"[٢٧٨]

---

[٢٧٨] جميع الحقائق حول نادي السفاري موثقة وفقا لوثائق المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات

"لكن في عالم اليوم ما دور هذا النادي؟". سألت فأجابها ديار قائلا "النادي كبروتوكول تعاون مخابراتي بين هذه الدول لم يعد قائما، لكن شبكة مراكز الثقل الاقتصادي والسياسي التي خلقته مازالت تحتفظ بدرجة كبيرة من التنسيق فيما بينها، والمهتمون بلعبة الأمم يسمون تلك الشبكة اصطلاحا بمنظمة العالم الجديد، منظمة غير رسمية لكنها قوية بلا نهاية ومنتشرة بلا حدود، تقودها الشركات العملاقة متعددة الجنسيات، تلك التي وضعت الليبراليون الجدد وبوش الأب ثم الابن في البيت الأبيض، وإلى هذه الشبكة اليمينية المتطرفة تنتمي رؤوس الأموال النفطية المستثمرة في تلك الشركات بمئات المليارات، كما تنتمي إليها العديد من عروش الخليج العربي اليوم، وكذلك ترتبط بها كل الحكومات الدائرة في فلك الولايات المتحدة، وأشهر إنجازات المنظمة المعاصرة هي حرب الخليج الثانية بعد وصول بوش الأب للبيت الأبيض، حيث استدرجوا صدام حسين لمصيدته في الكويت، لتتدخل القوات الأمريكية لحماية عروش النفط ظاهريا فتحتل الخليج كله فعليا، ثم كان الإنجاز الأخير خلال رئاسة بوش الابن، حيث اُختلق التصعيد اللازم لاحتلال العراق في ٢٠٠٣، فلا كان للعراق علاقة بما

الفرنسية ووثائق السافاك الإيراني (١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥٨)

حدث في ١١ سبتمبر، ولا كان لديه بالطبع أسلحة دمار شامل كما أيقن العالم اليوم. لكن لديه ببساطة أكبر احتياطي نفطي مؤكد في الكرة الأرضية، ولو كان البعث فقط أكثر مرونة وأقل وحشية في التعامل مع شعبه لما كانت العراق لقمة سائغة لهم أبدا"

أجابته ماري قائلة "لقد سقط نظام صدام حسين بالفعل يوم اقترف كارثة حلبجة يا عزيزي، فنظام يقتل شعبه بالسلاح الكيماوي هو نظام ساقط ينتظر هبة ريح لتتم إزاحته، لكن اعذراني لو قلت أن عقلي لا يهضم ما تتحدثان عنه، مازلت أرى أن العلاقات الاقتصادية والسياسية في الألفية الثالثة أصبحت أكثر تعقيدا من إيجازها في نظرية للمؤامرة ومنظمة سرية"

"ليست مؤامرة، إنما هي أشبه بمفهوم شبكة أصحاب المصلحة (stakeholders) التي تؤثر في قرارات أي شركة وتوجه الأحداث بها، فالفارق حجمي فقط، ففي حالة منظمة العالم الجديد نتحدث عن شبكة تدير العالم المعمور ذاته"

"وهل أنت متأكد في ظل كل هذا أن علي ألا أقلق؟" علقت ماري ضاحكة فقال ديار مطمئنا في لهجة مازحة "تقديري أن طيور الظلام لديها في العراق اليوم فرائسا سمينة

تلهيها عن ثلة أكاديميين يبحثون في رقوق غزلان وثيران يا سيدتي".

رد علي مبتسما وهو شارد الذهن إلا قليلا "هذا يعتمد على نوع الطيور يا صديقي، وعلى درجة شبقها للدماء".

(٢٩)

الأعظمية

وصل الرفاق إلى بغداد قبل الغروب مباشرة، فاتجهوا إلى حي الأعظمية حيث منزل كاظمي الذي أصر على استضافتهم، كان بيته على ضفاف دجلة مكونا من طابقين يحيطه حزام أخضر زرعت فيه زهور يانعة، واختار له كاظمي اسم كرمة النعمان المنقوش على لوح حجري بجوار الباب، حين سأله علي في أول مرة زاره فيها عن اختيار لقب الإمام أبي حنيفة أول أئمة الفقه السني لبيته وهو الشيعي، أجابه كاظمي قائلاً "إمام عظيم، منطقي أن يسمى باسمه بيت في الأعظمية التي اشتهرت بضريحه ومسجده". كان علي يضع كاظمي تحت المرتبة الأسمى بين أصدقائه، ويطلق عليه لقب **رجل من زمن الحب**، فهو عالم فذ ومثقف مستنير، وهو فوق ذلك رجل وضع الله في صدره طاقة حب بلا نهاية، كان علي يذكره حين يسمع عن مشاحنات طائفية ببغداد، ويتصور كم يتألم رجل مثله لهذا العنف الأحمق، ويذكره واصفا التطرف والطائفية قائلا "**لكل داء دواء يستطب به، إلا الحماقة أعيت من يداويها**"، ومن حسن حظه أن منطقة الأعظمية عرفت الهدوء النسبي بعد واقعة جسر الأئمة، حين أنقذ ساكنوها من السنة عددا كبيرا من

الحجاج الشيعة الذين انهار بهم الجسر، فسقطوا في نهر دجلة، يومها ظهرت الشخصية العراقية الحقيقية ممثلة في تدافع قاطني الحي السني لنجدة الغرقى القادمين من حي الكاظمية الشيعي، ولهذا ندر العنف الطائفي فيها بعد هذا الحادث.

أما علي فيرتبط حي الأعظمية في مخيلته دائما بقصيدة نزار قباني في رثاء زوجته التي قتلت في حادث إرهابي ببيروت "**بلقيس يا عصفورتي الأحلى ويا أيقونتي الأغلى، ويا دمعا تناثر فوق خد المجدليه، أترى ظلمتك إذ نقلتك من ضفاف الأعظميه؟ بيروت تقتل كل يوم واحدا منا وتبحث كل يوم عن ضحية**" فهاهي الأعظمية الغناء الراقدة على ضفاف دجلة كغانية تتهيأ لحبيبها قد طالتها يد الحماقة بالخراب والموت، فصارت كبيروت السبعينات والثمانينات تبحث كل يوم عن ضحية، وكأن كأس الموت في بلاد العرب نخب نمرره بيننا.

استقر الجميع بعد الترحيب والأشواق في صالون البيت، فعرفهم كاظمي بفريد الذي كان حتى هذا الصباح مديرا لمشروع اليونسكو في العراق، فصار في المساء مقاتلا منفردا في كتيبة الحقيقة، صافحه علي بود وتبجيل يليقان بموقفه، وبعد استقرار الجمع قال علي موجها كلامه لكاظمي وابتسامة ودودة تعلو وجهه "أين شايك العراقي المهيل[٢٧٩] يا أبا موسى؟"

---

[٢٧٩] الشاي العراقي الذي يغلى فوق مرجل نار هادئة مع حبوب الهيل

فأجابه صديقه بلهجة عراقية "القوري على النار يا صديقي". التفت علي لزوجته مفسرا فقال "القوري هو إبريق الشاي باللهجة العراقية، والشاي العراقي المغلي يشرب في أكواب صغيرة تسمى الاستكان، فللعراقيين طقوس في شرب الشاي كطقوسكم الإنجليزية". ثم التفت لكاظمي فقال "شرح لنا ديار ما حدث للوثائق قبل أن نفهم موضوع الكشف ذاته تفصيلا، كيف حدث وأين وما هو محتوى الوثائق الذي أزعجهم لهذا الحد؟ حان حين الفهم يا صاحب المبادرة"

"كان فريد يخشى أنكم قد ترغبون عن العمل في مرمى الخطر الذي أظلنا بعد خطف الوثائق، لهذا شرح لكم ديار قبل خروجكم من آربيل". هكذا قال كاظمي، وكان الشاي قد وصل تحمله مدبرة المنزل التي بدت ريفية بجلبابها الأزرق الفضفاض وطرحتها السوداء التي تغطي نصف رأسها وعنقها، وزعت الاستكانات على الضيوف، فبدأ كاظمي يحكي بينما ضيوفه الذين أرهقهم السفر ينعمون بمذاق الشاي ورائحته المنعشة، بدأ بالقاء سؤال على الجمع قائلا "**ما هو الإمام؟**"

"ما أم من؟" هكذا علق علي، فابتسم كاظمي مجيبا "بل ما، ومن هنا تبدأ الحكاية، تذكر محاضرتك يا علي عن المهدي المنتظر وشيوع فكرة المخلص في مختلف العقائد، تلك التي ألقيتها في الرباط منذ سنوات، أنا أتفق معك في أن شيوع

الفكرة وتضارب الأخبار لدينا يلقي ظلالا على الموضوع برمته، لكنني شخصيا كنت في انتظار إمام مختلف عن هذا الشائع في آداب العالم، فالإمام في لغة القرآن جاء بالفعل بمعنى الفرد الذي يقود الناس ويهديهم، كقوله تعالى "**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**"[٢٨٠]، ولكنه جاء كذلك بمعنى الكتاب والعلم الذي يهدي للحق، كقوله تعالى "**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً**"[٢٨١] والذي تكرر ثانية وبذات لفظه في سورتين من القرآن، هود والأحقاف، فلماذا لا يكون الإمام المنتظر علما ينفع الناس ويعينهم على صلاح دنياهم؟ وليس بشرا يبعث فيهم.

"فكرة منطقية، لكن لماذا تميل لفرضية الإمام المكتوب وتغلبها على الإمام البشري المبعوث؟" هكذا سأله علي فأجاب "ماذا كتب الإمام علي في عزلته؟ ما الذي دعاه ليتفرغ فور وفاة الرسول فلا يضع ثوبه إلا لصلاة الجمعة؟ وما هو أساس الأخبار المتضاربة عن الجفر ومصحف فاطمة والصحيفة الجامعة، كل هذه الأخبار الشفوية لابد لها من أساس بنيت عليه وتفرعت منه، وقد يكون هذا الأساس نصوصا مكتوبة، كان الأئمة يقرأونها ويضيفون إليها مع إحاطتها بالسرية بسبب

---

[٢٨٠] البقرة:١٢٤

[٢٨١] هود:١٧ و الأحقاف:١٢

ظروفهم السياسية، فعرف هذا مع الوقت بلفظ **علوم آل البيت**، وخلق حوله العامة أساطيرا تحاول استنتاج كنهه وطبيعة محتواه، فخرجت أساطير الجفر ومصحف فاطمة وغيرها"

تبادل علي مع زوجته نظرات ذات معنى، متذكرين حوارهما على شاطيء أبي قير منذ أسابيع قليلة حول ذات الأمر، يشعر علي بأن المصادفات صارت كثيرة في الأيام الأخيرة ويتزايد لديه الشعور برسالة روحية توجه لعقله. تقطع ماري شرود أفكاره بسؤالها "ولماذا يكتم آل البيت عن الناس علما ينفعهم؟" ليجيبها كاظمي قائلا "لأن محتواه لم يكن موجها للصدر الأول من المسلمين، لم يكن فيه جديد عليهم غير ما عرفوه وفهموه من الرسول، فهو مدخل للفكر الديني لا يضيف للسلف ولكنه يضيف لنا اليوم، ذخيرة لتصحيح المسار لو جاز التعبير، خواطر في الفكر الديني كتبها السلف في صدر الإسلام، ولم تصلنا مشافهة تروى عبر العصور وتتعرض للتشوه من فم إلى فم، كما هو الحال في الأخبار التي كتبت بعد مئات السنين من موت أبطالها، وثيقة جامعة أعدت لتصلنا مخطوطة بلفظها، وبكامل معناها كما أراده كاتبها أو كاتبوها"

"ما هو محتوى المخطوطات؟ أين صورها؟" هكذا سأل علي وقد بلغ فضوله العلمي ذروته، فقد دق الكلام على أوتار

شغلته كثيرا هو الآخر، فأجابه صديقه العراقي "المحتوى يتكون من ثمانية وأربعين رقا، أقدمها ستة عشر رقا يرجع تاريخها للقرن الأول الهجري، جزء كبير منها يصعب تمييزه لكتابته بالحجازي القديم وتآكل أجزاء منه، وهذه مهمة خبيرتنا"

"وبقية المخطوطات؟"

"اثنان وثلاثون مخطوطا من القرنين الثاني والثالث للهجرة، كتبت في تقديري بيد خمسة أشخاص، ولدي تصور عمن تنتمي إليهم الرقوق من الأئمة، لكن ثقتي بتصوري ليست كبيرة، وهذه مهمتك يا علي من الناحية البحثية"

"وهل لي مهام أخرى في نواحٍ غير بحثية؟" هكذا سأله علي، ليشرح له كاظمي غايته في استخدام الكشف لدعم جهود التقريب بين السنة والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية، حيث تفصل المخطوطات في كثير من الأمور الخلافية، وهذا يحتاج إلى مهارة خاصة في صياغة الطرح الذي ستتناوله الصحف والبرامج الاعلامية حتى يخرج بصورة مبسطة يسهل فهمها، وكذلك سيفيد نسب علي للأشراف في إضفاء بعد روحي على الكشف عند العامة. هنا عارضه علي قائلاً "وجود هذا التراث يعني أن كاتبيه قصدوا أن يتركوه مكتوبا حتى يتسنى لكل مسلم قراءته والإفادة منه، إمام مكتوب كما قلت أنت،

التركيز الإعلامي على وجود عضو في الفريق من الأشراف، سيجعل البعض يقول: لماذا لا يكون هو المهدي المنتظر مادام منتسبا للرسول؟ وعندها نعود لنقطة الصفر، ويضاف اسمي لقائمة المجانين ممن ادعوا أنهم المهدي عبر التاريخ"

"فكرت في هذا الاحتمال، ومع ذلك أرانا بحاجة للتأثير في البسطاء حتى نحقق نتيجة لشعب العراق، والتأثير في هؤلاء يختلف عن التأثير في الخاصة كثيرا يا صاحبي". شعور خفي لدى علي يخبره أن صاحبه لا يفصح عن الدور الحقيقي الذي يريده منه، ولا عن خطته الحقيقية، فموضوع التقريب بين المذاهب ودوره الفوري في تهدئة الوضع الطائفي في العراق كان دفعا شديد التسطيح من رجل حكيم مثل كاظمي، لذلك علق علي قائلا "سنؤثر فيهم لو آمنا بما نقول بما فيه الكفاية، وإن كنت أرى أن ما يجري اليوم في العراق ليس مذهبيا إلا في ظاهره، لكنه مؤسس على تكتلات من أصحاب المصالح، فالشيعة والسنة وغيرهما لا يتناحرون على فرق بين المذاهب، ولكن على مكاسب ترجوها كل طائفة، وخلف كل طائفة من خلفها من قوى عالمية وإقليمية، عموما كل هذا سابق لأوانه، هل صور المخطوطات موجودة هنا؟"

"بعد العشاء تأخذ أنت وماري نسختكما، مصورة على

جهاز تصوير الخرائط بالحجم الطبيعي للمخطوطات"

"علينا أن نسرع يا سادة، فغدا سيحدد موعد المؤتمر الصحفي لإعلان الكشف الجديد بعد موافقة الحكومة على تأمين المؤتمر، وأنا أتوقعه خلال أيام". هكذا قال فريد فعلق علي في دهشة "أيام". قاطع كاظمي صديقه فريد الذي هم بالرد قائلا "أعدت لكما أم موسى جناحا فيه غرفة مكتب وحاسب آلي ووصلة إنترنت فضلا عن غرفة النوم في الدور الثاني، لتكونا على أتم راحة في بحثكما، ولن نزعجكما في غير مواعيد الطعام"

"لكننا لا نتكلم عن ورقة عمل، بل مخطوطات يتعين علينا دراستها بروية وصياغة طرحها التاريخي". هكذا علقت ماري فرد عليها فريد قائلا "للأسف يا سيدتي علينا الإسراع لو أردنا لكشفنا رؤية النور، ولو أردنا نحن شخصيا الاستمرار في رؤية النور". مرة أخرى رأى علي في عبارة فريد تلميحا لخطر غير مبرر لو كانوا يتحدثون عن وثائق تاريخية، وتذكر عبارة كاظمي في مكالمته التليفونية الأولى عن الأمر الآخر والمرتبط بتيار الإسلام السياسي كما أشار، فبدأت شكوكه تتنامى، لكنه فضل أن يترك لصديقه الوقت المناسب للحظة الحقيقة والمكاشفة دون إلحاح أو تعجل.بعد العشاء تسلم علي وماري

من كاظمي الصور الضوئية للمخطوطات وقرصا مدمجا عليه نسخة إلكترونية من النصوص التي استطاعوا قراءتها حتى الآن مرتبا ترتيبا زمنيا تقريبيا، وحين سألاه عن مكان الكشف وكيفيته، أخبرهما أن بداية الخيط كانت انفجارا حدث في المئذنة الملوية في سامراء بمنتصف عام ٢٠٠٥م على يد ميليشيا موالية لتنظيم القاعدة، بعد أيام من الانفجار، وبينما كانت مجندة أمريكية تصعد المئذنة في مهمة إدارية فوجئت بلفافة جلدية داخل كيس من الكتان البالي، فسلمتها لرؤسائها، ويبدو أنها ثرثرت بالأمر مع بعض زملائها، فشاع الخبر حتى وصل للدكتور فريد، والذي تقدم بحكم موقعه بطلب للحصول على اللفافة التي وجدت لدراستها، فوجد بداخلها نصا بالخط الكوفي الحديث نسبيا، جاء فيه[٢٨٢] **"هذا تمام وصية القطب العلوي الحسيني، وعترة النبي الأمي، حين وافته المنية في السجن المروزي العباسي، والتي عهد بها لجدنا المغفور له رافع بن زيد القرشي، وقد وضعنا كتابنا في موضعه هذا، حتى تخرج المكنونات الجعفرية، من أصلح عقود المنارة الجعفرية، حين يفيض الكيل بالطغيان، وتوسم الأمة بميسم**

---

[٢٨٢] ما سيرد من نصوص نقلا عن المخطوطات هو من خيال المؤلف ولا ينسب لغيره، عدا الاستعانة ببعض المأثورات في بناء العبارات

الهوان، فتتصدع مآذن الإيمان، **فيكون خروجها بمشيئة الله رحمة، لأن فيها منهج الأئمة، وبمثلها تتصلح أحوال الأمة، ولولا انقطاع الولد واقتراب الأجل، ما حفظناها في غير القلوب، ولا زدنا عنها بغير الصدور والنحور، فهي خبيئة الآباء، ووصية العترة الغراء"**. هكذا ردد كاظمي ذو الذاكرة الفولاذية نص الوثيقة من ذاكرته، فعلق علي مستبينا فقال "المنارة الجعفرية هي المئذنة الملوية ذاتها؟ نسبة إلى الخليفة **المتوكل على الله جعفر** الذي بناها؟"

"نعم، وظاهر من نص الرسالة التي أتتنا من الماضي، أن أحد الأئمة أراد أن يحفظ ما لديه من علوم وهو سجين في مرو، فأسر بموضعها في بيته لواحد من خاصة أتباعه ليأخذها أمانة عنده، وقال ما فهم منه التابع أن الله سوف يظهرها حين تضج الأرض بالمظالم وتضعف الأمة، لتعين المسلمين على إصلاح أمرهم ورأب ذات بينهم، ويفهم من الرسالة أن صاحبه قد التزم بالوصية، وأورث السر المكنون أولاده، حتى وصلت ليد أحد أحفاده، هو كاتب الرسالة، ونفهم من كلامه أنه لم ينجب، ولهذا اختار أن يخفظها في مئذنة مسجد المتوكل حين عدم من يوكلها إليه"

"وبهذا لا تظهر إلا إذا فسدت الدنيا فسادا يصل لدرجة

تهدم منارات المساجد، وهو ما حدث بالفعل؟". هكذا علقت ماري فأومأ كاظمي موافقا، ثم أردف قائلاً "يغلب على ظني بدرجة كبيرة أن صاحب الوديعة هو الإمام علي الرضا، لأنه الإمام الذي نعرف تاريخيا أن المأمون حدد إقامته في مرو، وإن لم يسجن سجنا فعليا كما تقول الرسالة، إلا لو كان كاتبها قصد السجن كناية عن تحديد الإقامة، وما يدعم ظني هذا هو موت الإمام الرضا وعمر ولده محمد الجواد سبع سنين، لهذا لم يتمكن من توريثها له، والأهم من هذا وذاك أن الرقوق تتحدث عن خلاف بين كاتبها وبين خليفة من الخلفاء بتفاصيل تشبه إلى حد كبير ما نعرفه عن خلافه مع المأمون". سأله علي وقد خطر له خاطر "كيف حددتم مكان الخبيئة في المئذنة؟"

"وصفت المخطوطة مكان الخبيئة بأنه أصلح عقود المئذنة، ولتلك المئذنة ستة عقود تزين قمتها وتشكل دائرة كاملة الاستدارة، فحصناها للاستدلال على مكان الخبيئة، وافترضنا أن تكون في أكثرها استواء واتساقا، ووجدنا أحدها مستوي الملاط تماما لا عيب فيه، فحفرنا جداره، لكننا فشلنا في التخمين الأول، ثم حفرنا في آخر كان ثاني العقود استواء وتماثلا فكان هو عين المرام ووجدناها"

"هل كان العقد المواجه للجهة الجنوبية الغربية؟" هكذا علق

علي مبتسما وهو يراقب رد فعل كاظمي الذي رد بالإيجاب والدهشة تعلو وجهه، وهم أن يسأله كيف حدد هذا، لكن عليا عاجله مجيبا "أصلح العقود ليس أكثرها استواء واعتدالا يا عباسي المنطق والاستنتاج، لكنه العقد الذي يقتبل القبلة". هكذا قال علي مداعبا صديقه حول تخصصه في التاريخ العباسي الذي سادته أجواءه الأبهة والفخامة، وميز معماره الحرص على تماثل الجانبين في واجهات المنشآت، فقال صديقه والدهشة لازالت تعلو وجهه "الأكثر صلاحا هو ما اقتبل القبلة"

"هكذا سيفكر رجل من أتباع الأئمة، علينا أن نفكر بعقل من كتب الرسالة لا بعقل من يقرأها، ولكني أعتقد أنه قصد هذا الجناس اللفظي للخداع، فإذا وجد الرسالة عباسي ظن كما ظننت أنت"

"استنتاج عبقري"

"العبقري هو من بحث وكشف يا أبا موسى"

"إنما كشفه لنا أصحاب أبو مصعب الزرقاوي الذين حاولوا تفجير المئذنة يا صاحبي". هكذا قال كاظمي مداعبة وتواضعا، قبل أن يترك علي وزوجته في غرفة المكتب المخصصة لهما، وبينما اختارت ماري أن ترتاح لبضع ساعات حتى يصفو ذهنها قبل أن تبدأ في قراءة المخطوطات الحجازية، لم

يستطع علي صبرا، فاستأذنها أن يبدأ هو من فوره حتى يشعر برغبة في النوم، وبينما كان يتهيأ لسهرته بدش بارد، أخذ يفكر في كل ما مر به من أحداث اليوم، حتى وصل لقصة اكتشاف اللفائف، واسترجع جملة صديقه إذ قال "**إنما كشفه لنا أصحاب أبو مصعب الزرقاوي**" فتذكر على الفور قصة **برج بابل** في سفر التكوين، حيث أراد البابليون بناء برج يبلغ عنان السماء وتكون قمته في الفردوس، فجعله الرب وبالا عليهم، إذ تباينت لغاتهم ولم يستطيعوا إتمام بنائه لفقدهم لغة التواصل، قبل أن يرسل الله عليه ريحا فينهار، فكأن القصة تعيد ذاتها رمزيا، أراد الأمريكان استغلال ورقة التطرف الديني لتحقيق نصر رخيص على السوفيت في الحرب الباردة، فكان لهم ما أرادوا، لكن الحركات الجهادية المتطرفة التي صنعوها تحولت وبالا عليهم، ففقدوا تواصلهم مع صنيعتهم، والتي استدارت فصفعت كبرياءهم في سبتمبر، فكأن انهيار برجي مركز التجارة كان كانهيار برج بابل، إيذانا بانهيار الصرح الذي بنوه على التطرف والكراهية والدماء، واليوم يفجر أتباع الزرقاوي المئذنة الملوية شديدة الشبه في طرازها ببرج بابل، ليخرج من بين أركانها متصدعة علم لن يكون مؤيدا لهم بحال من الأحوال، فسبحان من يحبط الشر في أرضه بذراع الشر ذاته دون سواها.

(٣٠)

ملك وإمام

طالع علي المخطوطات الأحدث نسبيا، وهي ستة وعشرون مخطوطا كتبت بالخط الكوفي البسيط المعروف باللِّين، وستة مخطوطات كتبت بالخط المصحفي الميسر، وبيد شخصين كما يظهر من تباين الخطوط، بدأ بهذه المخطوطات الست، فتح جهاز الحاسب واضعا القرص المدمج في موضعه ليفيد من الجهد الذي بذله كاظمي وصحبه، مدققا القراءة في المخطوطات ومقارنا إياها بالنص الرقمي على الكمبيوتر، فلم يجد إلا نذرا يسيرا من التعديلات، وقد استقر في ذهنه وهو يدققها أن النصوص في الغالب لمؤلف واحد، لتوحد الأسلوب فيها وإن خطت بيد اثنين، ومن الجائز أن صاحبها أملاها على كاتبين أو كتب بعضها بنفسه وأملى بعضا، وهي تتناول موضوع المأمون والإمام الرضا لا شك في هذا كما قدر صديقه، لكن من كتبها يتحدث عن الإمام بضمير الغائب، وهو أسلوب يجوز معه أن يكون الإمام هو كاتبها متحدثا عن نفسه بضمير الغائب على العادة البلاغية المتعارف عليها في زمانه، لكن يجوز كذلك أن يكون أحد أتباعه ممن اضطلع على الخلاف وألم بجوانبه.

وعلاقة الإمام والخليفة أمر اختلف فيه المؤرخون، فمنهم من قال أن المأمون رأى البيت العلوي أحق بالخلافة من البيت العباسي، فأراد التنازل عن الخلافة لعلي الرضا فأبى، فأرغمه على قبول ولاية عهده، وينكر هؤلاء أنه حبسه أو اغتاله بالسم، بينما فريق مقابل يرى الأمر حيلة من المأمون لكسب ود العلويين والسيطرة على ثوراتهم لتثبيت ركائز ملكه، لم يلبث أن دس بعدها السم لعلي الرضا حين ثبت له الأمر، وكان علي أميل للرأي الثاني، لأن من يقتل أخاه ليجلس على عرش الخلافة كما فعل المأمون بأخيه الأمين، لا يترك هذا العرش لغيره طوعا، لكنه وجد في مخطوطات اليوم تفصيل الأمر في عبارات موجزة مفيدة غيرت، وجاء فيها "**قل لمن أكثر القول في شأن الإمام علي بن موسى مع الخليفة عبد الله بن هارون، أن الثاني كان مكدود النفس من قتله ابن أبيه طمعا في الحكم، فحان عليه حين كره فيه الدنيا لما أوقعته فيه من دم حرام، قطع فيه رحمه وآذى به روح أبيه، وأراد التقرب من الله تعالى، فعهد للطالبي بالولاية بعده، لكن آل العباس مازالوا به ينقلون إليه كل وشاية، ويرمون بين يديه بكل فرية وسعاية، حتى أوغروا صدره على الإمام الفقير إلى ربه، فحبسه في بيته، حتى ظن الأول أن الثاني قاتله وإن طال**

الأمد، فما يرتاح الوشاة إلا بهذا، لتطمئن قلوبهم بدوام الملك في عترتهم، والله في علاه على الجميع رقيب وحسيب"

إذن فالحقيقة لو صدق المخطوط بين الأمرين، لم يعرض المأمون الخلافة على الإمام الرضا، لكنه ولاه عهده ليحكم بعده، مخلصا في ذلك ومدفوعا بالندم على قتل الأمين، لكن هذا أقض مضاجع بني العباس الذين رأوا الملك يخرج من أيديهم للفرع العلوي من البيت، ولهذا دأبوا على الوقيعة بين الخليفة وولي عهده حتى أفسدوا الأمر بينهما، فانقلب الخليفة عليه وحدد إقامته في مرو بعيدا عن أتباعه وخاصته من العلويين، ولا يستبعد وفقا للنص أن يكون الخليفة أو واحد من بني العباس هو من دس له السم بعد تغير الحال، وهذا يسير مع إقامته الجبرية في منفاه، والمخطوط بهذا قد حسم قضية المأمون الخلافية مع الإمام علي بن موسى الرضا.

كذلك وجد في المخطوطات عبارة تقول "**وقد ميزت الأمة الخلفاء الأربعة الأوائل عمن تلاهم من خلفاء أموية وعباسية، فقد اختص الراشدون بطيب الطوية، وإخلاص العزم والنية، والحدب على خير الرعية، وباينهم الملوك من بني العباس وقبلهم بنو أمية، فكانوا لكبرياء الملوك أقرب منهم لزهد الخلفاء، وكانوا لأثرة الطامعين أقرب منهم لإيثار الأتقياء،**

عدا الرجلين الصالحين من بني أمية، معاوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز، فقد أعرضا رحمة الله عليهما عن صولة الملوك واعتصما بسمت الخلفاء، الأول بطرحه الخلافة عن كاهله، والثاني بالاضطلاع بها بحقها"، وعى علي ما احتوته الكلمة من احترام وتقدير للخلفاء الراشدين إجمالا، وهذا يثبت نظريته في استحداث التعدي باللفظ على الراشدين بين بعض طوائف الشيعة في عصر متأخر، فهذا نص كتب في عهد الإمام الرضا تقريبا، سواء كتبه الإمام أو أحد معاصريه، وفيه إقرار برشد الراشدين ومغايرهم في المنهج والنوايا للأمويين والعباسيين. بعد فراغه من الرقاق الستة المكتوبة احتمالا في زمن الإمام علي الرضا ثامن أئمة الإثني عشرية، بدأ في مطالعة ثلاثة رقاق، صنفها كاظمي زمنيا في ترتيب سابق لزمن الإمام الرضا مباشرة، إذ ضمت نسخة مما يعرف بالصحيفة السجادية، والمنسوبة لرابع الأئمة علي بن الحسين الملقب بالسجاد، وقد كتبت بالخط الكوفي الميسر، ولم يجد فيها جديدا يمكن أن تقدمه من الناحية التاريخية أو الفكر الديني، فهي تضم قرابة الستين دعاءً، وهي متداولة على نطاق واسع بين الشيعة والصوفية، لكنه لاحظ اختلافا بين بعض ألفاظها وبين ما يرد في النسخ المتداولة، مما يجعلها مرجعية مفيدة للتنقيح والضبط، لأن أقدم مخطوطات الصحيفة السجادية المتداولة

توجد في مكتبة مكة المكرمة وترجع للقرن الحادي عشر،بينما ترجع هذه المخطوطة لنهايات القرن الأول الهجري.

صنف الرفاق المخطوطات التسعة عشر التالية زمنيا في عهد الإمام جعفر الصادق، اعتمادا على زمن نسخها كما بينه الكربون المشع، وكانت مكتوبة بيد واحدة كما هو ظاهر من الخط، وقد نبهت هذه المخطوطات حواس علي لأقصى حد، فجعفر الصادق هو سادس الأئمة، وهو من جمع فقه آبائه وغيرهم فصاغ المذهب الجعفري في الفقه، الذي ينتمي إليه الشيعة الإثنى عشرية اليوم، ويعترف به الأزهر الشريف، وكان رحمه الله في ذاته عمادا من عمد التقريب بين المذاهب، فوالدته هي فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، حفيدة الصديق، وفي نسبها برهان مبين على استحداث العداء بين الصديق وبين آل البيت في زمن متأخر، فالتصاهر بين بيوت العرب وعشائرهم لم يكن ليتم على الضغائن وسوء الظن بين الأصهار، فضلا عما روي عن الإمام الصادق ويفيد براءته ممن يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر، أي أنه ألزم أتباعه بالاعتراف بخلافة الشيخين والإقرار بها، كل هذا حفز حواس علي لمخطوطات من زمنه،وقد وجد المخطوطات الستة الأول رسالة في الرد على الخوارج،سعد بها سعادة غامرة، فقد ورد في بعض

المصادر المتداولة بين المتخصصين أن للإمام الصادق رسالة في الرد على الخوارج، لكن لم يصل إلينا أي أثر منها، وقد تكون هذه المخطوطات هي الرسالة المفقودة، حين قرأها وجدها رسالة كاملة من الاستهلال للختام، فيها الكثير من الإضافات النافعة في التعرف على فكر الخوارج، فهم لم يحرصوا على تدوين مذهبهم، فكان ما وصلنا عنهم أكثر مما وصلنا منهم، وقد حرص كاتب المخطوطات الستة على عرض كل أطروحة من فكرهم وافية ثم تفنيدها بالعقل وبالنقل، وبأسلوب قريب من أسلوب الصادق وإن لم يكن مطابقا له، ومن أهم ما ورد في المخطوطة تعريف للخوارج، كان أوفى وأصوب ما قرأ، جاء فيه "**فاعلم حفظك الله أن الخارجي هو من شق عن صدور الناس فقال يؤمن هذا ويكفر ذاك، ومن استحل دم الخلق في غير قصاص، وعلامة الخوارج في فقههم تعميم الخاص في الحرمة، وتخصيص العام في الإباحة، خلافا لعموم فقهاء الأمة، ممن يرون الأصل في الأمور حلها مالم تحرم، يضيقون على الناس ما جعل الله فيه سعة، ويفهمون الكتاب والسنة على المنطوق دون المضمون، وهم لضعاف النهى في كل حين مآل ومثابة، فلا تجد فيهم عالما أو عاقلا مشهود له بالعلم والعقل إلا على غرض أو إلى حين**"، كانت يد علي تهتز من الانفعال

وهو يخط ملحوظاته حول هذا الجزء من المخطوطات، ويسبح الله في سره، فقد كان التعريف لصيقا بفهمه الذي أورده في كتابه حول الخوارج، والذي أثار زوبعة البرلمان، مما يشكل مرجعية جديدة لفكرته في أقران متطرفي اليوم من المكفرين والشاقين عن الصدور بخوارج الأمس.

قام علي فصنع لنفسه كوبا من الشاي الساخن، فلم يكن للنوم عليه من سبيل وهو بين رحاب هذه الكنوز من الفكر القويم، فأراد أن ينبه حواسه للحد الأقصى قبل المضي قدما مع وثائق الأئمة، وبعد تلك الرسالة في الترتيب الزمني يأتي رقان من جلد الغزال، فيهما تناول لبعض المسائل الفقهية، ضمنها مسائل الزواج والطلاق، وكانت مطابقة لمذهب الإمام الصادق المأثور عنه، والذي ذهب فيه لعدم وقوع البينونة الكبرى بطلاق الثلاث لفظا، بل عدها طلقة واحدة، وكذلك ما روي عنه من اشتراط حضور شاهدين عدلين لوقوع الطلاق، وهو ما أثبت مرور الزمن وواقع الحياة أنه أكثر مواءمة لمقتضى الحال وأحفظ للأسرة، هذا الخط الفكري الباحث عما ينفع الناس هو الخط العام في فقه الإمام الصادق، ولطالما أعجب علي بهذا المنهج، وحمد للشيخ الجليل **محمود شلتوت** شيخ الأزهر السابق رحمه الله الاعتراف بالمذهبين الجعفري والزيدي من مذاهب

الشيعة الإمامية والزيدية على الترتيب[٢٨٣]، وتدريسهما في الأزهر.

كانت سعادته كبيرة بثالث المخطوطات المنسوبة لزمن الصادق لأنها صححت مفهوما شائعا عن فكر الإمام، فقد حوت المخطوطة رسالة موجزة في القياس العقلي اجتهادا، وهي بهذا تؤكد قبول المذهب الجعفري للقياس العقلي على عكس ما شاع في التراث، وأشهر ما روي في ذلك منسوبا للإمام هو قوله لأبي حنيفة النعمان "لا قياس في دين الله"، فقد احتوى الرق الأول في مقدمته عبارة جاء فيها "**ومن أمثلة قياس سلفنا الصالح، ما قاس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أمر عقوبة شارب الخمر على عقوبة قذف المحصنات، بأن السكران إذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فعقوبته كعقوبة الفرية وهي ثمانون جلدة**"[٢٨٤]، وبهذا يثبت اعتراف الإمام الصادق ومذهبه بمنطق القياس المحوري في الفكر الديني الإسلامي، وتلك ثاني الثورات الفكرية التي تقدمها لنا تلك المخطوطات الفريدة.

ثم كانت رابع المخطوطات المنسوبة لزمن الصادق متصلة في ثمان رقاق، لاحظ فيها مع إمعان النظر اختلافا في رسم الحروف، مما يفيد باختلاف شخص من خطها، وكانت رسالة

---

[٢٨٣] حقيقة معاصرة

[٢٨٤] قياس شرب الخمر على الفرية منسوب بالفعل لعلي بن أبي طالب (١٤٤)

تجمع العديد مما ينسب للصادق من مأثورات، وأروع ما جاء فيها عبارات عن صفة المؤمن تقول "فاعلم أصلحك الله أن المؤمن يحب ويبغض، وهل الإيمان إلا حب في الله أو بغض فيه؟ وسمته التي يعرف بها سروره بحسنة يرجوها من الله، وحزنه لذنب ألم به، صومعته بيته، يكف فيه بصره ولسانه وفرجه، فإذا غادره لم يغتب و لم يكذب و لم يحسد و لم يصانع و لم يمالئ على جور، لا يسخط الله برضى واحد من خلقه، ولا يتباعد منه تعالى بتقرب إلى الناس، مركبه في الحياة حسن خلقه، لا يستبدل به غيره على شدة أو بلهنية، لا يستوحش في طريق الهدى لقلة أهله، فوالله لقد اجتمع الناس على مائدة شبعها يسير قصير، وجوعها شديد طويل". تنبه علي من سبحته مع درر الحكمة تلك على أذان الفجر، قام فتوضأ ثم صلى ركعتيّ الفجر، وتمدد فوق سجادة الصلاة يفكر ويرتاح من طول السهر، وقد ألمت به فكرة أهمته، فقد صدقت تخريجات كاظمي والرفاق في مجملها في تحديد زمن المخطوطات، لكن القول بأنها كتبت بيد الأئمة أنفسهم أو بإملائهم على غيرهم هو قول لم يختبر، فليس في واحد منها تأكيد لهذا أو نفي له، فعلى عادة هذا الزمان، كان الكاتب يستخدم صيغة الغائب وليس المتكلم حين يتحدث عما مر به، فلا يقول "قال فلان لي كذا وقلت له كذا" ولكنه يقول "قال فلان لعلي كذا فأجابه بكذا"، فيصعب

علينا أن نعرف هل يروي كاتب النص عن نفسه أو عن غيره، كذلك لم تكن النصوص تختم بخاتم كاتبها إلا ما كان مكاتبة رسمية، لهذا خلت كل المخطوطات من أختام أو إشارات مباشرة لشخص كاتبها، ولم يكن الافتقار للدليل القطعي مفاجأة له، فهذا حال دارس التاريخ دوما، لكن ما شغله هنا ليس الجانب الأكاديمي والتاريخي، إنما أهمه الهجوم المؤكد الذي سيتعرض له الكشف على مستوى الإعلام والجماهير، بنفي نسبه للأئمة أو خلصائهم ورجالهم المقربين، وأخذ يقلب الأمر على وجوهه جميعا حتى نام متوسدا ذراعه على السجادة، وعندما صحت ماري بعد الفجر بقليل وجدته على هذه الحال، أيقظته ليبادلها المواقع، فرقد في الفراش بغرفة النوم، وبدأت هي عملها مع النصوص الأقدم والأخطر، نصوص القرن الأول للهجرة.

الاثنين، الرابع و العشرون من سبتمبر

في العاشرة صباحا أيقظته ماري قائلة "أعرف أنك لم تأخذ قسطا كافيا من النوم، لكنني على يقين من أن ما لدي سيجعلك متيقظا لعدة أيام، لدينا ما يبدو وكأنه **صحيفة جامعة**"

"تقصدين .."

"نعم، لكني أحتاج لرأيك فيما استنتجت، سأطبع نسخة مما كتبته على الكمبيوتر حتى تنتهي من حمامك". طبعت قبلة على خده قبل أن تتجه في رشاقة فراشة تطير لغرفة المكتب فتطبع بضعة أوراق، ثم ظللت بعض الكلمات فيها لاشتباهها بأكثر من احتمال للكلمة، وحين انتهى علي من اغتساله ودخل عليها غرفة المكتب ناولته النص المطبوع، فأمسكه بتهيب شديد كمن يمسك بذراع طفل حديث الولادة، ثم شرع يتلو النص بتروٍ شديد "**الحمد لله الذي أنزل كتابه قرآنا عربيا، لا مطلسماً ولا باطنيا، فهدى به وبنهج المصطفى رسولا نبيا، وسنته مرآة القرآن لا تعدوه إلى غيره وليا، ثم أمر كل ذي نهية بالنظر والتدبر ما دام حيا، وجعل كل نفس بما كسبت رهينة، لها ما كسبت من صالح العمل وعليها ما اكتسبت من طالحه، فلا يضير المرء ضلال الناس لو وعى فرقان الحق وعمل به، ولا ينفعه صلاحهم لو جهله أو خالفه. وقد نظرت بعد أن استرد الله وديعته في أرضه، وقبض الصادق المصدوق، فرأيت الناس قد بدرت منهم البوادر، وعرضت لهم العوارض، ولكل بادرة وعارضة ما بعدها، فرأيت أن أضع في صحيفتي هذه بعض ما وعيت من هدي المصطفى، مما كان متصلا بهذه البوادر وتلك العوارض، لعل الله ينفع به**

من يأت بعدنا، فالقلب يحفظ ساعة، والقلم يحفظ إلى قيام الساعة، واللسان يُعلّم قرنا أو قرنين، أما الصحائف فتُعلّم ما بقي فيها مداد، وما قصدت لأن تكون هذه الصحيفة جامعة، فلا جامع مانع غير الذكر الحكيم، وليس في كتاب الله نقص فيتمم، ولا في سنة رسوله كسر فيجبر، لكني قصدتها جامعة لما فقهته أنا العبد الفقير إلى الله من كتاب الله وسنة نبيه، وفيهما عنها وعن غيرها الغناء كل الغناء لمن وعاهما فأتم وعيهما، وفقههما فأحسن فقههما، لكنها تذكرة لمن علم وتوطئة لمن فاته علم، والله من وراء القصد وبالله التوفيق، وقد نظرت في دنيانا فوجدتها دار أولها عناء وآخرها فناء، حلالها حساب وحرمتها عقاب، من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن، لكنها بعد ذلك مناط الاستخلاف والتكليف، فابن آدم مستخلف فيها للإعمار وبلوغ الازدهار، ومكلف بالعبادة والاستغفار، فيهون على المؤمن زخرفها، ويعظم عنده ما فيه صلاحها بالناس وللناس، فهوانها في ذاتها، وعظمتها من عظمة من خلق واستخلف فيها، وقد رأيت نفرا من الناس، ولم يطل العهد بهم بعد انقطاع وحي السماء عن الأرض، يسوقون قول الحق في طلب الباطل، فيضعون الكلم في غير مواضعه، ويتحاج الأضداد بكتاب الله

وسنة نبيه فيجد كل منهم لنفسه حجة، وما في كتاب الله أو سنة نبيه من تناقض، إنما هي ظلال أهوائهم على أفهامهم، فذاك ما أشربته النفوس من الأثرة، هيأت لكل فريق صواب رأيه، وزينت له فعله، فما كان في كتاب الله خروج لولي الدم على ولي الأمر كما فعل معاوية في الشام، ولا فيه قتل الآلاف برجل واحد كما قال من رفع قميص عثمان، لكن زينت لقوم نفوسهم ما يصنعون، فمن اتبع هوى نفسه لا تصلحه تلك الصحيفة ولا غيرها، لأن علته هواه وغرضه، لا يبرأ إلا أن يبرأ منهما، فهو رجل طلب الباطل فأصابه، ولا يستوي به رجل طلب الحق فأخطأه، وقد رأيت الناس يقرأون كتاب الله وسنة المصطفى بغير علم بالخاص الذي لا يعمم، والعام الذي لا يخصص، والمحدود الذي لا يطلق والمطلق الذي لا يحد، فمن خصص العام وحدد المطلق كان كنطاس ينقص مقدار الترياق، فلا هو حفظ الدواء ولا هو شفى به بإذن الله، ومن عمم الخاص وأطلق المحدود كان كمن كوى ظاهر الذراع كله لجرح في العضد، فأفسد الذراع ولم يزد في كي الجرح شيئا. ثم رأيت منهم من نظر للعرض وغفل عن المرض، ومن التهى بالوسائل عن الغايات، فقال بالتزام الوسائل وحسب في ذلك حسن الاتباع، وما

نظر في اجتهاد عمر بن الخطاب في ولايته حين أوقف تألف القلوب لانقضاء غايته؟ فحقق غاية العدل بتعطيل وسيلة السهم، وما كان هذا تبديلا لحكم الله، لكنه كان فقها للغايات والوسائل، ولو عاد الإسلام غريبا يخشى عليه، لعاد بذلك سهم المؤلفة قلوبهم حماية لبيضة الدين، ورأيت الناس يريدون لزوم مالا يلزم، يقولون كان من قبلنا يقولون كذا ويعملون كذا، فاعلم أن هذا منطق الكفر والضلال، إذ قال الكافرون (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)، فليس من ملزم للمسلم بعد صعود روح سيد الخلق إلى بارئها من القول والفعل إلا ما استحسن لنفسه ووافق زمانه، فقد رأى السلف رأيهم لزمانهم ومكانهم، فسبحان من له الدوام، وأوفق الرأي في كل حال ما وافق آيات الرحمن وسنة سيد الأنام، ثم راعى مقتضى الحال في الزمان والمكان"

عند هذا الحد توقف علي عن تلاوة النص المطبوع بين يديه وأخذ ينهب الأسطر بعينيه نهبا، كانت زوجته تجلس على مسند الفوتيه الذي جلس عليه، لتتابع بعينيها ما يقرأ وتستطلع انعكاسه على صفحة وجهه، فلطالما كان وجه علي مفيضا لعقله ونفسه، وحين انتهى من قراءة الصفحات الثمانية التي

طبعتها ماري نظر لزوجته قائلاً "مجهود رائع"

"والمضمون؟"

"عبقري، صحيفة في الفكر الديني تستحق أن تسمى جامعة، وأسلوبها قريب من أسلوب الإمام، إلا أنها أضعف بلاغة وأكثر إطنابا من أسلوبه الذي نعرفه، ليس هذا كلام الإمام علي بكل تأكيد، لكنني أحسبه لواحد من خلصائه تأثر بأسلوبه البلاغي الفذ، ونهل من معينه". هكذا أجابها فظهرت عليها ملامح خيبة الأمل، أردف قائلا "وحتى لو كانت مطابقة لأسلوب الإمام، كنا سنواجه ذات المشكلة التي كنت أفكر فيها حين غلبني النعاس، وهي كيفية إثبات نسب المخطوطات لمن نظنهم أصحابها، بناء على الحقبة الزمنية والأسلوب والإشارات الموجودة فيها، ولكن في غياب دليل قاطع"

"لكن هذا مقبول في النص التاريخي، فنحن لم نرفع بصمات **إيمحتب** من فوق بردياته قبل أن ننسبها إليه"

"ليس لإيمحتب صفة دينية، ولن يهتم أحد بنسبة البرديات إليه أو لغيره، موضوعنا مختلف تمام الاختلاف" هكذا أجاب قبل أن يقطع حوارهما طرقات على الباب، كانت أم موسى قد جاءت لهما بالريُوق (الإفطار باللهجة العراقية) مكونا من البيض المقلي مع شرائح الطماطم والجبن والقشدة، فضلا عن

عسل النحل، ولبن آربيل الفاخر، والتمر البصري عالمي الشهرة، يتوج كل هذا إبريق من الشاي المغلي توسط المائدة تتصاعد منه الأبخرة، شكرها الزوجان واعتذرا عما يسببان من ازعاج لأهل البيت، فعلقت على قولهما بالمثل العراقي الرقيق "ضيوف الله يا الاحباب". ثم انصرفت السيدة الأربعينية الوقورة وضيئة الوجه، فنظر علي لزوجته، وقد خطر له أمر، فقال "أظنني بحاجة للحديث مع كاظمي في عدة أمور في أقرب وقت".

عند الظهيرة، جلس علي مع كاظمي في ظل شجرة الليمون المورقة في الحديقة وأمامهما استكانات الشاي، طرح علي ما يدور بخاطره مباشرة وبغير مقدمات، كعادة صديقين رفعت الألفة الحواجز بينهما، فقال "لا أقصد التقليل من أهمية الكشف، لكنك تعلم أن الجزم بشخصية أصحاب المخطوطات مستحيل، فلا الرسالة التي دلت على المخطوطات ولا المخطوطات ذاتها تشير إلى انتسابها للأئمة، كذلك الرقاق التي تنتمي لقرن الأول الهجري، أسلوبها قد يكون لأحد أتباع الإمام علي ممن تأثروا به لغويا، لكنها لا ترقى لمستواه البلاغي الفذ بكل تأكيد". لدهشة علي كان صديقه مبتسما وهو يسمع هذا ويوميء برأسه موافقاً، فسأله علي "ليس هذا بكشف

يصفه عالم مثلك بالخطير، وثمة أمور أخرى، لماذا استغرقتم عامين منذ اكتشاف الرسالة وحتى يومنا هذا للإعلان عن كشفكم الأثري؟ وما الذي يجعله خطيرا لدرجة تدفع جهة ما للاستيلاء عليه؟ وتجعل فريد يتحدث عن خطر يحيط بحياتنا لو لم نعجل بالكشف عنه في مؤتمر جماهيري؟ في الأمر حلقة مفقودة يا صديقي"

"لك كل الحق في عجبك من كل هذا، ولو لم تفاتحني في الأمر لفاتحتك أنا فيه صباح غدٍ بأقصى تقدير، أمهلني لحظات". هكذا أجابه كاظمي قبل أن يقوم فيغيب داخل البيت برهة قصيرة عاد بعدها يحمل حاسبا محمولا وضعه بجواره على الأريكة، ثم قال "خبيئة الملوية كشفنا عنها أنا والرفاق منذ عامين كما قلت يا علي، ولم يكن هناك ما يدفعنا للعجلة في الكشف عنها علميا في ظل ظروفنا التي تراها هنا، ففضلنا أن ننتظر حتى يتحسن الوضع الأمني لنكشف عنها في محفل تاريخي نعقده هنا في العراق، ولكن حدث ما دفعنا للتعجيل بالكشف عنها دفعاً، لخدمة هدف لا يقل نبلا عن إعلان كشف تاريخي، بل يزيد، ولولا ثقتي من اهتمامك بهدفنا الكبير ما طلبت منك الحضور، لم تكن نيتي أن أخدعك قطعا، وأرجو أن تعذرني حين تعرف طبيعة الأمر، فليست مما يجوز الكلام فيها في هاتف

أو عبر الإنترنت"

بدأ يداعب مفاتيح الكمبيوتر المحمول الذي وضعه فوق ساقيه وهو يواصل حديثه لعلي قائلا "أخبرني ديار أنك سألته عن علاقة السيدة التي سهلت الاستيلاء على المخطوطات بتنظيم العالم الجديد، والحقيقة أنني تعجبت مما دفعك للتفكير في التنظيم وعلاقته بالاستيلاء على المخطوطات". أجابه علي بقوله "الحفاظ على الشرق الأوسط كبقعة ساخنة هدف دائم للتنظيم، إذ يضمن للشركات العملاقة نفوذا نفطيا لا يقدر بثمن في ظل تناقص الاحتياطي العالمي من البترول وزيادة أسعاره، وكذلك يسمح للقوى العظمى بتواجد مباشر في قلب العالم وسيطرة على طرق التجارة العالمية"

"جميل، أعرف من كتابك الذي كتبته بعد الحادي عشر من سبتمبر أنك ملم بأمر نادي السفاري، فماذا تعرف عن اللجنة الثلاثية Trilateral commission؟"

"هي فيما أذكر لجنة اقتصادية تكونت في السبعينات لتنسيق التعاون بين الولايات المتحدة وأوروبا واليابان، وهناك من يعتقد بانتسابها لمنظمة العالم الجديد السرية وإن كانت اللجنة ذاتها رسمية ومعلنة" هكذا أجابه فعلق كاظمي بقوله "لم يخطأ من ربطها بالعالم الجديد يا صديقي".

طرح كاظمي معلوماته عن المجموعة الثلاثية التي تأسست عام ١٩٧٦ باقتراح من الملياردير اليميني روكفلر، وكان الرئيس الأمريكي جيمي كارتر من أشهر أعضائها، وكذلك كان بوش الأب وبوش الابن، أما ريجان الذي لم ينتمي إليها رسميا، فقد اختار من بين أعضائها أربعة وزراء في إدارته، ولم تخل إدارة أمريكية من وقتها للآن من أعضاء ترايلاتيراليين، وظهرت كتب كثيرة عن طبيعة النشاط الحقيقي لتلك اللجنة المكونة من رجال السياسة والاقتصاد والتعليم فضلا عن رجال الكهنوت من ثلاثة قارات، وعن دورها في خدمة اليمين المتطرف عالميا[٢٨٥]، سكت كاظمي قليلا ليرتب أفكاره ثم قال بصوت أقرب للهمس "في عام ٢٠٠٤ تعرفت على خبير اتصالات أمريكي يعمل في أحد شركات الاتصالات العملاقة التي تتولى العمل في مشروعات إعادة إعمار العراق، كان في نهايات العقد السادس من العمر، من أصل آيرلندي، كان عطوفا وخلوقا بطبيعته، ولهذا تحديدا كان تأثره بما رآه هنا من القتل والتخريب والتشريد كبيرا، فأن تسمع بهذه الأمور في نشرة أخبار يختلف تماما عن العيش فيها ليل نهار، المهم أن علاقتنا توطدت مع الوقت لأنه كان هاويا لدراسة التاريخ،

---

[٢٨٥] المعلومات الواردة حول اللجنة الثلاثية حقيقية (١٥٩-١٦٠)

قبل أن ينتحر بإطلاق الرصاص على رأسه من مسدسه، لكنه قبل وفاته قام بعمل كبير". سكت لحظة وكأنما آلمته ذكرى انتحار صديقه هذا، ثم استأنف يقول "قبل انتحاره، وفي ليلة باردة من يناير هذا العام، وجدته يطرق بابي على غير موعد، فرحبت به وجلسنا هنا تحت مظلة الحديقة بناء على طلبه، و لم يلبث أن صرح لي عن علاقته بالمخابرات المركزية الأمريكية كخبير فني في الاتصالات، وأن علاقته بهم بدأت منذ شبابه الباكر لتمتد لأكثر من ثلاثين عاما، شهد خلالها الكثير وعرف الكثير عن عالمنا، فكان يرضى عن بعض ما عرف ولا يرضى عن بعضه الآخر، لكنه لم يشعر بوخز الضمير الحقيقي إلا عندما انتدب لمهمته الطويلة هنا في العراق، فرأى ما كان يسمعه في نشرات الأخبار عيانا بيانا، هنا شم رائحة احتراق اللحم البشري لأول مرة، ولوثه رذاذ الدم المتفجر من القتلى، فاستبشع ما شارك فيه من أعمال طوال عمره، حتى وإن كانت مشاركته كخبير اتصالات غير مباشرة في أغلبها، إلا أنه أراد أن يريح ضميره فيأتمن أحدا على ما يعرف من أسرار حتى يضطلع عليها العالم فضلا عن الشعب الأمريكي ذاته، ليدرك إلى أي مدى وصل الغي والجشع بمصاصي الدماء اليمينيين، لعله يضع حدا لجنونهم. قال لي الرجل الذي كان ينوي الانتحار وقتها، و لم يطلعني على ذلك بالطبع، أنه لم يجد خيرا

مني لهذه المهمة، قال هذا وهو يخرج من جيب معطفه ذاكرة الكترونية صغيرة ويقدمها لي، ويستحلفني باسم دم أطفال العراق أن أنقل ما فيها للعالم عندما يسعني ذلك، وحين رحل الرجل انفردت بحاسبي هذا في غرفة مكتبي لأفحص محتوى الذاكرة الإلكترونية، وكان فيها الكثير، بل الكثير جدا"

"عن تنظيم العالم الجديد؟"

"نعم، فالتنظيم ليس واحدة من نظريات المؤامرة العارية من الصحة كما حاولت الميديا الأمريكية أن تصوره طول الوقت، لكنه حقيقة مؤلمة، مؤلمة لأبعد حد كما سترى بعينيك، شبكة عنكبوت عملاقة تضم بين خيوطها تفاصيلا مفزعة، منها نادي السفاري والمجموعة الثلاثية، وغيرها كثير في عالمنا المعاصر، هو تنظيم لا تديره المخابرات المركزية ولا حتى البيت الأبيض، بل يدير المخابرات والبيت الأبيض بواقع الحال، يقوم بكل شيء من وراء ألف ستار وستار، وتقوم مخططاته الشيطانية وراء الكثير مما يحدث في العراق اليوم كما تثبت الوثائق، فخبير الاتصالات القديم كان قرصان شبكات محترف، حصل على طوفان من المعلومات من الشبكات الآمنة للمخابرات المركزية التي اخترقها، فضلا عما كان تحت يديه من معلومات بحكم عمله". هكذا قال كاظمي وهو يمد يديه بالكمبيوتر لعلي، ثم

أضاف "لقد حوت الذاكرة الالكترونية المدمجة عشرات الساعات من تسجيلات الاجتماعات السرية منذ السبعينات ولليوم، على مستوى رؤساء الدول والحكومات ومديري المخابرات، وكذلك مئات الوثائق والبروتوكولات السرية وأوراق العمل المخابراتية، طوفان من المعلومات حول الحقائق الباطنية لعالمنا المعاصر"

كان علي ينصت لصديقه وقد ألجمته المفاجأة والدهشة وهو يجري بعينيه فوق السطور، ومن تلك النظرة السريعة هاله المحتوى لأبعد حد، فهو أمام حقائق رهيبة جعلته يرى العالم كمسرح عرائس، يحرك فيه روكفلر ورفاقه الخيوط فيتراقص الجميع وتبدأ أدوارهم أو تنتهي، ومن يخرج عن هذا الإطار سواء من الزعماء أو الرؤساء أو الفنانين والأدباء والعلماء يكون مصيره التصفية الجسدية أو المعنوية أو الإقصاء الهاديء من موقعه على أقل تقدير، حتى لو كان صدامه مع الخطط الشيطانية قد حدث عرضا وعن غير عمد. سأل صديقه وهو يجري فوق الشاشة بعينيه قائلا "لكني بعد لم أفهم ما علاقة كل هذا بالكشف التاريخي؟"

"يبدو أن أحدا في المخابرات المركزية كان ملما بشأن الوثائق التي مررها إلي الرجل قبل انتحاره، فقد تعرضت بعد انتقالها لحوزتي لمحاولتي اغتيال، بسيارة مسرعة مرة، وبطلقة من

بندقية قنص في الثانية، لكن الله سلم لحكمة يعلمها، فكرت في كيفية وفائي بهذه الأمانة التي ألقيت على عاتقي قبل أن ينالوا مني، فلم أجد وسيلة لإعلان محتواها على العالم خيرا من مؤتمر جماهيري تحضره وكالات الأنباء، ولما كان الأمر يحتاج إلى تغطية حتى يتم، فكرت في مؤتمر لإعلان الكشف الأثري، يتم خلاله الإعلان عن الوثائق المعاصرة للعالم كله وعلى الهواء، كان كل شيء يسير على ما يرام حتى قدمنا طلبا للحكومة لتأمين مؤتمر جماهيري في بغداد أو سامراء لإعلان الكشف الأثري، ويبدو أنهم فهموا اللعبة فاستولوا على المخطوطات بعد تقديم الطلب بثمان وأربعين ساعة، حتى يصبح المؤتمر بلا معنى فنتراجع عن عقده، كان هذا ليلة وصولك، وقد قدرت يومها أن الأمر لم يعد خطرا علي وحدي، فصارحت فريد بجلية الأمر، ثم صارحت ديار ليلة وصولكم لبغداد، وأطلعتهما على ما تضطلع أنت عليه الساعة، فتحمسا للمضي قدما مهما كان ثمن إعلانه للعالم، واتفقت معهما على مصارحتك في اجتماعنا الذي كنا ننويه غدا"

"فأنا إذا آخر من يعلم، وها نحن قد صرنا خمسة مستهدفين بدلا من واحد". هكذا علق علي وهو ينظر لصاحبه، الذي فهم أنه يعجب لعدم مصارحته بالحقيقة قبل هذه اللحظة، فقال

"عذرا يا علي، الحق أني توقعت الخطر ولكن ليس لهذه الدرجة، كما أني أعرف شغفك بالأمرين معا، سواء المخطوطات القديمة أو الوثائق الحديثة"

"في كل الأحوال كان يجب أن أعرف مبكرا، ولكن دعنا من هذا الآن، ما هو دوري في اللعبة الحقيقية؟" هكذا أجاب علي بلهجة جافة بعض الشيء، كان يشعر إلى حد ما أنه استخدم، لكن ثقته بنوايا صديقه خففت شعوره هذا، الأدهى كان ربطه لخواطر الموت بالخطر الذي صار الآن واضحا ومحققا. أجابه كاظمي سؤاله بقوله "تعرف أنني لست محاضرا ماهرا، والأمر يحتاج لمهارة فائقة، لمحاضر ذي مواهب خاصة حتى نثير الرأي العام العالمي بمجرد الإعلان عن الوثائق، وأنت أفضل من عرفت لهذه المهمة"

"لا بأس، لكنني أرى لنفسي مهمة إضافية، لا تقل أهمية عن هذا إن لم تكن الأهم على الإطلاق، لكننا نحتاج لكل دقيقة، فلنجتمع بالرفاق اليوم وليس غدا لو أمكن". هكذا قال علي وقد بدأت فكرة تختمر برأسه، فبرغم المحتوى الصادم للوثائق من ناحية التفاصيل، إلا أن خطوطها العريضة لم تكن غريبة عليه، فقد أيقن دائما أن العلاقات بين اليمين المتطرف العالمي وتيارات التطرف الديني مسيحية ويهودية وإسلامية من جهة،

وبين الديكتاتوريات الفاسدة من جهة ثالثة شديدة التشابك، **فرعون وقارون وهامان في لغة القرآن الكريم، السلطة والمال ورجل الدين الفاسد**، كان يوقن دوما أن الكثير والكثير من أحداث العالم بعد الحرب العالمية الثانية تمت صياغته لخدمة الأهداف الاقتصادية لهذه التكتلات اليمينية والأصولية، لهذا تعامل عقله مع الحقيقة التي كشفها له كاظمي بسرعة فائقة، ليرسم خطة يضمنون بها حياة تلك الحقائق التي بين أيديهم لو لم يضمنوا الحياة لأنفسهم، وأطلع صديقه على خطته فاتفقا عليها قبل أن يطلع زوجته على كل شيء قبل حضور العضوين الباقيين في فريق العمل مساء ذات اليوم.

(٣١)
شيء من الخوف

في المساء، اجتمع الرفاق في حديقة البيت الخلفية، كان فريد مهموما كما بدا من وجهه الناطق دوما بما يدور بخلده، فبدأ حديثه مفضيا للرفاق بالمصاعب التي يواجهها في الحصول على تصريح بعقد المؤتمر، والحجة الجاهزة هي صعوبة حراسة مؤتمر جماهيري في ظل الظروف الأمنية الراهنة، فأجاب كاظمي قائلاً "نستغني عن حراستهم، وكفى بالأجل حارسا"

اختلج قلب ماري وهي تسمع لفظ **الأجل** الذي نطق به، رغم أنها ليست المرة الأولى التي تسمع فيها العبارة المأثورة عن علي بن أبي طالب، فحقيقة الوثائق الحديثة، التي تضعهم جميعا في مواجهة قوى جبارة بلا قيود ولا خلق تؤرقها منذ سمعتها من زوجها ظهرا، لكنها تماسكت والتفتت لعلي الذي علق قائلا "علينا ألا نستبعد عقبات بلا نهاية ستوضع في طريق المؤتمر، حتى تحول بيننا وبين الجماهير، لكننا سنعقده، فهو الوسيلة المثلى لإعلان المحتوى المختصر للوثائق، لكنني فكرت مع كاظمي وماري في خطة حتى تصل كل التفاصيل للعالم بأسره، فضلا عن الخلاصة التي ستنقلها وكالات الأنباء من المؤتمر"

"كلنا آذان دكتور". هكذا علق ديار متطلعا لوجه علي، والذي شرع يعرض خطته قائلا "نعد كتابا وثائقيا باللغتين العربية والانجليزية، ينقل الصورة الكاملة التي تعطيها الوثائق، ويشمل تفريغا للاجتماعات المسجلة، وصورا للوثائق، والتقارير، والبروتوكولات السرية، أتوقع أن يقع في قرابة الثلاثمائة صفحة من القطع الكبير، وحين تكون مسودته جاهزة، تسافر ماري ومعها نسخة الكترونية من الكتاب فضلا عن الوثائق المخابراتية إلى المملكة المتحدة، وقد تحدثت بعد الظهر مع صديق لي في دار بالدوين العالمية للنشر فرحب بنشر النسخة الإنجليزية من الكتاب فور وصولها إليه، وأنوي الاتصال بصديق في بيروت لنشر النسخة العربية هناك"

"كيف تمت الاتصالات؟" هكذا سأله ديار قلقا، فأجابه "من سنترال اتصالات بعيد عن هنا بضعة كيلومترات أخذنا إليه كاظمي، لم نعتمد على الهواتف المحمولة أو هاتف المنزل، مؤكد أنها مرصودة، المهم أنني يمكنني الانتهاء من النسخة العربية خلال عشرة أيام، وماري تطوعت لترجمة ما أكتبه أولا بأول لننتهي من النسختين العربية والإنجليزية معا، وسوف يحمل الكتاب أسماء كل من في هذه الغرفة، تخليدا لعصبة اجتمعت، على اختلاف الأعراق والأديان والجنسيات، ابتغاء

وجه الله ووجه الحقيقة. تقلص وجه ماري مع كلماته تلك، فقد ناقشته محتدة هذا الصباح حول فكرة افتراقهما وتركها إياه في العراق في مثل تلك الظروف، فأجابها قائلا "أتذكرين يوم قلت لي أني أذكرك برواد التنوير؟ بيدك الآن أن تجعليني منهم بحق، أن تحملي النور الذي أراد له الله أن يخرج من العراق للعالم كله، تذكري ما قلته يومها، لو فكر الذين ماتوا من أجل سعادة الإنسان في أحبابهم ومن يحزنون لفراقهم، لبقي البشر في ظلمات القرون الوسطى حتى اليوم، أنت من سيحمل كلمة الحق والنور للعالم يا ماريتي المجدلية، ليقوم الحق بعد ثلاث من دنيا الأموات".

عندها بكت ولم تستطع إلا أن تومىء برأسها موافقة بين دموعها، كانت تعلم دوما أنه يعيش لشيء ما تجهل كنهه، ويدخره القدر لمهمة تنأى به عن كل ما تلوث في زماننا، حاولت أن تتماسك منذ الظهيرة حتى لا توهن عزيمته، لكنها الآن وهي تسمعه مرددا خطته على الجمع، تخيلت لحظات الفراق والاحتمالات الممكنة بعدها، فلم تتمالك دمعة حطمت السياج لتقفز من عينيها، قامت مسرعة لتدخل الفيلا معتذرة بيدها للرفاق. تألم علي لملامح اللوعة على وجهها، واعتذر للجمع راجيا تفهمهم لحساسية الموقف، ثم مد يده يملأ لنفسه

استكانا بالشاي، ليعطي نفسه برهة يتغلب فيها على غصة الألم التي خلفها مشهد حبيبة عمره باكية في حلقه، قبل أن يواصل حديثه قائلا "ربما يحسن بك أن تهدأ قليلا يا دكتور فريد من محاولاتك للحصول على تصريح للمؤتمر، دعنا نوحي لهم بأننا فقدنا الأمل في عقده، حتى ننتهي من الكتاب وتسافر ماري ونطمئن لوصول الحقيقة لبر الأمان، ثم نواصل الطريق، فنعقده ولو بغير تصريح وأيا كانت العواقب، وقد ناقشت مع كاظمي أجندة المؤتمر، ونقترح أن يبدأ بكلمة لك عما تعرضت له من سرقة الأصول، تعقبها كلمة لديار يشرح فيها مراحل الكشف التاريخي واستخراج المخطوطات، ثم يأتي دور كاظمي، فيوجز المحتوى الفكري للمخطوطات القديمة، ويصرح للناس بأمر الوثائق المخابراتية والسبب الحقيقي للمؤتمر، ثم يمرر لي الكلمة أخيرا فأشرح ملخصا لما تحتويه الوثائق، وأركز على الرسالة الإلهية وراء توقيت الكشف عن المخطوطات والوثائق معا"

"التوقيت؟" هكذا علق ديار مستفهما، فأجابه علي "الجماهير لن تستوعب محتوى المخطوطات القديمة بسهولة، وذات الأمر بالنسبة للوثائق الحديثة، سيكون مجديا جدا أن نطرح الأمر كرسالة ربانية، وأنا بالفعل مقتنع بهذا، رسالة أرادها الله أن تظهر في العراق في هذا الوقت العصيب الذي يمر

به العراقيون، لتكون دافعا لنبذ الخلافات والتوحد ضد عدو مشترك يتآمر على العالم كله، ضد قوى اليمين *الاقتصادي والأصولي المتآمرة على البشر لصالح رأسالمال". نظر علي لوجوه رفاقه فوجد قبولا يشيع بينهم، ثم انتبه لكاظمي وهو يقول "أريد التنويه عن أمر هام، هذه المهمة بالنسبة لي تستحق المخاطرة بالحياة، حتى لو كانت مخاطرة تغلب فيها احتمالات الهلاك على احتمالات النجاة، فبلادي كما تعلمون نزفت كثيرا من دماها في خدمة امبراطورية الشر التي وقودها النفط ودماء الأبرياء، حاربنا إيران بالنيابة عنهم بعد أزمة الرهائن في حرب الخليج الأولى، ثم دخلنا برعونة صدام للمصيدة التي نصبوها لنا في الكويت في حرب الخليج الثانية، أراد كلينتون أن يغطي عورته في فضيحته الجنسية فقصفنا وقتل أطفالنا، قبل أن يتم بوش الابن ما بدأه الأب فيحتل العراق ليبدأ حمام دم لم يجف حتى اليوم، لكل هذا يسعدني أن أموت لأكشف عصبة الشر تلك للشعب الأمريكي ذاته وللعالم أجمع، لكنني أضن بكم جميعا، فمن أراد أن يخرج من الموضوع عند هذا الحد موفورا فله ذلك، مع الاحتفاظ بكامل حقوقه الأدبية في الكشف التاريخي، فظني أن مؤتمرنا سيكون كقطعة الجبن التي تتحدى كبرياء الفأر لو لم ينهشها، وأكاد أشم رائحة الدم والبارود فيه، لن يكلفهم تدميره أكثر من كلمات يلقونها في

أذن بعض من سمموا عقولهم، فتخيروا لأنفسكم بلا أدنى حرج، وتذكروا أن البطولة ليست دائما أن نموت، فلكل منا معاركه الأخرى التي يخوضها في حياته"

"أفهم ما تقصده تماما يا صديقي، لكني عشت بينهم ما يكفي لأعلم أن طيور الظلام لا تفرق بين نفط مخلوط بدم عربي وآخر مخلوط بدم كردي، كلنا وقود، وكلنا نموت لتحيا المؤسسة الشرقية، أفلا نموت لتشرق الحقيقة على الدنيا من بلادنا؟ حتى على سبيل التغيير يا رجل" هكذا أجابه ديار دون أن تغادر بسمته شفتيه، في رد فعل متوقع من رجل واجه البعث في عنفوانه متمسكا بحقه وهويته، ثم أعقبه علي فقال "العمر لحظات يا كاظمي، لحظة صدق، لحظة وجد، لحظة شجن، وأجملها على الإطلاق لحظة حق، والموت كذلك لحظة، وخيره هو الآخر ما كان في لحظة حق، فالحق هو خير الحياة وخير الموت، فلا تحاول حرماننا من شرف تلك اللحظة لو أراد الله أن تكون فيها منيتنا"

"وهل خير منكم صحبة في القبر يا رفاق؟" بهذا علق فريد ضاحكا، وهو يقوم من مقعده معلنا موقفه بإيجاز ومؤذنا بانفضاض الجمع، بينما كاظمي يقول ودمعة تراود جفنيه عن طريق للخروج "بوركتم من صحبة ما خيبت حسن الظن بها،

سيبقى في هذا الوطن العربي بصيص من نور ما بقي أمثالكم بين جماهيره المزدحمة في الشوارع والميادين، لاهثة خلف لقمة الكفاف، سيبقى أمثالكم أملا لهذه الجماهير الكادحة في الانتقال من مرحلة الكفاف إلى مرحلة الكفاية ذات يوم بإذن الله".

كل من كان بالمجلس قام بعده متعجبا من نفسه ومن السهولة التي قرر بها الاستمرار برغم الخطر، فبدا لكل منهم على حدة أن الله قد ثبته ليقول ما قال ويواجه الأمر بتلك البساطة، فزادهم هذا إيمانا بأنهم على الحق، وأن ما يفعلون جدير بالموت في سبيله.

استأذن علي ليبقى في الحديقة بعض الوقت بعد انصراف ديار مع فريد ودخول كاظمي للدار. حين صار وحيدا راودته نفسه بنبضات من الخوف، لقد بقيت مسحة من الحزن في نفسه منذ حلمه على متن الطائرة وحتى الساعة، شعور غريب بأنه جاء للعراق ليموت فيه، كانت مشاهد موت الأحباب تتردد في ذهنه كثيرا، وشعوره بدنو الأجل يتزايد بمرور الساعات ليصل الآن لحد اليقين، تخيل عدة مرات لحظة الموت، واحتار كيف تكون، وشعر بدبيب الخوف إلى نفسه الآن، خوف إنساني لا يخلو من نبل، فالحب والخوف كلاهما قدر بشري ومن لا يحب ولا يخاف فهو شيطان، راوده خوف على العمر الذي تمناه ولم يعشه مع زوجته، حبيبة السنين التي أنعم

الله عليه بها مع أحلام النهاية كأنها أغنية الختام في مسلسل حياته، كم تمنى أن يطول العمر فيعيش معها شيخوخته في بيت ريفي منعزل، حيث يملأ صدره بهواء الريف المحمل برائحة الخصب والخضرة بلا نهاية، انسابت على شفتيه أغنية لحليم فدندن بها دون أن يشعر وهو يمشي في الحديقة "**كنت أتمنى يطول العمر، وأعيش حواليك**"، دعا الله لو صدقت رؤياه وكان الأجل قد اقترب أن تصدق كلها فيكون في رحم زوجته الآن خيط من دمه يتشكل جنينا، فهذا كان آخر ما فسر به حلمه بها في صورة المجدلية، فدعا الله أن يصدق تأويله فتكون بيضة النور التي رآها تقبض عليها بحرص رمزا لطفله في رحمها، فيعود متجسدا فيه للعالم كأنه يقوم من بين الأموات بعد ثلاث، تصور شكل صغيره المحتمل فانتابته قشعريرة خوف وألم لوليد تضعه أمه يتيما، كم تمنى أن يراه ويرفعه بين يديه نحو السماء، كم تمنى أن يربيه وأن يورثه كل ما عرف في رحلة العمر المرهقة، وأخته عزة، تلك الكريمة الغالية التي ستزداد بعده توحدا في دنيا لا تحبها كثيرا ولا تجيد قواعد لعبتها، ومكتبته التي جمع فيها حصاد العمر في بيت المنيل، ومكتبه وفوقه جهاز الحاسب وطابعة الليزر في تلك الغرفة الصغيرة التي شهدت ليالي الحماس والاجتهاد، كما شهدت ليالي الأرق والألم، لمن يترك كل هذا لو لم يكن لك يا حسين؟ ليكن حسينا يا إلهي، ليكن حسينا يا كريم العطف.

مسح رأسه بيده كأنه ينفض عنها خواطر الخوف المثبطة

وآلام فراق من أحب وما أحب في دنياه، واستدعى ما قاله لماري في الصباح، لو فكر كل رجل هكذا ما استقامت حياة فوق هذا الكوكب، ثم ردد في خاطره شعر لعمرو بن الإطنابة يقول فيه "**وقولي كلما جشأت وجاشت، مكانك تحمدي أو تستريحي**"، مكانك يا نفس تحمدي أو تستريحي، مكانك يا قلب لا تجزع من الموت، ألم تكن تتمنى الشهادة والموت في حق تقاتل عليه؟ أم أنها كانت أمنيات المطمئن في بيته، فإذا برز للموت وبرز الموت له ولى الأدبار؟ تذكر قول جدتك "ثوب الشرف غالٍ وثوب الرجال أغلى"، ثوب لا يشتريه أحيانا غير الجود بالنفس، لنحيا حياة تليق بالرجال أو نموت موتا يليق بالأبطال، هكذا كانت الأفكار المشوشة تتناوب في رأسه حين خرجت ماري من باب المترل الخلفي، تتفقد زوجها وقد افتقدته بعدما غادر الجمع، أتته من خلف فأحاطت خاصرته كما فعلت في المرة الأولى في الإسكندرية، استدار يواجهها وهي تقول "سينتهي كل هذا ونرجع مصر سويا، فنعيش أنا وأنت وعزة كأسرة صغيرة جميلة"، قالتها وفي عينيها حيرة وطيف من لوعة، فكأنها كانت ترد على هواجسها بعبارتها تلك، فأجابها "الأعمار بيد الله، جئت في وقتك تماما، أريد الحديث إليك". جلس عى مقعد الحديقة الحديدي وأجلسها على ساقه اليسرى، ثم قال باسما وهو ينظر في أعماق عينيها

ويضع كفه بحنان فوق رحمها "سمه حسينا". نظرت له بعدم فهم، فقال "لو صدق حدثي وكنت حاملا ووضعت غلاما، فلتسم الصبي حسين". فهمت ما يرمي إليه فقالت بصوت حاد كأنها تنهره عن ذكر الموت "لو صدق حدثك سنختار اسمه أنا وأنت معا". واصل ما أراد قوله مسرعا وهو يهرب من عينيها "لو أصابني مكروه، احرصي على أن تنتقل عزة معك إلى الإسكندرية حتى تنتهي من التزاماتك هناك، ثم تنتقلون جميعا للقاهرة لينشأ حسين في المنيل حيث نشأت ، وليقرأني حين يكبر في كتبي لو لم تمهلني الدنيا لأحدثه بما أريد".

"لا أرى مبررا لكل هذا، قد يكون الموقف خطيرا، ولكن ليس لهذه الدرجة". هكذا قالت بحدة قاربت الصراخ، وكانت الدموع تتلألأ بعينيها، فقام يدنيها من صدره ويعانقها عناقا طويلا تحت ضوء قمر العراق الحزين.

(٣٢)

بعد ثلاث

وضع يزيد شريحة التليفون التي ابتاعها لتوه في جهاز محمول بادي القدم فور دخوله لسيارته، فلمثل هذه المكالمات احتياطات غير عادية، طلب رقما دوليا تشير بدايته لخط محمول في واحدة من دول العالم الأول، حتى من رد عليه دون أن يذكر اسمه، ورد من يحادثه على الطرف الآخر التحية خالية من اسم يزيد رغم الود الظاهر، ويبدو أن هذا عرف احتياطي بينهم في حالة رصد المكالمة، سأله يزيد عما فعله في شأن الزائر المصري في العراق والذي حدثه بأمره المرة الماضية، فأجابه الآخر "لم أفعل شيئا، قلت لك أننا سنضعه تحت عيوننا وحسب، لا أستطيع إنهاء الموقف بغير أمر مباشر من القيادة"

"القيادة تسير داخل الحائط منذ توصلت لاتفاق تهدئة مع الدولة، باع الكبار كل شيء مقابل بضع كراس موسيقية، لكننا نحن من يقبض الجمر بيديه، ووجوده هناك فرصة لن تعوض"

"الوضع في العراق غير ما تتصوره من نشرات الأخبار، إنما فوضى منظمة، وكل طلقة تخرج تعرف هدفها حق المعرفة"

"فلتعمل على تعارف بينه وبين بضع طلقات إذا ويكون لك الأجر والثواب"

"دعنا نؤجل القرار بشأنه حتى ينتهي المؤتمر الذي حدثتك به، فلو نجا منه نرى فيه رأينا" كان هذا جواب الرجل على الطرف الآخر، وأنهى يزيد المكالمة بعده سريعا، ثم أخرج بطارية المحمول والشريحة الممغنطة وألقى بالثلاثة منفردين إلى قاع النيل، حيث كان يقف بسيارته بحذاء شاطئه، وقعت عينه على راقصة تهتز ببدنها الممتلىء في الباخرة النيلية المارة تحت الكوبري، تأملها قليلا قبل أن يستغفر ويحوقل وينطلق بسيارته وهو يزدرد ريقه بصعوبة.

في وقت ليس ببعيد من هذه المحادثة كان اتصال آخر يتم بالإنجليزية بين اثنين تظهر في صوت أحدهما ونطقه لكنة عربية، كان الاتصال عبر هواتف قمر صناعي آمنة هذه المرة، وليس بأسلوب يزيد البدائي، وكان شديد الاقتضاب، قال الطرف الأول "التوقيت حين يجتمع الأربعة في سرادق المؤتمر، صور الوثائق لا تهمنا بذاتها". فأجابه الثاني متسائلا "ألا يحسن بنا العمل قبل بداية المؤتمر؟"

"لن يغيروا واقع العراق المعقد بوثائق كهذه، يهمنا الردع ولهذا تحديدا سنتركهم يتحدثون أولا، لا يهمني حتى أن يموتوا

أو يصابوا، يهمني أن يكون الحدث كبيرا بما يكفي لردع من يعبث في حجرات الكرار بمترلنا"

"لكن وكالات الأنباء ستنقل المؤتمر للعالم كله"

"دع أمر وكالات الأنباء لنا، التعليمات النهائية قبل ساعة الصفر بأربع وعشرين ساعة". انتهت المكالمة سريعا ليبدو منها أن وطاويط الظلمات قد عقدت عزما، أو أكثر من عزم.

بينما تتشكل خطة الظلام، كان علي ورفاقه يسابقون الزمن في مترل كاظمي في الأعظمية، والذي صار كخلية نحل دائبة، فعلي على الحاسب يسجل محتوى الوثائق السرية معلقا على كل منها في الهوامش بما يناسبه، ورابطا بينها في سياق واحد يضم تناثرها، ليعطي القاريء صورة مجملة عن لعبة التاريخ التي تظهر جلية فيها، فإذا انتهى من أحد الفصول يمرره لزوجته التي شاركته ذات المكتب وأمامها حاسب كاظمي النقال تترجم ما كتبه، فإذا فرغت انتقل الفصل للرفاق الثلاثة الباقين يراجعونه كل من منظور تخصصه.

بدأ علي في الفصل الأول بالتعريف الاصطلاحي لمنظمة العالم الجديد، وعلاقاتها المتشابكة مع المؤسسة الشرقية في الولايات المتحدة وعلاقة الاثنين بالحزب الجمهوري فيها، وأسر المال والأعمال الداعمة للكيان ككل، ثم بدأ في عرض الوثائق

من الفصل الثاني مرتبة ترتيبا زمنيا من الأقدم للأحدث، و لم تمر عشرة أيام إلا وكانت المسودة الأولى معدة، وبعد بضعة تعديلات استغرقت يومين كانت مسودة الكتاب النهائية جاهزة وكان موعد سفر ماري لبريطانيا يقترب، في صبيحة يوم السفر جلس علي وماري على حافة الفراش في الغرفة المخصصة لنومهما وقد تشابكت أيديهما، أنفقا ما لم يحصه أحدهما من الوقت يتبادلان نجوى العيون، ثم قطعت هي الصمت قائلة "مازال الحزن على وجهك يحيرني، نعم الموقف خطير بعض الشيء ولكن ليس لهذه الدرجة، لابد أنهم استنتجوا أننا جميعا اضطلعنا على الوثائق، وبسفري يكون العصفور قد طار وقضي الأمر، لن يحدث ما تخشاه"

"لست أخشاهم، ما أغنى الموت عن الأسباب يا حبيبتي"

"لم الحزن أذا في قاع عينيك تحاول أن تخفيه؟"

"ربما لهذا تحديدا، لأن الموت غني عن الأسباب". هكذا قال قبل أن يتراجع مخففا عنها فيقول "لا تفزعي، ربما كنت واقعا تحت تأثير الوهم بسبب بعض أحلامي، احفظي لي حبيبتي وصغيري المرتقب حتى .. حتى نلتقي". اقتحمت حلقه غصة وهو ينطق بلفظ اللقاء، شعور يتزايد داخله بأنه آخر لقاء بها، قبل اللقاء في دار الحق. حين أتاه صوت كاظمي من خلف

الباب يستعجلهما للتحرك، وقفا متواجهين قبل أن يضمها لصدره ضمة طالت حتى اهتز لها كيانه، ضم فيها ذكاء ماري وأنوثتها، طيبة عزة والكاريزما الهادئة بعينيها، طفولة حسين ونقاءه، ضم فيها مصر بكل ما أحب فيها عبر سنين الطفولة والصبا والشباب والكهولة، بل ضم فيها النبل والشرف والكبرياء والحنان، وضم فيها حضارة الإنسان، وحلاوة الإيمان، ضم فيها كل ما أحبه وتمناه في ضمة وداع.

الاثنين، الخامس عشر من أكتوبر

كانت عزة تتابع نشرة الأخبار عندما انقبض قلبها لنبأ أذاعته النشرة وجاء في تفصيله "عمل إرهابي مروع في مؤتمر تاريخي بسامراء، اقترفه مخربون يرجح انتماؤهم لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، حيث اندست العناصر الإرهابية وسط جماهير المؤتمر الذي عقد في مدينة سامراء القريبة من العاصمة العراقية بغداد، عنوان **تعددية لا مذهبية**. ألقى الإرهابيون عبوات ناسفة نحو المنصة الرئيسية للمؤتمر وأتبعوا ذلك بإطلاق الرصاص من بنادقهم الآلية، وقد أسفر العمل الإجرامي عن مصرع اثنين من المحاضرين فضلا عن ثلاثة عراقيين بينهم سيدة واحدة، وجرح العشرات بينهم مدير مشروع اليونسكو

للحفاظ على التراث الإنساني في العراق سابقا، وهو مصري الجنسية". انقبض صدرها رغم أنها لا تعلم حتى بسفر أخيها وزوجته للعراق، فقد أخبراها أن رحلتهما لسوريا ستدوم قرابة الشهر تجنبا لقلقها، اختلجت يدها التي تقبض على كوب الشاي بالحليب وهي تحوقل متابعة الصور التي بثتها وكالات الأنباء، ولطف الله بها فلم تلتقط العدسات صورة لأخيها الذي استقرت في صدره وعنقه ٦ رصاصات فأردته صريعا بجوار صديقه كاظمي، بينما نجا ديار وأصيب فريد إصابة غير خطيرة، ولم تعرف عزة حقيقة ما حدث إلا في اليوم التالي من الخبر المفصل في الجريدة الرسمية، والتي وجدت فيه اسم أخيها الأستاذ الجامعي الذي استشهد في العراق برصاص الإرهاب الأسود، انهارت لمدة يومين لم تذق فيهما للنوم طعما ولم يمس فمها خلالهما طعام، لكن صوتا ما في لقبها كان يواسيها، كانت تعرف أن أخيها اليوم أكثر رضا عن نفسه من أي يوم سابق، فلطالما رأى شهادة الرأي كأعظم خاتمة يصبو إليها العالم والباحث المخلص لعمله، ولكن هذا الصوت وإن خفف لوعتها لموت أخيها مغتربا عن موطنه، إلا أنه لم يخفف ألم الفقد وقسوة الحرمان من الونيس والسند.

حين زارها ديار بعد شهرين من الحادث ليواسيها، عرفت

منه الكثير من التفاصيل، ففهمت أنهم كانوا يتوقعون ما حدث في المؤتمر، يتوقعون هجوما قبله أو أثناءه، فعقدهم المؤتمر وإذاعة تلك الفضيحة المخابراتية على الهواء وعلى بعد أمتار من القواعد الأمريكية في العراق كان يمثل لطمة لقوة عظمى، لم تذق مثل تلك اللطمات منذ أزمة الرهائن بسفارتها في إيران في نهاية السبعينات، وقص عليها ديار كيف كان علي تحديدا غريب الأطوار وبادي الحزن في الأيام الأخيرة قبل المؤتمر، وكيف سهر في الليلة السابقة عليه حتى الصباح يقرأ القرآن ويستغفر، وكيف أوصاه بها وبزوجته خيرا وهما في السيارة التي أقلتهما للمؤتمر، كأنه علم بحدسه أن ديار سيكون الناجي الوحيد بين الرفاق. حدثها بعد ذلك بتفاصيل عديدة حول الحادث، غير أنه تجنب الخوض فيما يزيد من ألمها، فلم يقص عليها نبأ الرصاصات القاتلة، وكيف أتت أخاها وكاظمي من الخلف بينما كان هجوم الإرهابيين من أمام المنصة، لم يرد أن يضيف عذاب الحيرة إلى عذاباتها لثكل شقيقها الأوحد، فقد تجرع هو وفريد هذا العذاب وحدهما منذ اليوم الأليم وحتى الساعة، ولا يظن عذابهما هذا ينقضي في القريب العاجل.

في يوم الحادث، وعلى مقهى في أحد أحياء القاهرة الشعبية قال أحد الجالسين لصاحبه معلقا على الخبر الذي أذاعته نشرة

الأخبار وهو ينفخ دخان الجوزة "لابد أنهم من عملاء الأمريكان ولهذا اصطادهم الزرقاوي".

رد عليه جليسه قائلا "لكن ما ذنب السيدة التي قتلت؟"

"تستحق، لماذا تحضر مؤتمرا عن إسلام بلا مذاهب؟ يريدون لنا أن نترك المذاهب الأربعة لنصبح مسلمين على مذهب الأمريكان".

في بغداد جلس جماعة من الشباب في اليوم التالي، فناقشوا إعلان دار بالدوين للنشر، حول طرح كتاب ألفه العلماء المصريون والعراقيون الذين حاولوا كشف وثائق بالغة الأهمية، واغتيل اثنان منهم في مؤتمر حولها، سلمته للدار زوجة أحد الضحيتين قبل أن تدخل المستشفى الملكي شرقي لندن لإصابتها بانهيار عصبي عقب اغتيال زوجها، علق واحد من الشباب بأن وكالات الأنباء لم تشر لتصريح دار بالدوين في تغطيتها للخبر، كما أنها لم تنقل ما سجلته من وقائع المؤتمر قبل وقوع الجريمة، وعقب آخر بأن هؤلاء الذين ماتوا كان لديهم كلمة حق يريدون قولها، وإلا لما عقدوا مؤتمرا شعبيا بلا حراسة في مثل هذه الظروف التي يعانيها العراق، كأنهم يريدون الموت حتى يجذبوا الأنظار لأمر جلل، واقترح أن عليه وأصحابه أن يقتفوا أثر تلك الكلمة التي أرادوا إبلاغها للعالم، والتي تهدف لتوحيد

الصف العراقي كما يظهر من موضوع المؤتمر ومن الكتاب الذي يكشف مؤامرات مخابراتية لإثارة الفتن في العالم العربي عامة والعراق خاصة، كان هذا الاجتماع هو النواة الأولى لجماعة **عراقيون** الوحدوية، الداعية لتوحيد الصف العراقي بنبذ الصراعات المذهبية والعرقية.

أما في الرياض، فقد وقف خطيب في خطبة الجمعة التالية للحادث، فجعل خطبته عن البدع، وفي سياقها قال "هاهو غضب الله قد حل بأعداء الأمة من الروافض وعملائهم، فدمر جمعهم تدميرا، فالروافض يا إخوتي مبتدعة على أضعف الظن، وكفرة على أغلبه، وما حدث في العراق إن هو إلا انتقام ربكم من أهل البدع والضلال والفجور، نصرنا الله عليهم وعلى من سار على دربهم من المشركين والعلمانيين، وأدام الله حكمة خادم الحرمين الشريفين، ووفقه لما فيه خيرنا وخير ديننا، آمين".

في القاهرة في الأسبوع التالي، عقد الصحفي البارز إبراهيم موسى جلسة تأبين للدكتور علي الإمام حضرتها نخبة مثقفة مصرية، وأعلن أن جريدته ستتبنى القضية التي مات من أجلها الشهيد، وستنشر الكتاب الصادر في إنجلترا بنصه العربي مسلسلا في حلقات، لتضمن بهذا وصول مضمونه لرجل

الشارع كما أراد الشهيد، وبعد بضعة شهور في بريطانيا، كانت ماري في فراشها بعد أن غادرت المستشفى وعادت لمدينتها، فحرصها على الأمانة الثمينة التي تحملها في أحشائها أعانها على التماسك، إذ صدق ظن الفقيد وعرفت قبيل وفاته أنها حامل، وتأكد ذلك في المستشفى.

في مترلها، وضعت صورتها معه في سوريا على الخوان بجوار فراشها، وعلقت في صدرها قلادة حبيبة قلدها إياها بيديه قبل رحيلها من العراق، وطلب منها أن تضعها في عنق ولده حين يشب عن الطوق، قلادة ذو الفقار، سيف ذو ذؤابتين يعبر عن موقف صاحبه في عالم بلا مواقف، لمست أطراف السيف فوق عنقها وهي تقرأ في ديوان سعاد الصباح "**أعرف بين رجال العالم رجلا، يعرف ما في رحم الوردة من أزرار، يعرف آلاف الأسرار، يعرف تاريخ الأنهار، ويعرف أسماء الأزهار، أعرف بين رجال العالم رجلا، مر بعمري كالإسراء، قد علمني لغة العشب ولغة الحب ولغة الماء**". رفعت القلادة إلى فمها فقبلتها بحرارة دمعة ترقرقت من عينيها، وأخذت تفكر في عودتها لمصر الأسبوع المقبل ليولد حسين في بلده، فتسعد به عمته التي كسرها الحزن على أبيه، كانت تفكر وهو ينمو في أحشائها يوما بعد يوم، هل تستطيع أن تربيه ليكون مثل أبيه في

زمننا بكل معطياته؟ أم أن طيور الظلام التي قتلت أبيه قد لوثت عالمنا حتى لا يولد فيه الثوار؟ ولا تورق فيه الأشجار؟ لكنه ابن علي، وعلي لن ينجب إلا عودا حرا شامخا ولو كرهت كل قوى الشر، وستعلمه كل ما تمنى أبوه أن يعلمه، حتى يشب كما تمنى دائما، قال لها الفقيد يوما "نحن أمة في كرب وبلاء، وعلى كل منا أن يربي ولده وكأنه يعده ليكون مخلص هذه الأمة من كربها وبلائها. لعل واحدا منهم يستطيع ما عجزنا نحن عنه في عالم سريع التغير، لعل واحدا منهم يكون حلمنا المنتظر، المهدي صاحب الزمان".

فهل تكون أنت يا حسيني الصغير؟

هل تكون مسيح الحب الذي يقوم في اليوم الثالث من بين الأموات؟

اقصدوه .. اقصدوه

ابعدوا عنه الهوايل .. وانجدوه .. وانصروه

الأصيل حلو الشمايل .. واسعدوه .. اسعدوه

***

الناس ورا النظرة الباهــتة .. على الأمل صاحية وبايته

مهما الليالي تكون فايتة .. بكرة جاي قوموا قابلوه

***

شايلة الأمل طفل في حجري .. ومسيره يوم يحبي ويجري

عمرك يا ضلمة ما تستجري .. تسدي باب الناس فتحوه[٢٨٦]

[٢٨٦] شعر سيد حجاب

المراجع والمصادر

مسلسل	إسم المرجع	المؤلف
١	**السيرة النبوية لابن هشام**	عبد الملك بن هشام
٢	**مسند الإمام أحمد**	أحمد بن حنبل
٣	**سنن بن ماجة**	محمد بن ماجه
٤	**دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**	أحمد بن الحسين البيهقي
٥	**السنن الكبرى**	
٦	**الإصابة في تمييز الصحابة**	أحمد بن حجر العسقلاني
٧	**لسان الميزان**	
٨	**تاريخ الرسل والملوك**	محمد بن جرير الطبري
٩	**الفرق بين الفرق**	عبد القاهر بن طاهر البغدادي
١٠	**الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات**	أبي القاسم بن إبراهيم البرادي
١١	**المنتخب من العلل للخلال**	ابن قدامة

١٢	**صحيح البخاري**	محمد بن إسماعيل البخاري
١٣	**موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والاحزاب والحركات الاسلامية**	عبد المنعم الحفني
١٤	**كتاب المناقب**	طاهر بن أبي المكارم الخوارزمي
١٥	**الطبقات الكبرى**	محمد بن سعد
١٦	**سير أعلام النبلاء**	شمس الدين الذهبي
١٧	**البداية والنهاية في التاريخ**	إسماعيل بن عمر بن كثير
١٨	**الكامل في التاريخ**	ابن الأثير
١٩	**أسد الغابة في معرفة الصحابة**	
٢٠	**مقاتل الطالبيين**	علي بن الحسين الأصفهاني
٢١	**كتاب الأغاني**	
٢٢	**الاستيعاب في تمييز الأصحاب**	ابن عبد البر
٢٣	**سيرة رسول الله**	ابن اسحاق
٢٤	العبر و ديوان المبتدأ والخبر المعروف بمقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
٢٥	**القاموس الإنجيلي**	ديفيد إيردمان

٢٦	لماذا لست مسيحيا	برتراند راسل
٢٧	مذهب الدروز والتوحيد	عبد الله النجار
٢٨	الموحدون الدروز	مالك صلاحة
٢٩	من هم الموحدون الدروز	جميل ابو ترابي
٣٠	الموسوعة البريطانية	نسخة ٢٠٠٦
٣١	شجرة الحياة السومرية	سام كير
٣٢	الزرادشتية والبشرية نحو غد أفضل	شاهين باخرادنيا
٣٣	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان	ابن خلكان
٣٤	مروج الذهب و معادن الجوهر	علي بن الحسين المسعودي
٣٥	الإتحاف بحب الأشراف	عبدالله بن عامر الشبراوي
٣٦	تاريخ الفلسفةالإسلامية	هنري كوبان
٣٧	الإمام المهدي، حقيقة تاريخية أم فرضية فلسفية؟	أحمد الكاتب
٣٨	الحقائق في تاريخ الإسلام والفتن والأحداث	حسن المصطفوي

٣٩	العرف الوردي في أخبار المهدي	عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
٤٠	المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية	جواد علي
٤١	ثاقب المناقب	محمد بن علي الطوسي
٤٢	العقائد الجعفرية	
٤٣	إلزام الناصب في إثبات الحجة القائم	المجلسي
٤٤	حياة القلوب	
٤٥	بحار الأنوار لدرر أخبار الأئمة الأطهار	
٤٦	كفاية الموحدين و ارشاد الطالبين	إسماعيل بن أحمد الطبرسي
٤٧	كتاب الغيبة	محمد بن إبراهيم النعماني
٤٨	العقد الفريد	ابن عبد ربه
٤٩	مائتا عام على الحملة الفرنسية	ناصر إبراهيم
٥٠	عجائب الآثار في التراجم والأخبار	عبد الرحمن الجبرتي

٥١	كتاب المصاحف	عبد الله بن سليمان السجستاني
٥٢	معرفة أخبار الرجال	محمد بن عمر الكشي
٥٣	الأركان الأربعة	محمد جواد الفقيه
٥٤	الروضة من الكافي	محمد بن يعقوب الكليني
٥٥	صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج النيسابوري
٥٦	تاريخ الكنائس القبطية	ألفريد بتلر
٥٧	دخول العرب مصر	
٥٨	تاريخ بطاركة الكرسي السكندري	جان ماسبيرو
٥٩	الغدير في كتاب العزيز	عبد الحسين الأميني
٦٠	النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة	ابن تغري بردي
٦١	الفتنة الكبرى	طه حسين
٦٢	علي و بنوه	
٦٣	أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى البلاذري
٦٤	فتوح البلدان والبراقي	

٦٥	**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار**	أحمد بن علي المقريزي
٦٦	**النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم**	
٦٧	**السلوك لمعرفة الدول والملوك**	
٦٨	**إمتاع الأسماع**	
٦٩	**تاريخ الكوفة**	سعيد بن عمرو بن سفيان
٧٠	**شخصية مصر**	جمال حمدان
٧١	**فتوح مصر وأخبارها**	ابن عبد الحكم
٧٢	**بدائع الزهور في وقائع الدهور**	محمد ابن اياس
٧٣	**الإمامة والسياسة**	عبدالله بن مسلم الدينوري
٧٤	**نهج البلاغة**	الشريف الرضي
٧٥	**من هو يسوع تاريخيا**	جيمس ستيل
٧٦	**المسيحية البولينية**	لويس لوفليتر
٧٧	**تراث كربلاء**	سلمان هادي
٧٨	**تذكرة أولي النهى والعرفان**	ابراهيم بن عبيد
٧٩	**الرحلة الحجازية**	محمد لبيب البتنوني

٨٠	**تاريخ الشعوب الإسلامية**	كارل بركلمان
٨١	**جزيرة الوهابيين**	جون فيلبي
٨٢	**أربعون عاما في البراري**	
٨٣	**الأيام العربية**	
٨٤	**الأراضي النجدية**	
٨٥	**ممالك العرب النفطية**	
٨٦	**السعودية العربية**	
٨٧	**قلب جزيرة العرب**	فؤاد حمزة
٨٨	**أوراق الحرب العالمية الثانية**	ونستون شرشل
٨٩	**التجربة والخطأ**	حاييم وايزمان
٩٠	**نهاية الأرب في فنون الأدب**	أحمد بن عبد الوهاب النويري
٩١	**صفوة الصفوة**	عبد الرحمن بن على بن الجوزي
٠٢	**المستدرك على الصحيحين**	محمد بن عبد الله الحاكم
٩٣	**إسلام بلا مذاهب**	مصطفى الشكعة
٩٤	**مجموعة الفتاوى**	أحمد بن تيمية

٩٥	الفتوحات المكية	محيي الدين بن عربي
٩٦	الفصل في الملل والأهواء والنحل	ابن حزم الأندلسي
٩٧	جمهرة أنساب العرب	
٩٨	شرح السنة	الحسين بن مسعود البغوي
٩٩	الفوائد	محمد بن إسحاق بن منده
١٠٠	ظلال الجنة في تخريج السنة	ناصر الدين الألباني
١٠١	العقد الاجتماعي	جان جاك روسو
١٠٢	تسمية ولاة مصر	محمد بن يوسف الكندي
١٠٣	الأصل المفقود لتاريخ يوحنا أسقف نقيوس	بيجول السرياني
١٠٤	جمهرة رسائل العرب	أحمد صفوت
١٠٥	آثار وحضارة مصر القديمة	عبد الحليم نور الدين
١٠٦	المنمق من أخبار قريش	محمد بن حبيب البغدادي

١٠٧	ترتيب المدارك وتقريب المسالك	عياض بن موسى اليحصبي
١٠٨	لبنان من الفتح الاسلامي حتى سقوط الدول الأموية	عمر التدمري
١٠٩	فلسطين في خمسة قرون	خليل عثامنة
١١٠	العلاقة بين السنة والشيعة	سليم العوا
١١١	ثورة الزنج	فيصل السامر
١١٢	القرامطة من فكرة إلى دولة	مي خليفة
١١٣	كتاب السير	أحمد بن سعيد الشماخي
١١٤	تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان	عبدالله بن حميد السالمي
١١٥	أزمة الخلافة والامامة	أسعد وحيد القاسم
١١٦	الخلافة والملك	أبو الأعلى المودودي
١١٧	معجم البلدان	ياقوت بن عبد الله الحموي
١١٨	جمهرة النسب	هشام بن محمد الكلبي
١١٩	نزهة الأنام في محاسن الشام	عبد الله بن محمد البدري

١٢٠	تاريخ سورية ولبنان وفلسطين	فيليب حتي
١٢١	آثار سوريا المسيحية	أ. تيموثي
١٢٢	الجامع الاموي في دمشق	طلال العقيلي
١٢٣	الحقائق الوفية في تاريخ الكنيسة الأنطاكية	ميخائيل بريك
١٢٤	الاعتصام	إبراهيم بن موسى الشاطبي
١٢٥	في رحاب دمشق	محمد أحمد دهمان
١٢٦	دولة المختار الثقفي	صفاء الخطيب
١٢٧	خلفاء الرسول	خالد محمد خالد
١٢٨	رجال حول الرسول	
١٢٩	الشيعة في مصر	صالح الورداني
١٣٠	الخلافات بين المذاهب الإسلامية	عبد الرحمن عباد
١٣١	تاريخ إثيوبيا	زاهر رياض
١٣٢	ملوك العرب القدماء	آندرو كرايشتون
١٣٣	موسوعة العتبات المقدسة	جعفر الخليلي
١٣٤	أصول وتاريخ الفرق الإسلامية	مصطفى بن محمد
١٣٥	شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد

١٣٦	**موسوعة التاريخ الإسلامي**	أحمد شلبي
١٣٧	**موسوعة الخط العربي**	محسن الفتوني
١٣٨	**تاريخ الخطوط**	بيرنيه
١٣٩	**جامع الترمذي**	محمد بن عيسى الترمذي
١٤٠	**كتاب الأمالي**	محمد بن الحسن الطوسي
١٤١	**الطريق للحادي عشر من سبتمبر**	بيتر سكوت
١٤٢	**من قتل ديانا**	سيمون ريجان
١٤٣	**تمرد زائير: الثمرة المرة للحروب الباردة**	رالف يلينبيه
١٤٤	**إعلام الموقعين عن رب العالمين**	ابن قيم الجوزية
١٤٥	**الوحدة المصرية السورية في الوثائق البريطانية**	مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية
١٤٦	**حرب اليمن والخبرة المصرية مع حرب الغوريلا**	أبوالعينين يوسف
١٤٧	**الحرب الغير مقدسة، أفغانستان وأمريكا والإرهاب الدولي**	جون كولي

١٤٨	الحرب العالمية الرابعة، الدبلوماسية في زمن الإرهاب	آليساندر دو موبارك
١٤٩	بروفات الإرهاب	جوزيف نوبتو
١٥٠	العبر في خبر من غبر	شمس الدين الذهبي
١٥١	تاريخ الحروب الصليبية	ستيفن رنسمان
١٥٢	آل محمد في كربلاء	عمر أبو النصر
١٥٣	أبناء الرسول في كربلاء	خالد محمد خالد
١٥٤	أبو الشهداء	عباس العقاد
١٥٥	بطلة كربلاء	عائشة عبد الرحمن
١٥٦	أكثر لزوجة من البترول	راشيل برونسود
١٥٧	الحروب السرية لإسرائيل	إيان بلاك و بيني موريس
١٥٨	حروب الأشباح- التاريخ السري للمخابرات المركزية	ستيف كول
١٥٩	التريلاترالية، اللجنة ثلاثية الأطراف والتخطيط النخبوي لإدارة العالم	هولي سكلار
١٦٠	كيف يدار العالم حقيقة	آلان جونز